

رواية



# غريباً مثل الحسين

عبداجب رناصر



# غرباء مثل الحسين

رواية

عبد الجبار ناصر

الدار المصرية اللبنانية

ناصر، عبد الجبار .

غرياء مثل الحسين : رواية / عبد الجبار ناصر  
.. ط1. - القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2012 .

296 ص ، 21 سم

تدمك : 7 - 746 - 427 - 977 - 978

1 - القصص العربية .

أ - العنوان . 813

رقم الإيداع : 11007 / 2012

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - القاهرة .

تليفون: 23910250 +202

فاكس: 23909618 +202 - ص.ب. 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : رجب 1433 هـ - يونيو 2012 م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية ، ولا يجوز ،

بأي صورة من الصور ، التوصل ، المباشر أو غير المباشر ، الكلي أو الجزئي ، لأي  
مما ورد في هذا المصنف ، أو نسخه ، أو تصويره ، أو ترجمته أو تحويله أو الاقتباس  
منه ، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت ، إلا بإذن  
كتابي مسبق من الدار .

## الإهداء

إلى كل من ناضل وتصدى للظلم والاستبداد والخرافة،  
وضحى بنفسه من أجل الحرية والعدالة والسلام

السَّارُ تَخْبُو قَلِيلًا فِي مَوَاقِدِهَا  
وَحَلَفَهَا تَلْمَعُ الْأَحْدَاقُ نِيرَانًا

(حافظ الشيرازي)

سماع طرقات على الباب ليلا في تلك الأيام الموحشة الكئيبة، كاف لبث الرعب وإثارة المخاوف، خاصة إذا سيق الطرقات المفزعة صوت وقوف سيارة أمام باب الدار؛ لأن مدهامة المنازل تتم تحت عباءة الليل، وكذلك حملات التفتيش والاعتقالات، لا خوفا من أحد فتوراتنا الخالدة المجيدة تتحدى الإمبريالية والاستكبار والرجعية، ولا تسترا على ظلم؛ لأن هذه الثورات يقودها حتما زعماء معصومون، مؤمنون، اختارتهم العناية الإلهية لإدارة دفة سفينة الأمة إلى شاطئ الأمان والكرامة، بل كانت تلك الزيارات ممارسات ثورية لم يرتق الشعب إلى استيعابها بعد. لم يكن زوار الليل يحملون معهم غالبا باقات ورد أو صناديق هدايا أو أخبارا طيبة. ولأن الناس في مدننا المسيية تعودوا سماع صراخ يمزق صمت الليل وتستك له المسامع، فلم يكونوا بحاجة إلى رفع أذيان ستائر نوافذهم المطلّة على الشوارع والأزقة لاستطلاع الأخبار، فما عاد الفضول يأتي بجديد؛ لأنهم باتوا على بينة لا تقبل الطعن بأن الصراخ إعلان بأن الجيران فقدوا عزيزا، جيء بجثمانه، قتيلا في الحرب أو مات تحت التعذيب «لأسباب صحية»، أو أن ذلك العزيز أفتيد من داره ليرمى في النفق المجهول الذي لا عودة منه، فسجل المفقودين بات أكبر حجما حتى تعب الناس من البحث في جداوله. كل ما كان في مقدور أهل مدينتي فعله حين يتقّب الصراخ قلوبهم ويرعب أطفالهم هو الترحم على من مات والدعاء بالصبر على من بقي حيا.

في تلك الليلة جاء دوري، فثمة طرقات على الباب أفزعت أولادي الصغار وصعقت زوجتي وأذهلنتني. حين تطلعت من النافذة مستريبا، جفلت من رؤية رجلين مسلحين عند الباب. أخبرني أحدهما بأدب وهدوء أن أرافقهما إلى مقر المنظمة الحزبية في المنطقة؛ لأن المسؤول هناك طلب حضوري في الحال. أحسست بالاختناق مع أي لم أرتكب جريمة ولا دنبا ولا جنحة ولا معصية ولا إثما، لكنه النفق المجهول. قبل أن تتطلق بي سيارة اللاندكروز، التي كان يفضلها أعضاء الحزب وضباط الأمن، نظرت إلى زوجتي وأطفالي المسمرين على الباب، وكأني ألقى عليهم نظرة الوداع الأخيرة. كان تفكيري منحصرًا في محاولة تذكر إن كنت قد شتمت مسؤولا حكوميا أو حزبيا أو زل لساني في الحديث عن هول الحرب، فالوشاية أصبحت عند البعض درعا للدفاع عن النفس وسببا لنيل التكريم والثناء.

عند مقر منظمة الحزب الحاكم في المنطقة، أوقفوني في طابور طويل امتد مع سياج مبنى المنظمة الكبير ذي الطابقين. كنت أعرف الكثير من الواقفين مثل خراف عند بوابة مجزرة، فهم من أهل الحي الذي أظنه، وحدثت أنهم جميعا مستقلون أو ممن ينتمون إلى الحزب بالاسم فقط اتقاء لزوار الليل واستفسارات دائرة الأمن أو بحثا عن وظيفة، لكني لم أعرف سر الاستدعاء. رؤية ذلك الجمع المذعور بثّ شيئا من الطمأنينة في نفسي. قلت لنفسي إنه من غير المعقول أن يُتَّهموا جميعا وفي يوم واحد بمعاداة الحزب والثورة والوطن. سمعتهم يتهمسون بعبارات التذمر واللعن والدعاء بالسلامة. سألت أحد الواقفين: «ماذا يريدون منا؟» أجابني متبرما من دون أن يلتفت إليّ: «سيوزعون علينا قبورا مجانية.» قلت ساخرا: «لا أظنهم كرماء إلى هذا الحد فكثرة قتلى الحرب جعلت أسعار القبور خيالية.» التفت الرجل إليّ دون أن يعلق بشيء بل اكتفى بابتسامة باهتة.

لم يسبق لي أن رأيت «الرفيق عطا» مسؤول المنظمة من قبل، لكنني سمعت عنه الكثير، فالناس لم ينسوا فظاعته وقسوته واستهتاره يوم كان، قبل ثمانية عشر عاما، مسؤول الحرس القومي في منطقة «الفضل» ببغداد. قالوا عنه إنه كان بعد أن يسكر ليلا يتوجه إلى المعتقل حيث يتكس مئات الأبرياء المتهمين بمعادة انقلاب الثامن من شباط عام 1963، أو الانضمام إلى الحزب الشيوعي. كان يقتحم الزنانات ويختار فريسته، فيأتي الرفاق بالمعتقل إلى غرفة التعذيب ليتركوه وحيدا مع الجلاد المتلذذ بتلوي المتهم وصراخه. عندما يعود منهكا عند منتصف الليل وقبل أن يدخل منزله يرفع غدارة «بور سعيد» مترنحا، يطلق الرصاص في الهواء صاخا: «أيها المسلمون.. أيها المواطنون الصالحون أبقروا بخبر سعيد.. أزهقتُ هذه الليلة روح كافر مسكوفي آخر.»

كنتُ فريسة قلق وذعر كان من الصعب مقاومتهما، وبعد انتظار ليس بالقصير جاء دوري، فرافقني رجل بثوبه الزيتوني يدس مسدسه في وسطه بطريقة تتسم بالاستهتار واستفزاز الآخرين. فتح الرجل باب إحدى الغرف ودفعني داخلها. كانت الغرفة واسعة، متخمة بالدفء، مشبعة برائحة عطر فاخر. على الحائط صورة ملونة كبيرة للرئيس صدام حسين بملابس عسكرية، وعلى طاولة عريضة من خشب الصاج المزخرف بندقية رشاشة ومخزن عتاد ومسدس. تحت الصورة جلس المسؤول الحزبي يرتدي بذلة زيتونية اللون. كان كبير الرأس، قصير القامة، ذا شارب أسود كثيف سد منخريه. عندما كان يتحدث يحرك ذراعيه الطويلتين بخفة ورشاقة وكأنه قرد سيرك محترف. وقفت في ركن الغرفة منتظرا دوري. كان «الرفيق» يصلي بنظرات غاضبة رجلا مسنا ذا لحية بيضاء مرتديا ثوبا رثا. كان الرجل يقف مرتجفا وقدماه الحافيتان تتحركان لا شعوريا حتى سرت عدوهما إلي. خطر في بالي أن المسؤول كان سعيدا باستعادة ذلك الدور الذي لعبه قبل ثمانية عشر عاما. صرخ «الرفيق عطا» بالحافي المرتجف أن يعترف، مؤكدا أنه لا ييخل بعشرين فلسا ثمن إطلاقه رصاصة يفرغها في رأسه. قال المسكين على الفور رافعا يديه إلى الأعلى، ونظراته تنتقل من المسؤول إلى الواقفين في الغرفة، وشملتني أنا أيضا: «لا حاجة إلى إطلاق الرصاص. أعترف بكل ما تريدون.. أنا.. أنا متآمر.»

تطلع «الرفيق» مبتسما إلى ثلاثة من رفاقه الواقفين متأبطين أيديهم مثل موميאות، ينبئهم بانتصاره في انتزاع الاعترافات الخطيرة. نظر إلى الرجل نظرة عطف لم يجد أداءها: «الآن أثبت أنك على حكمة في اختيارك طريق السلامة. حدثني أيها الرجل الطيب عن الرؤوس الكبيرة في المؤامرة والجهات العميلة الداعمة لها والدول الأجنبية الممولة وأهداف التآمر والمهمة المناطة بك وحصتك من التمويل.. هيا.»

كادت تقلت مني ضحكة على الرغم من الذعر الذي كنت فيه، فلو كان هذا المسكين قد استلم حفنة من الدنانير لأشترى على الأقل حذاء يقيه البرد. بدا الرجل في حيرة من أمره لا يعرف إجابة عن أشياء لم يعرفها أو يسمع بها من قبل. تغيرت سحنة «الرفيق» ووقف منتقخ الأوداج دافعا بردفيه كرسية الوثير الدوار: «أريد تفاصيل المؤامرة.»

تساءل الرجل المسكين مستغربا: «أية مؤامرة؟»

تناول «الرفيق عطا» البندقية وثبت مخزن العتاد عليها والكلمات تتقطع بين أسنانه: «اعترفت أنك متآمر، والمؤامرة هي فعل قمت به مع آخرين ضد الحزب القائد والثورة المجيدة.»

أجاب الرجل المسن متتهدا: «الآن فهمت. أنا متآمر بأية تهمة يختارها جنابك الكريم.»

شعر عطا بالإحباط فضرب الطاولة بقبضته. أسرع أحد المومياوات وهمس في أذنه بضع كلمات. تساءل ضجرا: « ما سر ترددك على الجامع القريب من بيتك ما بين الصلوات الخمس؟ » أجاب الرجل وقد شعر ببعض الطمأنينة: « نعم، أنا متآمر لأنني أصلي النوافل هناك. » أطلق المسؤول ضحكة عالية قائلا للواقفين حوله من مساعدين: « ألم تجدوا غير هذا الأبله؟ أعيدوه إلى بيته. »

همّ بالحديث معي، لكن رنين جرس التليفون حول انتباهه عني، تكلم مع أحدهم باهتمام بالغ وكأنه يلقي خطابا في ندوة حزبية، مؤكدا أنه لن يقصر في لملة المتطوعين وسوقهم إلى جبهات القتال، فالمعركة كما قال تتوقف عليها وحدة الوطن واستقلاله وكرامته. لكن بعد قليل، تغيرت لهجته وانبسطت أساريره وراح يؤكد جذلا سعادته بحضوره حفلة تحدث عنها مع الطرف الآخر مبديا إعجابه بالحركات العجيبة التي تؤديها الراقصات الغجريات، واستعداده للمشاركة ببضع قنان من الويسكي الفاخر المعتق.

أغلق التليفون وفرك يديه مبتسما، لكنه حين انتبه لوجودي، ارتبك قليلا متراجعا بكرسيه عن الطاولة العريضة متصنعا الجد: « ولك! هارب من الخدمة العسكرية؟ من يفر من الواجب المقدس.. »

قاطعته أحد الثلاثة الواقفين في الغرفة: « أنه ليس من الهاربين الذين قبضنا عليهم، إنه.. » لم يدع المسؤول الحزبي معاونه يكمل عبارته، فقال مقاطعا موحيا بذكائه وفطنته: « في الحقيقة أننا تعلمنا أن ننظر في عيون المذنب فنعرف أية جريمة ارتكب. لا تعتقد أن أمرك خاف علينا، فعيون الرفاق الساهرة على الوطن وسلامته تتبعت حركاتك، حركة حركة، واتصالاتك المشبوهة، ومن الأفضل لك ولعائلتك أن تعترف بكل التفاصيل، وتذكر أسماء وعناوين من كان معك في التنظيم المعادي.. »

صعقتني عباراته وشعرت بدوار يلغني، أيقنت أنها النهاية فما دامت التهمة محددة فالعقوبة معروفة. فكرت أن هنالك اشتباها بالاسم، فأسماء العراقيين متشابهة كثيرا، أو لعل أحدهم أدلى باسمي كي يتخلص من عذاب لا يحتمل، أو ربما جاء اسمي عرضا في اعترافات أحدهم. أنقذني معاونه الواقف بجواره من تهمة مهلكة ليس في مقدور أحد نقضها، فقاطعته وجلا: « عفوا رفيقي، إنه ليس... ».

أسكته المسؤول الحزبي بإشارة من يده التي لمع على سبابتها خاتم ذهبي عريض تعلوه شذرة كبيرة: « فهمت، أردت أن أقول ذلك، لقد شتمت الرئيس القائد، أليس كذلك؟ إننا نعرف كل شيء، حتى ما يهمس به أحدكم لنفسه، فكيف لا نعرف من شتم الرئيس أو لعنه؟ عجبا! كيف يمكن أن نتناول على رب نعمتك؟ » سحب نفسا طويلا قال بعده: « أن تكفر بالدين فذلك ذنب يحاسبك عليه رب العالمين، لكن أن تشتم الرئيس فهذه جريمة كبرى وذنب عظيم، فإله - سبحانه - هو من اختار الرئيس من بين كل الملايين ليكون قائد هذه الأمة، واختارنا الله لنكون من جنود القائد المخلصين. في الحقيقة و... ».

تدخل معاون مرة أخرى: « رفيقي، جننا به ليتطوع في... ».

انبسطت أسارير المسؤول، قال وهو ينظر إلى ساعته ذات السوار الذهبي: «هل تدري يا هذا؟ كتبت عصر هذا اليوم تقريراً إلى مسؤول فرع الحزب- وهو من كنت أتحدث معه قبل قليل وسأحضر معه الليلة اجتماعاً مهماً لمناقشة خطط تعبوية تخص الجبهة الداخلية- نقلت فيه بأمانة تامة ما رأيته من حماس الناس وتدافعهم على باب منظمة الحزب لتسجيل أسمائهم ضمن المتطوعين للمشاركة في المعركة. قال لي مواطن بالحرف الواحد، والله شاهد على ما أقول، إذا لم تسجلوا اسمي ضمن المتطوعين سأنتحر؛ لأنني أشعر بالعار لعدم مشاركتي في معركة قادسية صدام المجيدة. في الحقيقة والواقع، أن شعبنا يدعو للفخر، فمع أننا نعمل بمبدأ «نفذ ثم ناقش» إلا أن معظم من التحق بالقطاع الأول للجيش الشعبي من هذه المنطقة ذهب إلى ساحة المعركة وبعضهم استشهد من دون أن يناقش. هنيئاً لك، جاءتك الفرصة الآن لتساهم مع النشامى من أهل المنطقة في الدفاع عن تراب الوطن الحبيب ومنجزات الثورة العظيمة، وتثبت حبك للعراق وولاءك للقيادة. إن من محاسن معركة قادسية صدام أنها محك للوطنية وأداء الواجب المقدس.»

قلت له بعد أن استقرت الأرض تحت أقدامي: «أنا أخدم وطني أيضاً، كما أنني لا أفهم شيئاً عن الحرب والقتال.»

مد رأسه إلى الأمام متصنعاً الاهتمام: «ستعرف كل شيء عن الحرب والقتال في معسكر التدريب.» فكر قليلاً قبل أن يسألني: «قل لي ما هي خدمتك للوطن؟»

أجبت مدركاً سخريته: «أنا صحفي وكاتب قصص أطفال والرئيس يقول القلم والبندقية فوهة واحدة.»

انفجر المسؤول الحزبي في ضحكة طويلة وهو يربت على كرشه، وقال مستهزئاً: «يمكنك يا كاتب الأطفال أن تكتب في الجبهة قصة السلحفاة العنيفة والتمساح الرقيق.»

ضح أعوانه الواقفون في الغرفة بضحك هستيري. واصل كلامه متطلعاً في ساعته اليدوية: «ألم تسمع مقولة السيد الرئيس القائد حفظه الله «كل شيء من أجل المعركة»؟ يا أستاذ، الوطن في خطر وأنت تحدثني عما تكتبه من تفاهة. هل تدري كم شاباً يقتل في الجبهة في هذه اللحظات من أجلك ومن أجل عائلتك وأقربائك؟ الوطنية ليست شعارات فقط، صفحات المجد الخالدة هي ما يكتبه الأبطال في جبهات القتال وليس قصص الأطفال وكلام الجرائد.»

نبرة المسؤول الحزبي «الرفيق عطا» وعطره وخاتمه الذهبي الكبير كلها أوحى بأن الرجل لم ير خطوط جبهة القتال في يوم من الأيام. أوماً برأسه إلى «الرفاق» فأخرجوني من الغرفة وقادوني نحو مجموعة المساكن الواقفين في حديقة المقر والذين جيء ببعضهم من دون أن يمنح فرصة تبديل ثياب النوم، وكان بينهم كاظم الخباز وكاكا حسين وفوزي حسن وأحمد القيسي وزيني. كانوا ذاهلين ساخطين متذمرين يغمغمون بكلمات مبهمة.

ومن معسكر التدريب إلى خطوط الموت. وهناك كانت بداية النهاية

## 2

بدأ يوم السبت الثاني والعشرين من أيار عام 1982 مثل الأيام القليلة التي سبقته. فجر شاحب رطب نشر ضياءه الرصاصي سريعا على الخرائب والسواتر الترايبية الندية التي أبدلت خريطة المحمرة. تظهر مع الضياء الأول جذوع النخيل المنتصبة بلا رؤوس والشجيرات المتقمة، الساحة الترايبية المحاطة بأنقاض سياج والتي ربما كانت يوما ما ملعبا لكرة القدم تبارى على أرضه صبية لا بد أنهم حلموا بالكؤوس والميداليات والشهرة، وتعالى صيحات التشجيع على جانبيه، لكن الساحة تحولت إلى حقل مزروع بأعمدة خشبية تسند سيارات قديمة أو محترقة منصوبة بشكل عمودي لتعيق أية عملية إنزال محتملة.

دفع ضياء الفجر بعيدا الكلاب السائبة الدائرة حولنا التي انتظرت بنفاد صبر حصتها من أجسادنا بعد أن اعتادت أن تكون وجباتها لحم الجثث المتفسخة المطمورة تحت الأنقاض والتي لا تزال رائحتها ملتصقة بأنفي، بالهواء الذي أنتفسه الآن. أزاح الفجر أسراب البعوض التي لم تشبع بعد من دماننا، فضح ما أفلقني في الليل من مخاوف من هينات وأشكال من جذوع نخلات مائلة نحو بعضها، حطام أعمدة أسرة منتصبة، بقايا جدران نحتتها القذائف على هيئة أشباح مقطوعة الرؤوس أو الأطراف، كتل من الأجر والكونكريت، بقايا أبواب وقطع أثاث قديم ولعب أطفال وأشياش حديدية كانت يوما ترفع سقوف بيوت ضمت أسراراً ومناجاة، ترددت في أرجائها ككركات الأطفال وأفراح الأعياد وأغاني الأعراس وصرخات الرعب الأخيرة وسط دوي انفجار القذائف ودخان الحرائق، دفعتها الجرافات لتكون ساترا عاليا، فتراءت لي طوال الليل كأنها رؤوس وهينات أشخاص يزحفون نحو مواقعنا يحزون الرقاب ويرقصون على الجثث المستباحة.

اكتسح الفجر أمنيات رسمتها في وحدة الليل على لوحة الظلام، فأجل ضياؤه إلى حين معجزات أحلام اليقظة ولقاء الأحبة وعودة السلام، فالأبواب السرية لم تفتح بعد، وعملاق مصباح علاء الدين فضّل البقاء في قممه على مخاطرة الظهور في مواقع القصف العشوائي، والعجوز الساحرة فقدت من هول الانفجارات عصاها، وجنية البحر تكره الحروب، وسيف بن ذي يزن وقع هدنة مع أعدائه.

في الليلة الماضية، انقطع القصف المدفعي، فعاودت أمنياتي. فكرت في الحرب. ما من حرب إلا ورافقتها مزاعم في الرغبة في السلام والحياة الكريمة. لكن الحرب، أية حرب، هي دائما مغامرة خطيرة ومقامرة بالأرواح. تمنيت أن نعود إلى ديارنا سالمين أو معاقين، غانمين- وإن لم يعد في الحروب مغنم- أو خاسرين. المهم أن نعود ولو للحظات إلى حياتنا كبشر. تمنيت أن أعود لأكتب عما في عقلي وقلبي، عن هذا العالم، أن أبحر في شوارع المدن وزوايا بيوتها، أن أكتب عن موت النخيل لا عن حياة طفيليات قاع البحر، عن الحقيقة لا عن الوهم. لو عدت في اليوم التالي أو في الأسبوع التالي، سأصحح أخطائي. لكن لن يضرني إن كررتها ثانية. سأقرأ الكتب الكثيرة وأتعلم لغات أخرى. سأكتب روايتي التي فكرت فيها كثيرا. أن أكتب ليل نهار. لو عدت سأعلق بدلتى العسكرية وأكتب تحتها قصاصة من الورق "عندما كنت يوما ما مجرد رقم وفوهة بندقية".

كان الفجر هدنة قصيرة مؤقتة غير معلنة، أباحت لي الخروج من الموضع الضيق والوقوف باستقامة والتحرك بأمان، لكن هدنة الفجر خادعة، فصمت المدافع والبنادق مخادع يوهم بسلام دائم

لا تتقضه القنابل والصواريخ وبيانات أعداد القتلى، ومع أن ذلك الصمت قصير لكنه كان يبعث في النفس تشبهاً بالحياة، بالعودة إلى الطبيعة الإنسانية المسالمة، بتحدي أولئك المهوسين بالقوة والسلطة، بالخلاص من برائن الموت التي وقفت عندها، تحسستها برهبة.

وقف أحمد القيسي على المنطقة الفاصلة بين حفرتينا نازعا خوذته. كان وجهه المغطى بالتراب مثيراً للضحك لكنني لم أضحك خوفاً من فقدان النعاس الذي داهمني، فالحر والبعوض في حلف مع العدو في حرماننا من النوم. كان الفجر ببرودته اللذيذة المنعشة وقتاً مناسباً للنوم ولو لوقت قصير، فنسيم الصباح عذب والمدافع في استراحة. حرك أحمد جسمه الضخم بحركات طفولية. قال متطلعاً إلى الجهة المقابلة: « هل جن الإيرانيون أم أصابهم الأرق؟ لم تتوقف مدفعيتهم عن القصف طوال الليل.»

قلت متثابراً: «ربما يمهدون لهجوم كبير.» فرك وجهه بقطعة قماش يدها دائماً في جيبه. لاح وجهه متجهماً. همهم بكلمات سباب ثم أردف بصوت خفيض: «اللجنة على المسؤول الحزبي في المنطقة.. لقد بينت له أكبر سبب وجيه لضرورة عدم التحاقى بالجبهة. لكن اللعين رفض.»

حين رأى في عيني التساؤل، انبسطت تقاسيم وجهه استعداداً لضحكة عالية مجلجلة: « قلت له من الضروري أن أبقى، فإذا ذهبت أنا أيضاً فمن سيروي قصة الحرب؟» ضحك عالياً فأثار انتباه بقية أفراد الفصيل الثالث التابع للسرية الثالثة من اللواء العشرين للمهمات الخاصة. تطلع مرة أخرى إلى الجهة الإيرانية: «إنك على صواب.. إنهم يمهدون لهجوم على مواضعنا، فعلياً أن نستعد لهم.. نأكل ما تبقى من الصمون ونشرب الشاي الساخن، وليحدث بعد ذلك الطوفان.»

برز زين العابدين علي عمر من حفرة أغبر الشعر والوجه. تقدم نحونا بجسده النحيل ماشياً بخطوات متباعدة بطيئة. صاح به أحمد القيسي معاتباً: « لا بد أنك أمضيت الليل بلا خوذة، أين نسيتها هذه المرة؟» أجاب زين العابدين أو «زيني» كما نسميه، بهدوء وعيناه الخضراوان تدوران بيننا: « خوذتي موجودة. فكرت أثناء القصف أيهما أكثر نفعاً أن أكون أعور أو أطرش أو أكون ميتاً؟ حينذاك رفعت الخوذة من رأسي ووضعتها على قلبي.»

حمل فوزي إبيرقا عبر الساتر المنخفض لقضاء حاجته. كان ذلك المكان هو الوحيد بعيداً عن عيون الآخرين، فالأرض من حولنا منبسطة تماماً ليس عليها سوى أشواك قصيرة يابسة. سقطت قذيفة بالقرب من الساتر. صرخ زيني ضاحكاً: «استشهد فوزي وهو في مهمة قتالية.» ظهر فوزي بقامته القصيرة وصلعته التي يشبهها بشارع عريض ذي أشجار كثيفة على جانبيه، واقفاً على الساتر، وسرواله مكوم عند رجليه، وإبريق البلاستيك بيده. تضاحك أفراد الفصيل. اقترح أحدهم عليه أن يقضي حاجته في أعلى الساتر لتصد رصاص القناصة. لم يعبأ فوزي بصيحات المقاتلين الباحثين عن شيء ينسيهم الجحيم الذين هم فيه. غاب فوزي مرة أخرى، وشاء حظه أن سقطت قذيفة أخرى. في هذه المرة رأينا فوزي ينحدر من الساتر سريعاً ويقفز في حفرة ساحبا رجليه سرواله ولباسه الداخلي بينما ظلت يده اليمنى ممسكة بالإبريق تلاحقه صيحات أفراد الفصيل المازحة الساخرة.

فتح زيني جهاز الراديو الصغير. كان في الصباح الباكر من كل يوم، يحرص على سماع نشرة الأخبار من القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية. قالت الإذاعة إن قوات المارينز الملكية وقوات المظليين البريطانية قامت بعملية إنزال ناجحة في خليج سان كارلوس بجزر الفوكلاند.

صاح أحمد متذمرا: «لعن الله الإنجليز والأرجنتين وسان كارلوس.. من أين جاءتنا مصيبة الفوكلاند هذه؟ العالم كله مشغول الآن بهذه الحرب ونسي حربنا.» علق زيني بنبرة الخبير: «اطمئن، لن تطول مدة هذه الحرب.» سأله أحمد مستغربا: «حربنا مع إيران؟»

هز زيني رأسه إلى الجهتين مغمضا عينيه مقلدا حركات أبيه الشيخ الراحل، كما وصفها لنا من قبل: «حرب الفوكلاند يا ولدي.»

«هل قرأت هذا في كوبك المعدني؟»

ناد برأسه باعتداد وثقة: «الإنجليز عقلاء. الأمور عندهم لا يقررها فرد واحد، بل كل قرار لا بد أن يكون مبنيا على دراسات وخبرات، والحكومة مسؤولة أمام الشعب والبرلمان عن مقتل أي جندي؛ لذلك ستحسم بريطانيا الأمر.. أما حكومة الأرجنتين فلن تقدم ضحايا من دون مبرر، ولا توزع مفاتيح الجنة، والأرجنتينيون لا يؤمنون بأنهم خسروا معركة ولم يخسروا حربا، الخسارة عندهم خسارة ولا يمكن أن تؤلّ بغير ذلك. لهذا سيعلن وقف إطلاق النار قريبا. من يراهنني على ذلك؟» عبرت نظراتنا إليه عن إعجاب بوجهة نظره، فرفع صدره متباهيا وراح يفتل شاربه الأصفر المغبر. كان كل شيء عند زيني خاضعا للرهان، الحرب والقصف ومواعيد الهجوم والهجوم المضاد ومجيء شاحنة توزيع القصة. قالوا عنه إنه معروف بكثرة مراهناته على الديكة في منطقة الأعظمية. قلت معقبا: «الإنجليز يفكرون بمصالحهم القريبة والبعيدة، ولا يهم عندهم تقديم خسائر ما دام الهدف يخدم تلك المصالح، أما قادة العرب فهم انفعاليون، يتخذون القرارات ثم يفكرون فيها.»

جاء دور أخبار الحرب بين العراق وإيران، فقال أحد مراسلي الإذاعة إن مصادر موثوقة أكدت أن إيران قد دفعت بقوات كبيرة من الجيش والحرس وعشرات الآلاف من المتطوعين إلى القاطع الجنوبي لاستعادة مدينة خرمشهر (المحمرة). لم يعلق أحد ولم نعد نسمع سوى صوت صفير ارتشافنا الشاي من أكوابنا المنبجعة الساخنة.

وكما كان متوقعا، اندلع النقاش حول ما يتوجب على القيادة اتخاذه وفقا للتطورات. كان الاستمتاع بشرب الشاي والتدخين باسترخاء أهم عندي من دخول نقاش غير مجد. كنت أعرف جيدا تاريخ منطقة عربستان وجغرافيتها، فمدينة المحمرة (أو خرمشهر كما يسميها الإيرانيون) تقع جنوب غربي إقليم عربستان أو خوزستان، عند التقاء نهر الكارون بشط العرب، تحدها من الشمال مدينة الأهواز، ومن الشرق ميناء ماهشهر، ومن الجنوب عبادان والخليج العربي، ومن الغرب شط العرب والعراق. ومكاننا الآن شمال المدينة عند الأرض الحرام المواجهة لنهر الكارون وجهة الأهواز.

أشرفت الشمس وارتفعت الحرارة والرطوبة. شمس أيار حارقة صاعقة، يغطي وهجها العيون التي تنتيه نظراتها مع خرائب المدينة وأعمدة دخان القذائف المتساقطة هنا وهناك، حينها تنتشظى الذاكرة بين رغبة الحياة وواقع كوابيس الموت، فكانت أنفاسي تتلاحق وتزداد حبات العرق التي تغسل التراب المتكلس على وجهي، جارفة معها الملوحة إلى شفتي.

عند الساعة الثامنة إلا قليلا، بدأ القصف المدفعي المتبادل. عدنا إلى حفرة الصغيرة نتخذ فيها الجلسة نفسها التي كنا عليها في أرحام أمهاتنا. كانت الأرض تهتز بفعل انفجار القذائف المتساقطة

من حولنا. صفير القذائف قبل انفجارها أكثر رعباً من دويها بعد ذلك. كان الصفير يثقب الرأس، يعصر الجسد ويلصقه بقاع الحفرة وجدرانها. قيل لي في الأيام الأولى إن سماع الصفير علامة على سلامتك من الموت أشلاء من تلك القذيفة، لكن ذلك لم يخفف من هلعي.

لو لم يخطفوني من بيتي ويرموني وسط هذا الخراب، لكنت في مثل هذا الوقت بالضبط، قد غادرت البيت إلى مقر عملي، ماشياً على الرصيف حاملاً حقيبتي الصغيرة التي أفس فيها مسودات قصص الأطفال وأوراقاً بيضاء وكتاباً أو كتابين، ألقى التحية على العجائز اللواتي كن يستمتعن برش الماء أمام بيوتهن ويتنشقن نسيم الصباح ورائحة التراب الندي، أشم رائحة الخبز وأرى ابتسامة كاظم الخباز وأقرأ على شفتيه من بعيد تحية الصباح. أنحرف يساراً لأقطع طريقاً ترابياً مغسولاً بالندى لأصل إلى الشارع الرئيس ومن هناك أستقل الحافلة.

انتبهت إلى صوت أمر الفصيل نائب الضابط قوات خاصة، خالد، الذي كان العسكري الفعلي الوحيد في الفصيل. رفعت رأسي فرأيت يركض منحنيماً باتجاه الساتر وخلفه رمضان حاملاً جهاز المخابرات. صاح خالد بصوت عالٍ: «أخبروني الآن أننا في حالة إنذار (جيم)».

لم تكن درجة الإنذار تلك تثير فيّ أكثر مما كنت عليه من رعب، فمنذ أن وطأت قدمي أرض جبهة القتال وحتى هذه اللحظة، لم يخطر ببالي أنني قد أكون مفيداً في هذه اللعبة الخطرة، ربما كنت مجرد رقم في عداد المقاتلين، وكل الموجودين هنا مجرد أرقام قابلة للشطب والحذف. لم أستطع التكيف مع كل ما في الحرب من قتل ودمار وشعارات لا وجود لمدلولاتها. لا جدوى من وجودي هنا ولم يخطر ببالي قط أنني قد أكون مقاتلاً أو مجرد بندقية، أطلق الرصاص بغزارة لتنتثر حولي غلف نحاسية ساخنة ثم أرفع أصابعي بإشارة النصر. لا أجد القتال، وفي الحقيقة لا أجد شيئاً سوى مهنتي، كتابة قصص الأطفال. الكتابة للأطفال عمل رائع ممتع، تجعلني أتجاوز حدود المنطق والحقائق، أعيش في عوالم العفاريات والمعجزات والسحرة المحبطين دائماً والأبطال الخرافيين.

كان سلاحي بندقية روسية الصنع لعلها ستكون ذات قيمة بيد حارس ليلي يبعد بها اللصوص، أو بجوار مقعد سائق يواجه بها قطاع الطرق، لكن ما الذي كان يمكنها أن تفعل لحمايتي أثناء القصف المدفعي وسقوط قذائف الهاون أو صواريخ الطائرات؟ لا أصدق حتى هذه اللحظة أنني كنت أستطيع أن أفعل شيئاً في هجوم أو صد هجوم. لم أرغب يوماً في تعلم الرماية أو استخدام أي سلاح ناري. لم تكن البندقية هي كل ما تدربت عليه في معسكر التدريب الذي أمضيت فيه أسبوعاً كاملاً كنت فيه مشدوداً طوال الوقت إلى أخبار الحرب والمساعي الدولية لإنهائها، متمنياً أن يستمر التدريب مدة طويلة كي تنتهي الحرب قبل أن تنتهي أنفاس وجبات جديدة. في ساعات الضجر كنت أستعيد ضاحكاً أيام التدريب تلك. لم أكن مهتماً كثيراً بما كان يقوله العريف المدرب عن كيفية تعبئة الصواريخ في قاذفة «آر. بي. جي. 7» المضادة للدروع وتصويبها نحو الهدف، وفي يوم التطبيق العملي كان عليّ إطلاق ثلاثة صواريخ وكان الهدف مجموعة من البراميل المعبأة بالتراب التي تبعد عنا مسافة ثلاثمائة متر، ولم أكن أتوقع إصابة الهدف وإن كانت الهبة الخلفية للقاذفة تخفف كثيراً من رد الفعل، لكن شاء حظي أن العريف صيهود ترك الموجودين وتفرغ لمراقبتي. وقف بجانب عاقدا ذراعيه على صدره يمص شفته السفلى بتلذذ فيما انتصبت شعرات شاربه

كأشواك برية. قال جادا محذرا: «أنت الآن أمام دبابة للعدو، إن لم تضربها فاقراً على روحك السلام.»

أبطأت في تركيب الصاروخ لعله ينزاح عني، لكنه صاح بنفاد صبر: «الدبابة المعادية تقترب.» أطلقت الصاروخ الأول فسقط قبل الوصول إلى الهدف بمسافة قليلة. ضرب العريف فخذه براحة يده وصاح غاضبا: «جاء بك إلى هنا لتتدرب على ضرب الدروع وليس حفر آبار النفط.» انتظرت ابتعاده، لكنه بدا مصرا على البقاء إلى جوارى. أربكني وجوده. ولتحاشي ارتطام الصاروخ الثاني بالأرض، رفعت القاذفة إلى الأعلى قليلا، لكن الصاروخ انطلق عاليا وانفجر في الجو. علق العريف باستخفاف: «فاتني أنك تدربت على إسقاط المروحيات.» كان الآخرون يتهامسون ضاحكين مرددين تعليقات العريف اللاذعة. كان عليّ التركيز أكثر لتقادي الإحراج أمامه وأمام الآخرين. دقت على الهدف عبر الناظور، وأطلقت الصاروخ الثالث الذي سقط في الفراغ بين البراميل، فقال العريف مصرا على أسنانه: «مشاعرك، كما يبدو حساسة جدا، حتى إنك تعطف على البراميل ولا تريد أذيتها ولا حتى مسها.» اقترح بجفاء تدريبي على بندقية «الكلاشنكوف» لكن لم أتدرب عليها طويلا فمدة التدريب لم تطل كما تمنيت، ففي نهاية الأسبوع أمرونا فجأة بجمع حاجياتنا والصعود في باصات لتنتقلنا إلى القاطع الجنوبي، إلى خطوط الحرب الأكثر سخونة.

لم يكن حال أحمد القيسي وزيني بأفضل مني. في الأيام الأولى في معسكر التدريب، سألونا أن نختر السلاح الذي سنتدرب عليه. كان أحمد أول من رفع يده، طلب أن يتدرب على المدافع الثقيلة. رد عليه أمر السرية النقيب حسن ضاحكا: «الحمد لله أنك لم تطلب التدريب على قيادة الميغ. أفراد الجيش الشعبي يتدربون فقط على الأسلحة الخفيفة.» لم يكن أحمد جادا في طلبه، فهمس في أذني كاتما ضحكته أنه اختار المدفعية لأنها دائما بعيدة عن الخطوط الأمامية. تدرب أحمد على بندقية القناصة. أما زيني فأخبر النقيب بأنه ماهر في استخدام المسدس، فرد عليه النقيب: «ستذهب إلى ساحة قتال وليس إلى حانة في أفلام الكابوي، وفي الحرب لا وجود لجيسي جيمس وكاري كوبر وترنتي.»

لم نكن نعرف غاية توزيع الفصائل على امتداد منطقة الميناء في مدينة المحمر (خرمشهر)، محطتنا الأولى في جبهة الحرب، وهي منطقة لا تبعد كثيرا عن خطوط المواجهة. كانت مهمة فصيلنا في الطرف الجنوبي من الميناء، وهو مكان لا يبعد كثيرا عن مصب نهر الكارون في شط العرب، والإيرانيون على الضفة الأخرى من النهر، ويفصلنا عن «الكارون» سائر محصن منيع وبعده بيوت وخرائب وأشجار نخيل كثيرة. لكن ذلك لم يمنع تسلل بعض القناصة الإيرانيين. في اليوم الثالث عرفنا أن مهمتنا كانت صد أية محاولة إنزال معادية، وفي الحقيقة لم تكن لنا القدرة على صد أي إنزال، بل كنا مجرد مجسات تسجل خسارتها وقوع الإنزال. كانت الأوامر تدفعنا أحيانا إلى التقدم نحو خطوط المواجهة، لكنهم كانوا يعيدوننا إلى الميناء ثانية بعد خسائر ليست قليلة. اعتبر الكثيرون مكاننا محطة استراحة، لكنها كانت استراحة مؤقتة دخلنا بعدها في عداد المفقودين.

أمضينا أيامنا الثلاثة الأولى في تحصين خرائب كانت كل ما تبقى من بنايات أو بيوت مجاورة للميناء تروي شراسة المعارك التي دارت عند دخول القوات العراقية لهذه المدينة في أواخر

تشرين الأول عام 1980. لم نكن قد عرفنا ضراوة الحرب بعد، ولم ندرك أننا كنا نقف عند بوابات الجحيم.

اشتد القصف وارتفعت حرارة الشمس، فوضعت رأسي بين ركبتي مقرصا خلف الساتر الترابي. بعد ساعتين توقف القصف المدفعي وهدأت الجبهة فجأة. ارتفعت الخوذ ظاهرة على سطح المواضع الصغيرة ببطء وحذر، كأنما الوجوه المغبرة وجوه أموات نهضوا للتو. تبادلنا نظرات سريعة لإحصاء الخسائر. جميع أفراد الفصيل سالمون. في هذه اللحظات فقط تأجلت مخاوف الموت الرهيبة وغابت صور الأشلاء المتفحمة المتطايرة، جلست متربعاً على حافة الموضع مدخنا سيجارتي بنشوة لأشعر فقط بما تبقى لي من لذائذ الحياة، بينما ركض غانم نحو ربوة خلف الساتر ليتبول وراءها، تبعه زيني الذي كان يفعل ذلك بعد كل رشق من قذائف المدفعية المعادية، كان مرعوباً دائماً لكنه يغطي خوفه بتظاهره بالمرح وسرد النكات عن الآخرين. أما غانم فقد استغربت جرأته قبل يومين حين اقترح عليّ الفرار معاً من الجبهة، لكنني لم أثق به، ولم أثق تماماً بالآخرين أيضاً ولا أعتقد أنهم منحوني ثقتهم. كنا جميعاً نخاف من بعضنا بعضاً.

كانت مواضعنا في آخر خط طويل من مواضع صغيرة حُفرت قريباً من الساتر الترابي المنخفض فبدت كأنها قبور جماعية. لم يرغب عن بالي أن المواضع الصغيرة قد تكون قبورنا وإن كانت أكثر ضيقاً. حين مسحت جبته التي امتزج عليها الغبار والعرق، استغربت ذلك الهدوء، لكن ما العاصفة التي تليه؟

عاد النقاش من جديد. وجدت نفسي خارجاً من شرنقة المحاذير والمحظور، فأبدت رأبي علانية في أن الحرب دائماً أسوأ خيار، وأنها خطيئة كبرى ضاعت فيها الحقائق، فقيادة إيران يريدون العودة بشعبهم إلى قرون ولت وفرض مفاهيم ثورتهم على الآخرين، أما حكومتنا فتحاول نفض الغبار عن معارك قديمة دارت قبل ألف وأربعمائة سنة.

صاح غانم بصوت سمعه أفراد السرية الآخرون وهو يركض مسرعاً نحو الموضع: «جاء النقيب كريم.. ضابط الارتباط وساعي بريد قائد المحمرة.. لعله يحمل إلينا خبراً ساراً على غير عادته.»

استدارت الخوذ المموهة ببقع الطين المتبيس نحو سيارة الجيب التي ترجل منها النقيب ومرافقه. كان الضابط الشاب يأتينا أحياناً مسرعاً، موحياً أن لديه أوامر مهمة أو أنه يريد أن يجتز رسالة قصيرة بوجود الصمود ثم يستدير مسرعاً إلى سيارة الجيب ليردد الرسالة ذاتها إلى وحدات أخرى أو يعود إلى مقر القيادة ذي الملاجئ المحصنة. لا ينسى النقيب في كل مرة أن يعلق على صدره وسام الشجاعة الذي أصبح علامة مميزة له. كان يأتينا مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع مردداً على مسامعنا عبارات كان يحفظها عن ظهر قلب: «العدو في وضع يائس بعد أن ألحقت به قواتنا الشجاعة خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات»، «الرئيس القائد المنصور يبعث بتحياته إلى أبنائه وإخوانه المقاتلين الأبطال مؤكداً ضرورة الحفاظ على روح النصر»، «قائد قوات المحمرة العميد الركن أحمد زيدان يهديكم تحياته ويبلغكم أن العدو سيقوم بهجمات يائسة هذه الليلة أو غداً فكونوا له بالمرصاد ولقنوه درساً لا ينسى...»

هذه المرة، أسرع كعادته، يتبعه مرافق أصغر سناً يتعثر في مشيته وتتأرجح يده اليمنى ببندقية «الكلاشنكوف» فيما تعدل يده الأخرى من وضع الخوذة الكبيرة التي تسدل على عينيه مع كل

خطوة. كان منظر المرافق مثيرا للشفقة. أتذكر حكاية سمعتها عنه من أحد الجنود قبل أيام أن «قصي» المعروف برفته ونعومة صوته والبالغ عمره التاسعة عشرة، والمنحدر من عائلة غنية قدّم طلبا بعدم صلاحيته للخدمة العسكرية، وعندما ذهب مع أمه لمقابلة اللجنة الطبية في المستشفى العسكري، سأله أحد الأطباء عن العلة التي تمنعه من أداء الخدمة، أجاب بحزن: «لأنني أعاني من الأنفلونزا»، لكن بعض الجنود يقولون إن ضابطا كبيرا أمر بإرسال الشاب المدلل إلى جبهة القتال عقابا على رفض أمه دفع رشوة كبيرة.

وقف النقيب بقوامه الرياضي وصدرة العريض على ربوة صغيرة وسط المواضع متطلعا نحو أرض الحرام الواسعة القاحلة متحاشيا النظر إلينا، ويده ترتبان وضع خوذته اللامعة. قال بحماس فائر وبصوت واهن كأنه يأتينا من بعيد: « قائد قوات المحمرة يبعث...».

سرت همهمة بين أفراد الفصيل. انقطع النقيب عن الكلام، بلع ريقه وأدار عينيه علينا: « سيحاول الإيرانيون الهجوم هذه الليلة. لا بد أنكم قد بلغت بأنا في أقصى حالات الإنذار.. ربما لا يحدث هذا الهجوم.. ربما، على أية حال، وعدت القيادة العليا بإرسال تعزيزات عسكرية إلى هذا القاطع.»

فجأة، قفز المرافق الصغير فاتحا ساقيه، رافعا بندقيته إلى الأعلى بيده اليمنى، وكأنه يقلد تمثالا من تماثيل الثورة الصينية، صارخا بصوت رخو: « عاش القائد صدام حسين.. الموت للأعداء..» التقت إليه النقيب مصوبا نظرة تأنيب دفعته للانزواء خلف سيده. استل الضابط من جيب سرواله ورقة مطوية، وفتحها ببطء. قال مثبتا عينيه على الورقة: «هنالك قرار كان من المفترض أن يبلغكم به واحد من أعضاء قيادة قاطعكم، لكن بعضهم غادر الجبهة فور سماعه هذا القرار حتى من دون أن يودع رفاقه، معاون أمر سريتمك واحد منهم، ومن تبقى من قيادة القاطع موجودون الآن في غرفة العمليات.. لقد تقرر استدعاء عدد من منتسبي لواء المهمات الخاصة إلى بغداد لضرورات المصلحة العامة.»

قرأ النقيب عشرين اسما فقط، وكان هؤلاء يشكلون نصف عدد السرية أو ما تبقى منها بعد هجمات ضارية وهجمات مضادة في الأسبوعين الأخيرين. وقف المختارون، وفي مقدمتهم معاون أمر الفصيل، في صفين حاملين أسلحتهم الخفيفة، كان من بينهم زميلي غانم الذي كان في الثانية والعشرين من عمره واستطاع بعد دفع رشوة كبيرة الحصول على تقرير طبي يعفيه من الخدمة العسكرية.

قال أحمد القيسي: « هذه ليست عدالة.»

نظر إليه النقيب باهتمام: « ماذا تقصد؟ ما الذي تريد قوله؟»

« لماذا يذهبون ونبقى نحن؟ لماذا هذا الاختيار؟»

أجاب النقيب بتسامح: « هذه هي الأوامر.» تعالي لخط وهممة من الواقفين على الجانبين.

قلت: « ألا يمكن مناقشة هذه الأوامر؟»

أجاب النقيب هادئا: « ليس الأمر بيدي، من يريد أن يناقش فليذهب إلى مقر القيادة في المحمرة.»

ردد القيسي ساخرا: « نفذ ثم ناقش.»

كان المختارون المحظوظون، ومن أجل مواساتنا واستحياء منا، يبذلون جهدا في إخفاء فرحتهم بالخلاص من مصير مرعب ما زال ينتظر الآخرين، إلا أمر الفصيل الذي لم يخف غبطته فراح يحدث نفسه رافعا ذراعيه إلى السماء وعلى وجهه ابتسامة عريضة مثل أبله لا يجد مفردات يعبر بها. من دون استئذان من النقيب، قفزوا نحونا معانقين. كنا جميعا على قناعة شبه مؤكدة أن وداعنا هذا سيكون الأخير.

عانقني غانم بحرارة، هامسا: «سأذهب لزيارة عائلتك وأخبرهم أنك بخير.. إذا وانتك الفرصة للهروب فلا تضيعها يا وليد.. فكر في مصير أولادك، فالشجاعة لا تعني مجانية الموت.»

قلت له بصوت مختنق: «أخشى أن يكون مصيرهم أسوأ إذا ما هربت من الجبهة، ربما سيأخذون أطفالا رهينة حتى أسلم نفسي، لا أريد أن يلطخوا جدران منزلي بعبارات الجبن والخيانة، لا حيلة لي سوى مواجهة مصيري.» أدار رأسه مبتعدا ليخفي عني عينيه المحمرتين. أمرهم النقيب أن يسيروا إلى مقر القيادة حيث تنتظرهم الشاحنات لتقلهم إلى بغداد.

خيم الصمت، وسرت في جسدي رعشة لا أدري إن كانت كذلك التي تنتاب من يدفع إلى حبل المشنقة. لقد أصبح مؤكدا أن من تبقى قد أدرج في سجل الخسائر وستصبح أشلائه نهبا للكلاب الضالة التي لم تشبع بعد مما نبشته من بين الأنقاض من جنث القتلى الإيرانيين والعراقيين.

حين اطمأن لابتعاد تلك المجموعة، قال النقيب وهو يلف أكمام قميص بدلته الكاكي إلى الأعلى: «أعرف جيدا ما تشعرون به من حيف. إذا أردتم الحق، ما كان ينبغي الإتيان بكم إلى جبهة حرب لم تستعدوا لها جيدا.. لكنكم وضعتم هنا، قريبا من نهر الكارون كأهداف للقتل.. لقد جمعوكم من مناطق سكناكم وزجوا بكم إلى الجبهات، بينما كان بقاؤكم في وظائفكم أكثر فائدة. من يتحمل المسؤولية عن مقتل العشرات منكم حين دفعوكم للهجوم في ساحة مكشوفة ومن دون أي إسناد من مدفعية أو دبابات أو طائرات؟ صدقوني، كل ما في الأمر أنهم أرادوا التباهي أمام القيادة في بغداد بأنهم ما زالوا قادرين على شن الهجمات مهما كان حجم التضحيات. إنها لحظات عصيبة.»

تطلع إلى مرافقه الصغير وزمّ شفتيه وكأنه يمنع نفسه من التصريح بأشياء أكثر خطورة، أشعل سيجارة وسحب نفسا عميقا، قائلا بهدوء وتصميم: «لم يعد عددكم كافيا للبقاء في هذه المواضع المتقدمة.. تراجعوا بعد غروب الشمس إلى الساتر الكبير القريب وسط المدينة والتحقوا ببقية السرايا. لم يبلغني أحد بذلك، ولا أعتقد أن هنالك من يسألني عن هذا القرار. أتمنى لكم السلامة.»

كنت مذهلا وأنا أصغي إليه. إنها المرة الأولى التي يخرج فيها من إطار التعليمات واجترار تلك العبارات المملة. أدركت أن جرأته غير المعتادة هذه تعني أنه سيشاركنا المصير المشؤم على الرغم من وسام الشجاعة المعلق على صدره.

حين هم بالمغادرة، استدار نحونا مستدركا: « نسيت أن أخبركم بما بلغت به أيضا.. أنه تنفيذ لأوامر نائب القائد العام للقوات المسلحة عزت الدوري، جرى صباح هذا اليوم إعدام عدد من الجنود ممن حاولوا الفرار من خطوط القتال.. لقد تم إعدامهم في البصرة وبحضور السيد الدوري نفسه.»

لم يكن ذلك الخبر غريبا أو غير متوقع، فالإعدامات مستمرة في كل الفصول، في الحرب والسلام.

لا أدري كيف اجترنا كل تلك الأرض الوعرة متراجعين تحت جناح الليل إلى الساتر الترابي الكبير. لم يكن الظلام دامسا، وبقدر ما أربعتنا قنابل التنوير وأضواء قذائف الانفلاق فوق رؤوسنا، فقد ساعدتنا على رؤية مسارب الطريق. لم أعد أفكر بشيء سوى الوصول إلى ذلك الساتر اللعين. ما كنت قادرا ولا راغبا في التفكير بما كان سيحصل بعد ذلك، وساعدني في هذا أحد أفراد الفصيل، فوزي حسن، الذي كانت حركاته وتصرفاته تدل على دهاء وحيلة، ولعل وجوده معي بث في بعض الطمأنينة فتحملت على مضمض ما كان يرويه بصوت منقطع عن المواقف البطولية للحرس الجمهوري الذي لا بد أن يهب لنجدتنا كما زعم.

كان الأفق وراعا خطأ ناريا تتصاعد حممه إلى السماء ويتردد دوي القصف المتبادل المهول في رؤوسنا. كان مصيرنا مرهونا بما تتمخض عنه تلك المعركة الرهيبة. قال لي فوزي إنه لو كان محظوظا ل بقي قصابا وتلك مهنة توارثها عن أبيه. كنت أعرف ذلك وأعرف أيضا أنه ترك تلك المهنة قبل عشر سنوات، لكن العجيب في الأمر أنني وفي تلك اللحظات الصعبة وما بعدها كنت أشم منه رائحة الدسم والخراف المسلوخة.

استلقيت على سفح الساتر خائر القوى محتضنا بندقيتي التي لم أطلق منها رصاصة واحدة طيلة الشهرين اللذين أمضيتهما في الجبهة. لم أكن واعيا لما يدور من حولي من صيحات وحوار. دخنت سيجارتي باسترخاء. كنت متبلد الذهن تماما، لكنني رددت بصوت هامس مقولة قرأتها أو سمعتها ذات يوم «ليس مدهشا السؤال: لماذا نموت؟ بل المدهش: لماذا نصرُّ على الحياة؟». حقا لماذا الإصرار على حياة يظللها الخوف دائما؟ الحياة في ظل الخوف لا معنى لها.

هبّت ريح خفيفة منعشة، فخدرني نعاس ثقيل ولم أعد قادرا على رفع يدي التي سقطت بجانبني.

\* \* \*

اهتز كل شيء، مادت بي الأرض في الدقائق الأخيرة من مساء ذلك اليوم، وبالتحديد في اللحظة التي أيقظني فيها فوزي مرددا بصوت مختنق كلمات متقاطعة، أو أنني توهمت سماعها: الموت، العدم، القتل، الجثث المطمورة، إعدامات في ساحات عامة، هجوم مباغت، النار والرصاص. صحت به ويداي تتخبطان في الهواء: « ماذا؟ ماذا حدث؟ من مات؟ من قُتل؟ » فتحت عينيّ محاولا استيعاب ما حصل، أن أثوب إلى رشدي، أن أدرك الفاصل بين الحلم واليقظة، الحقيقة والوهم. لكن حواسي كانت مشوشة، والصدمة أكبر من قدرتي على تقبلها في تلك اللحظات الحرجة التي بدأ عندها العد التنازلي للنهاية أو التي بدأ عندها الاحتضار.

المكان مضاء بقنابل التتوير، أرض متموجة ودخان وأشباح تظهر أمامي وتغيب، الضجيج من حولي ابتلع عباراتي المبتورة وأسئلتي الساذجة الخرساء التي بقيت تتردد في حنجرتي دون وعي أو انتظار لإجابة، نداءات وصياح، اللعنة تتعالى من دون أن تسمي الملعون، تساقطت القذائف بغزارة وتصاعد بعدها التراب والدخان. أهو الكابوس قد عاد إليّ مرة أخرى؟ لكن لا، كان كابوسا حقيقيا لا يمكن نكرانه أو تقاديه بيقظة أخرى، اعترت أوصالي رجفة نفضت عني بقايا حلم راودني قبل قليل، كنت أصغي إلى موسيقى كركرة أطفالتي وهم يتسابقون في رواية ما شاهدوه في النهار من تصرفات ابن جيراننا الشاب المجنون المسالم، كيف أنه يمشي دائما سريعا بدشداشته المتهدلة المقطوعة الأزرار ليقف فجأة يرسم برجليه الحافيتين مربعا على جزء الشارع المحاذي للرصيف، يدون بإصبعه أرقاما في الهواء، يلوح يده عاليا قبل أن يفرك بها شعره الأشعث المجعد متمتما بكلمات غير مسموعة. تجمدت في مكاني فاغر الفاه، متطلعا بهلع وخرس إلى الجنود وهم يمشون أمامي في طريقهم إلى وسط المدينة مترنحين متعكزين على بنادقهم، وخوذهم متهدلة على وجوههم. في تلك اللحظات مرّ ذلك الجندي المتعكز على أخمص بندقيته الرشاشة المتوسطة. مر بعده آخرون وكرروا أقواله بصيغ أخرى. قالوا لاهئين وبحناجر يابسة وبنبرة إحباط ويأس: « حلت الكارثة » « سقط الساتر الأول » « قطع الإيرانيون طريق البصرة - المحمرة » « الإيرانيون يحاصرون المدينة من جميع الجهات بمليون مقاتل » قال أحدهم بسخرية ومرارة: « احفروا قبوركم يا صناديد القادسية ».

صدمة قوية هزت كياني وراحت تحطمه بضربات متتالية يدوي صداها في رأسي، تقطعت معها أنفاسي، أحسست بالضياح، بالهزيمة تقطع أوصالي، تسمم دمي، تدوس رأسي وتمرغه بالتراب، تسحقه، شعرت بزوبعة تلفني وتتلاعب بي، تضربني بالأرض وترفعني لتضربني من جديد. يا لها من نهاية بانسة مذهلة! كيف يتأتى للمرء أن يواجه نهايته ويتقبل مضطرا خسارة كل شيء في حياته؟ ساحة المعركة تقرر مصير المحارب فهو إما يقتل أو يجرح أو يؤسر أو يعود سالما، أما نحن المحاصرين فعلينا انتظار الموت، أو الإسراع إليه في هجوم انتحاري يانس معروفة نتائجه. كم هي بشعة وقاسية مواجهة الهزيمة والموت في أن! وددت أن أحدهم يخبرني ضاحكا أنني أعاني من هلوسة حمى أو من كآبة سوداء وأن ما أراه الآن مجرد أضغاث أحلام، أو أنه يسمع دوي دبابات ألوية الحرس الجمهوري وهي تقتحم الحصار وتدفع موجات الإيرانيين بعيدا. متى أكف عن الهذيان؟ من النادر أن تنتهي قصص الواقع بالمعجزات؛ لذا كان عليّ أن أتقبل موتي بشجاعة، ولكن هل يحتاج الموت إلى شجاعة؟ كل شيء كان يتسرب من بين أصابعي القابضة بقوة على

حفنة تراب: حياتي ومستقبلي وآمالي وطموحاتي. وجوه أطفالي وزوجتي وأمي وإخوتي تومض في الذاكرة مثل ألسنة لهب تعلق تارة وتخبو تارة أخرى، تتوهج وتختفي. اختلط كل شيء في ذهني، لم أعد قادرا على التركيز سوى على جسدي الذي أراه جثة هامدة تتنافس عليها كلاب تعودت لحم الأدميين. ثمة صورة تندفع من أعماق الذاكرة السحيقة، أرى نفسي في الخامسة من عمري، ألعب الكرة وحيدا في تلك المنطقة الشاسعة، لم تكن بعيدة عن الحي الذي كنا نقطنه، تنتاثر فيها برك مياه أسنة محاطة بضفاف ملحية خلفتها الأمطار، أضرب الكرة بعيدا وأركض وراءها، فجأة، رأيت من بعيد ثلاثة كلاب تعدو نحوي مطلقا نباحا مرعبا، فركضت بكل ما أستطيع من سرعة تاركا كرتي المطاطية، لكن الكلاب تقترب، واصلت الركض مرددا صيحات النجدة، وحين لم تتفع صيحاتي، رحت أتوسل بالكلاب أن تتركني وتأخذ الكرة المطاطية، كنت أستحلفها بأرواح موتاهم أن تغفو عني، لكنها لم تتوقف ولم تعر اهتماما بكل التوسل والرجاء، سقطت في بركة ونهضت منها، سقطت في بركة أكبر، حينها طوقتني الكلاب وظلت تدور حولي، فبقيت وسط البركة الضحلة لا أفعل شيئا سوى البكاء بصوت طغى عليه النباح المسعور، حاولت جاهدا أن أتذكر تلك الآية التي قال عنها أبي ذات يوم إن جده اضطر مرة للمبيت وسط الصحراء، وقبل أن ينام قرأ تلك الآية، وعندما استيقظ في الصباح رأى نفسه وسط دائرة من الأفاعي التي لم تستطع الوصول إليه وكان سورا لا يرى يحول بينها وبينه، ولم تلبث أن تركته. شعرت حينذاك بتعب غريب وكأنني أهبط في بئر لا قرار له، أوصل الهبوط بسرعة هائلة والقعر بعيد لا أراه، بدأ رأسي ينحني وأنفاسي تتلاحق، وعندما أفقت وجدت نفسي متكورا في البركة غارقا في الوحل، كانت الكلاب قد اختفت من دون أن أقرأ شيئا. في الليل، أخبرت أبي بما جرى، فأجبرني على حفظ آية الكرسي، سألته إن كانت هذه الآية تحميني من الموت، رد علي قائلا إن الموت حق. لم أفهم ذلك، أوضح لي أن لكل إنسان موعدا يموت فيه، وذلك الموعد لا يعلمه إلا الله، وأن لعزرائيل سجلا مدونة فيه مواعيد الموت باليوم والساعة والدقيقة والثانية، وعندما يحين أجل أحدهم يشير عزرائيل بعصاه فتصعد الروح إلى السماء، فهل حان الآن موعد موتي؟ هل مكتوب في سجل عزرائيل أن أموت في هذه المدينة الغربية؟

كان البعض من أفراد السرية يجلس منهارا ذاهلا عند أسفل الساتر والبعض الآخر يقف بلا حراك يتطلع حوله بنظرات زائغة لا يدري ما الذي يتوجب فعله في حالة كهذه. قال جندي من المنسحبين من الخطوط الأمامية استفزه عينا وجمودنا بلا حراك: « ماذا تنتظرون؟ أوامر بالانسحاب؟ وإلى أين؟ لا تنتظروا شيئا، لم يعد هنا أمر أو مأمور. القادة الكبار يتبادلون الآن في فندق شط العرب بالبصرة أنخاب تقوية الفرصة على العدو بانسحاب تكتيكي.»

لا أظن أن أحدا يأسف على فقدان مدينة محتلة، بل على مصيرنا وحريرتنا المحاصرة بين نيران الإيرانيين وساحات الإعدام بتهم الخيانة والجبن. لعل الموت على يد العدو أخف وطأة، لأنني أموت هنا ومعني يقين أن أهلي لا يؤخذون بجريرة موتي، لن يراقب رجال الأمن داري ويسجلون أسماء أقاربي وأصدقائي من المعزين ولا يدونون كل الشتائم التي تتطاير مع صراخ فجيعة أُمي الثكلى وزوجتي الأرملة، لن يفصلوا إخوتي وأخواتي من وظائفهم، لن يكتبوا على تابوتي «الخائن»، لن يضعوا أولادي في دائرة حمراء تحرمهم من المستقبل.

عند الفجر، أيقنت أنها النهاية. لم يبق لي من مهمة أقوم بها سوى التهيؤ لمواجهة الموت في الساعات التالية، لكن كيف؟ اكتشفت على حين غرة أن فاجعة الموت ومصيبته لا تقع على من يموت بل على أحبته. الموت نوم أبدي يأخذك من دون أن تدري تاركا مرارة الألم لتلغتها السنة الأهل والأحبة. كنت نهبا لأفكار واحتمالات وأحلام يقظة. فجأة انتبعت إلى أنني لم أعد أفكر بشيء، ليس في بالي شيء على الإطلاق. أكانت تلك علامات اليأس الشديد أم أنها عوارض فقدان الذاكرة أو الجنون؟ بالتأكيد لست مجنونا؛ لأنني أخاف والمجانين لا يعرفون الخوف. لا أعرف مم أخاف، شيء غامض أخافني لا أعرف كنهه.

تطلعت حولي فلم أجد غير فوزي الذي كان يبحث في المواضع القريبة عن رغيف خبز أو قطعة جبن، يتمتم بياس أنه لا يريد أن يموت جائعا، لم يعثر على شيء، ربما كان وجهه سيشع بالفرح لو أنه وجد ما يأكله حتى لو مات بعد مضغه بدقائق، لا أعرف إن كان يفعل ذلك ليبعد عن باله كوابيس الموت، أم أنه فعلا يعيش لحظته دون أن يكدر مزاجه باللحظة التالية. تناولت بندقيتي وأشرت إليه أن نلتحق بمن سبقونا، فغادرنا المكان متبعين خطى أشباح كانت تشق طريقها إلى داخل المدينة. توقفنا عند مقر عسكري مهجور يجلس قرب بابيه المفتوح على مصراعيه عدد من الجنود والضباط الصغار متباعدين صامتين مسندين ظهورهم إلى جدران بناية المقر، جلست بينهم لأرتاح قليلا.

تساءل جندي صغير السن لم يسودّ شاربه بعد يجلس على خوذته نازعا حذاءه العسكري، وخصلة من شعره تدلت على جبينه: «هل تعتقدون أن الإيرانيين سيقتلوننا؟» لم يجبه أحد، بلع ريقه متلفتا حوله: «لا بد أنهم يعرفون أننا لا نرغب في الحرب ولم نطأ أرضهم بمحض إرادتنا، أليس كذلك؟ لا أعتقد أنهم سينتقمون منا بعد أن يحرروا مدينتهم المحتملة. هل ستدفعهم نشوة الانتصار إلى قتل محاصرين لا حول لهم؟»

هزّ ضابط شاب رأسه. كان الضابط متربعا على التراب ناشرا أمامه هويته العسكرية وصورة امرأة فائقة الجمال، وبجانبيها صورة أكبر لطفلة جميلة شبيهة بالملائكة الملقين في لوحات الرسامين. نفخ دخان سيجارته بعيدا، قائلا بغضب: «فعلوها من قبل في منطقة «البيستين»، قتلوا أعدادا كبيرة من الأسرى العراقيين. اكتشفنا تلك الجريمة بعد هجوم واسع مضاد على المنطقة، وشاهدت القتلى مقيدي اليديين. فعلوها وهم في نشوة الانتصار، ما الذي يمنعهم من تكرارها ثانية؟»

كانت الشمس قد أشرقت حين وجم الجالسون عند سماع ضجيج دبابة أو دبابات قادمة من جهة التلال البعيدة. انتصب الجندي الذي كان جالسا على خوذته، رفعها بهدوء ووضعها على رأسه، لبس حذاءه العسكري على عجل، تفقد بندقيته ناظرا صوب التلال، صاح بصوت مرتجف: «جاء القتلة.» دار حول نفسه متطلعا إلى الآخرين. قال محدثا نفسه بصوت عال: «ما هو القرار الصائب؟ لماذا لم يأمر صدام بسحب قواتنا من هذه المدينة إذا كان يرغب في الدفاع عن البصرة؟ ألا يعتبر صدام مجرم حرب لأنه ترك الآلاف هنا من دون دروع ومدفعية وحماية جوية؟ ألا يهزّ وضعنا اليأس الآن شعرة من شاربه؟» فجأة صرخ جاحظ العينين: «أقطع ذراعي إذا كان فيكم واحد من قرية عوجة صدام أو حتى من القرى المجاورة لها. لماذا؟»

أذهلتنا جرأته التي دوى صداها في صدورنا، ناطقة بلساننا، فاضحة تغافلنا وسكوتنا المخزي. «لماذا؟ هل هم بقايا ذرية النبي ويخشى عليهم من القتل حتى لا ينقطع النسل الصالح؟ المواطنة عندهم أن تكون من العوجة أو تكريت، أما باقي العراقيين فهم الذخيرة الحية التي تنتفس وتتمنى وتحلم والتي يذخرها لتنفيذ مغامرته ويدخلها مع حساب البنادق والمدافع. إننا عبيد نزواته ودمى يلهو بها. أين هو الآن؟ إنه يدخن سيجاره الكوبي مستمتعا بالإصغاء إلى الحثالة من الناس الذين يغنون ويصفقون وينشدون له القصائد. إنه يدوس بحذائه الآن تقارير أوضاع المحمرة وصور العبيد المتناثرة جثثهم فوق السواتر وبطون الملاجئ وقد استباح أحشاءهم الطيور والكلاب.»

اقترب زئير الدبابة. قفز الجندي نحو صورة لصدام مرمية على الأرض، صرخ ممزقا الصورة بيديه: «حتى لو مات الناس جميعا فلن يكتب لك الخلود.» وبخطوات سريعة دلف إلى داخل المقر المهجور، وبعد ثوان سمعنا صوت طلق ناري. قفز الضابط الشاب إلى الداخل بينما وقفنا عند فتحة الباب المخلوع. لم أشأ الدخول كي لا أرى جثة إنسان أطلق النار على رأسه، فقد كان ذلك اختيارا يراودني. قال الضابط: «قتل المسكين نفسه.» لاذ الجميع بالصمت حدادا على أرواحهم.

كانت الدبابة عراقية، توقفت غير بعيد من المقر. كانت الأنظارتتابعها بقليل من الفضول. أطل سائقها برأسه متطلعا نحونا ونحو الأفق البعيد. قفز إلى الأرض معلقا حقيبته الصغيرة على كتفه ودار حول دبابته يتفقدتها للمرة الأخيرة. قال بصوت سمعه الآخرون: «لقد انسحبوا جميعا بعد أن أمروني بالبقاء داخل دبابتي و الدوران بها على أرض مفتوحة مع أنها خالية من العتاد و بقية الطاقم لإيها الإيرانيين أن كتائب الدبابات ما زالت في المحمرة.»

صاح ضابط صف كان يجلس مسترخيا عند جذع نخلة بجوار المبنى، واضعا على صدره جهاز راديو صغيرا: «أسرعوا.. سيذيعون بيانا مهما.»

تجمعنا حول ضابط الصف الذي وضع الجهاز الصغير على الأرض. سائق الدبابة استدار راجعا. توقفت الموسيقى العسكرية الصاخبة. صاح المذيع بصوت أجش: «بيان صادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة.. قام العدو الجبان و منذ منتصف الليلة الماضية بعدة محاولات للتقدم نحو طريق البصرة المحمرة، لكن قواتنا الشجاعة الباسلة أرغمته على الفرار بعد أن ألحقت به خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات سنعلنها في بيان لاحق.»

صرخ سائق الدبابة وهو يقذف بحقيبته الصغيرة إلى الأرض غاضبا: «كذابون.. كذابون. تخلوا عنا و الآن تجاهلوا وجودنا.»

قفز ضابط الصف الجالس فجأة من مكانه كالمجنون مسددا بندقيته إلى الراديو الصغير. تراجعنا إلى الوراء باهتين، لكنه ما بدأ الرمي حتى شاركه الآخرون في إطلاق الرصاص على الجهاز الصغير. كانت تلك المرة الأولى التي أطلق فيها الرصاص وبغزارة. عاد الجميع إلى أماكنهم جالسين صامتين إلا فوزي الذي راح يبحث في المواضع القريبة عن أرغفة خبز ومعلبات. عاد أخيرا حاملا بين كفيه كمية من البطاطا النيئة، قال وهو يرميها أمامي: «ما ينقصنا فقط قليل من النار وحببات من الملح، وسترى كم هي لذيدة.»

دفعتها بحذائي بعيدا، لكن فوزي جمعها ودسها في جيوبه. اشرببت الأعناق حين جأر صوت سيارة قادمة. كانت سيارة «لاندكروز» عسكرية، توقفت قرب المقر المهجور، ترجل منها ضابط

كبير وثلاثة من مرافقيه. تلفت الضابط الكبير حوله متبرما مرتبكا. صاح أحد مرافقيه بلهجة أمرة جافة: «تجمع هنا بسرعة.»

لم يتقدم أحد من تلك المجموعات المتفرقة قريبا من المكان وحوله. لو أن أحد المرافقين هدد بالسلاح لمزقته أسلحة الجنود الغاضبين. عاد المرافق قائلا بهدوء هذه المرة: « سيادة العميد الركن قائد قوات المحمرة يود أن ينقل إليكم بشرى سارة.»

نهضنا متناقلين. آخرون برزوا من الملاجئ القريبة يدفعهم الفضول فقط، لقد فقد الجميع الثقة بالقيادة وعودهم و تصريحاتهم و بياناتهم، لكنهم مع ذلك كانوا يقنعون أنفسهم ولو ببصيص أمل. استغربت بقاء هذا الضابط الكبير في المدينة المحاصرة، لكنني سرعان ما أدركت أنهم اختاروه لملء فراغ مؤقت. ربما كانت تلك المرة الأولى التي شعر فيها الضابط الكبير بالخوف من جنوده، فالمدينة الآن خارج سيطرة الرئيس ورهبة الاستخبارات العسكرية والمخابرات العامة وضباط الأمن والفرق الحزبية. لم يعد هناك انضباط عسكري ولا أمر أو مأمور، بل مروءة وشهامة و شفقة، ربما كان الجميع ينظرون إلى ذلك القائد على أنه محاصر مسكين مثلهم. اعتدل القائد في وقفته شابكا يديه خلف ظهره متطلعا إلى الوجوه الواجمة لقراءة ردود الفعل على ما كان سيقوله: « أيها المقاتلون الأبطال.. جنئت أبلغكم تحيات الرئيس القائد وتمنياته لكم. لقد اتصل بي قبل قليل وسألني عن أحوالكم. أجبته: كلهم عند حسن ظنك.»

بانث عليه الخيبة فلم ير حماسا ولم يسمع تصفيقا أو هتافا ولم يعلق أحد على تلك التحيات التي لم تعد تساوي شيئا، بل اكتفى بعضهم بالنظر إليه بلامبالاة واضحة و البعض الآخر أدار رأسه. توقف القائد عن الكلام ليبلغ ريقه، أضاف: « يحثكم الرئيس القائد على الصمود ساعات أخرى فقط وعرقلة تقدم العدو لاستعادة المحمرة حتى لا يتفرغ لمهاجمة البصرة.. الرئيس يقول المحمرة مفتاح العراق.»

سرت همهمة تتم عن تذمر لا تلجمه الكلمات المنمقة. أشار القائد بيديه طالبا الهدوء، قال بفتور: «أعلم جيدا ما تعانونه من جوع و تعب و قلة عتاد.. أعلم أيضا أن لا طاقة لكم برد هجوم بمليون مقاتل كما يقول الإيرانيون، لكنهم ليسوا مدربين مثل تدريبكم ولا يمتلكون مثل شجاعتكم. القيادة لا تطالبكم الآن بهزيمة العدو فذلك فوق طاقتكم وقدراتكم التسليحية، بل إعاقة تقدم العدو لتتمكن الألوية المدرعة والحرس الجمهوري من الهجوم على العدو في اللحظة المناسبة. لقد حتمت الضرورة سحب الأسلحة الثقيلة من هذه المنطقة، لكن ذلك لا يعني أن القيادة قد تخلت عنكم، بل أنا واثق من أنهم سيباغتون العدو بهجوم آخر وربما في جبهة أخرى من جبهات القتال.. المؤن في طريقها إليكم، أكدوا لي أنهم سيرسلونها بواسطة المروحيات، لقد أخبروني بذلك.»

أكمل جملته الأخيرة على عجل ثم اتجه ومرافقوه إلى سيارتهم التي انطلقت بسرعة مثيرة غبارا غطى وجوه الواقفين. كان ذلك آخر ما سمعته من ذلك الضابط الكبير. سمعت فيما بعد عن إصابته بجروح عند اجتيازه ليلا حقل ألغام زرعه قواته، فتبرع بعض الجنود بنقله على باب خشبي إلى الجانب الآخر من شط العرب متخذين منه عذرا للانسحاب.

لمحت عن بعد النقيب كريم، ضابط الارتباط مسندا ظهره إلى جدار كان كل ما تبقى من دار صغيرة. سألته عن رأيه في ما قاله قائد قوات المحمرة. مسح النقيب جبينه بكم بذلته و التفت إلي

على مهل قائلاً بهدوء: « لقد انتهينا. » أمانت عبارته فيّ ما تبقى من احتمال بعيد بخلص قريب. تلملت في مكاني، سألته بصوت مختنق: « كيف عرفت؟ هل توقعت من ذلك العميد شيئاً آخر؟ »

سرح الضابط بنظره إلى الخنادق البعيدة: « هل سمعته؟ يدعي أن القيادة لم تتخل عنا. إن آلاف الجنود لا يساؤون في نظر القيادة دبابة واحدة يسحبونها للمحافظة على قصورهم، بينما الضباط والجنود، مهما كانوا مطيعين، يبقون موضع شك في الولاء. لعل العميد زيدان مثلنا لا يساوي شيئاً في نظر القيادة، لقد أجبروه على البقاء هنا لأنه ليس حزبياً كبيراً. أجل، سحبوا جميع وحدات المدفعية والدروع قبل أن يبدأ الهجوم الإيراني تاركين الآلاف من المشاة يواجهون الفناء. حقا، إن خبرتي تعجز عن تفسير ما يحدث. ما يهم الإيرانيين الآن هو استعادة المحمرة وليس احتلال البصرة. نحن المهمدون بالموت. لا أدري لم أدخلونا قسرا في سجل الخسائر. ليس سرا أنهم عرفوا موعد الهجوم الإيراني. هذا ما حدث... سحبوا جميع الضباط الكبار من بقية الوحدات مثلما سحبوا المعدات والأسلحة الثقيلة.. حتى ضباط الصف من الحزبيين الكبار استدعواهم إلى البصرة. لو كنت عضوا كبيرا في الحزب لما كنت هنا، أبقوا بعض الحزبيين حتى لا يفتضح الأمر. لكن لماذا تركونا نواجه مصيرا لا نستحقه؟ »

كنت أتابع حديثه بهزات رأس متتالية. التفت النقيب نحوي باسم: « هذه المرة الأولى التي أعلن فيها حقيقة مشاعري بصوت مسموع دون أن يخالطني الخوف. كنت مثل حصان عربية غطيت عيناه من الجانب فلا يرى إلا الطريق الذي يدفعونه إليه، لا أعرف غير تنفيذ الأوامر.. هل تعلم؟ كنت ضمن طلائع القوات التي دخلت هذه المدينة المنكوبة. كان ذلك بالنسبة لي مجرد تنفيذ أوامر سواء أكانت المهمة تحريرا أم احتلالا. لم أكن خائفا أو مترددا. كان الإيرانيون حينها يقاومون داخل المدينة من بيت إلى بيت ومن زقاق إلى زقاق، كنت مثالا لسرיתי في الاندفاع نحو مواقع العدو. سأروي لك هذه الحادثة.. حاولت ذات يوم مع مجموعة من الجنود التقدم داخل زقاق طويل ترابي مليء بالحفر والبرك الصغيرة التي خلفتها أمطار سقطت قبل ذلك بيومين، لكن نيران القناصة منعتنا من التقدم، بقينا نتبادل الرمي على أمل أن تأتينا مجموعات مساندة، فجأة رأيت امرأة عجوزا تخرج من بيت في منتصف الزقاق، تلف جسدها بعباءة سوداء مثل أمي تماما وتحمل على رأسها صرة ثياب كبيرة. صرخنا فيها أن تعود إلى الدار، وكذلك فعل الإيرانيون، تقدمت العجوز خطوة أخرى. في تلك اللحظة سقطت قذيفة هاون وسط الزقاق وسقطت معها العجوز في بركة. بعد قليل رفعت جسمها حتى بان رأسها، تعالى صراخها وهي تنظر إلى السماء متوسلة. كان إنقاذها مغامرة مميتة، لكنني لم أفكر في أي احتمال، بل في إنقاذ تلك المسكينة وإخراجها من البركة. أخبرت جنودي بذلك وخرجت من وراء الجدار. واصل الإيرانيون الرمي، إلا أنني واصلت سيرتي ملتصقا بجدران البيوت، حين وصلت قبالتها، توقف الإيرانيون عن إطلاق الرصاص وراقبوا المشهد باستغراب وذهول. حين التفتت العجوز نحوي شهقت شهقة عميقة وظل فمها مفتوحا ويدها الدامية المرفوعة ترتعش، أغلقت عينيه وقالت بلهجة لا تختلف كثيرا عن لهجة أهل الجنوب في العراق، وكأنها تتوح: « يمه.. فدوة لك.. لا تقتلني! » حينذاك انتهت إلى أنني ما زلت قابضا على أخمص بندقيتي، فوضعتها على الأرض إثباتا لحسن نواياي. زحفت نحوها، كانت مصابة بيدها وساقها، رفعتها بين ذراعيّ، قلت لها مهدئا من روعها: « لن تكوني أسيرة... سنعقم جراحك فقط. عدت بها إلى موضعي حيث تولى الجنود تعقيم الجراح وتضميدها، أخبرتني

أن ابنها وعائلته سبقوها في مغادرة البيت وقد تأخرت عنهم؛ لأنها انشغلت بجمع ثياب الصغار؛ لأنهم سريعو الإصابة بالبرد. تقدم رجل من الطرف الآخر من الزقاق ملوحاً بقميصه الأبيض. كان ذلك الرجل ابنها. قبل أن يمضي بها، دنت مني وقبلت جبيني. طيلة ذلك الوقت كله كان الهدوء يعم الزقاق، وحتى بعد أن غابت العجوز وولدها عن أبصارنا ظل الزقاق هادئاً فترة من الوقت قبل أن يستأنف الجانبان تبادل إطلاق الرصاص.»

سكت النقيب برهة ثم أضاف: «لقد منحوني نوط الشجاعة بسبب ذلك. هذا يعني أنني ضابط شجاع في سجلات القيادة، أليس كذلك؟ على الرغم من ذلك أبقوني وسط المحرقة.» أخرج من جيبه قطعتي بسكويت، ناولني واحدة وراح يقضم الأخرى. مد يده في جيبه مرة ثانية لكنه لم يجد سوى نوط الشجاعة، وضعه تحت حدائه ودق عليه بكعبه بقوة حتى غاص النوط في التراب. نزع بغضب رتيته ورمأها بعيداً. التفت إليّ بعينين دامعتين و قسمات متصلبة، حاول أن يقول شيئاً وهو يصافحني لكنه عَضَّ على شفته وابتعد ماشياً بين أشجار نخيل مقطوعة الرأس.

كان الطقس، عصر ذلك اليوم الثالث والعشرين من أيار، حاراً رطباً مشبعاً برائحة البارود والجثث المتناثرة التي بدأت تتعفن عند حافة الخنادق المهجورة أو في سواقي البساتين اليابسة. التفتت رجلاً كبير السن برتبة عريف يجهد بالبكاء جالساً على ركبتيه عند قدمي أحد القتلى وكان جندياً شاباً جميل الوجه غطت الدماء صدره. سألته مواسياً: أهو قريب أم صديق؟

هز رأسه بعلامة النفي. قبل أن أبدي استغرابي، التفت إليّ قائلاً بصوت متقطع: «!..إننا سنكون مثله... سنقتل ولن يبكي علينا أحد.»

«هل تعرف اسمه؟»

«أعرف أنه عراقي.»

«هل أساعدك في دفنه؟»

«لو استطعنا لدفنا كل القتلى.. لكن القذائف لا تمنحنا الفرصة.. ربما أبكي على نفسي فالمصير واحد.» بركت على الأرض أربت بمواساة على كتفه.

جموع غفيرة كانت تتسكع بلا هدف بين خرائب المدينة المحاصرة أو في شقوق الانسحاب. ربما كانوا مثلي، ينتظرون معجزة تدفع الإيرانيين إلى الوراء أو تفتح لهم باباً سرياً يوصلهم بأمان إلى الضفة الأخرى من شط العرب. كان بعضهم يتمدد على الأرض خائراً القوي يتمتم بالدعاء و بوصاياهم الأخيرة غير مبال بالقصف وسقوط القذائف غير بعيد عنه، والبعض الآخر ضم رأسه بين ركبتيه. كان الجميع متعبين جوعاً يعذبهم انتظار النهاية التي لم يرغب أحد في التفكير بمدى بشاعتها.

سمعت صوتاً يناديني، وحين التفت رأيت صاحبي فوزي الذي لم تسؤ جداً حالته المعنوية بعد، أشار إليّ بيده من بعيد يحثني على اللحاق به، فأسرعت ورائه ظناً مني أنه قد عثر على أطعمة معلبة أو موضع محصن قريب يريدنا أن نبقى فيه على أمل قيام قواتنا بهجوم معاكس و تنهي الحصار، وحين دخلت ورائه إلى بناء محاط بأكياس التراب، أشار فرحاً إلى صندوق مليء بأحذية جديدة حمراء اللون خاصة بالضباط. لم يعر خيبيتي وغضبي أي اهتمام، بل تربع على الأرض و

راح يبحث بهمة عن حذاء يناسب قدمه حتى عثر عليه أخيراً.. نزع حذاءه القديم ولبس الجديد بعد أن مسحه جيداً. رفع رأسه نحو قائلها بارتياح: «أحذية الضباط من الجلد الأصلي.»

فكرت أن عليّ تحمله فبقاؤه معي ضروري، فإذا ما تحققت معجزة وبقي أحدنا حياً، أخبر عائلة الآخر بمقتله لكي لا يعذبهم أمل طويل كاذب. مضينا نتخبط بين الخرائب، ننقل من ظل إلى ظل، ونقفز من حفرة إلى حفرة، نلوذ بالملاجئ كلما اشتد القصف المدفعي وارتفع أزيز طلقات القناصة.

غابت الشمس وانقطع بغيابها أي احتمال بحدوث شيء استثنائي يمكنه تغيير مسار الأحداث. ثمة معارك بعيدة نرى خطوط جمرات قذائفها المتقابلة في الأفق، نسمع دويًا يهز الأرض ودويًا في السماء. استلقيت على الأرض متوسداً ذراعاً، أنظر إلى النجوم، إنها النجوم ذاتها التي يتأملها الناس في أمكنة لا تعد ولا تحصى من هذا العالم الواسع وهم سعداء، يتناجون بمفردات الروح، يتعانقون طائرين على أجنحة الموسيقى بعيداً عن كرة الأرض، يصغون إلى حفيف الأشجار وهدير الأمواج وهي تغسل الشواطئ الرملية الممتدة تحت أنوار المصابيح، جلسات سمر طويلة، يضعون اللمسات الأخيرة لحفلات صاخبة. لا بد أن أصحابي الآن قد اختاروا مجلسهم في حانة من حانات بغداد وبدأوا سهرتهم وسط الضجيج وسحب دخان السجائر، يتبادلون الأنخاب ويطلبون المزيد ليروا الأشياء على حقيقتها، ينفضون عن صدورهم متاعب النهار ومخاوف المستقبل، يقرأون صفحات الماضي ويستذكرون الطموحات، تلعب الخمر برؤوسهم، فيرددون أغانيهم المفضلة، يضحكون ملء أفواههم، يبكون بصوت خافت، يذكرون الغائبين ويترحمون على القتلى. إنهم بلا شك يتتبعون نشرات الأخبار مثل سائر العراقيين بحثاً عن خلاص من جحيم الحرب، ولا بد أنهم قد سمعوا أخبار حصار المحمرة، حينذاك يرفعون الكؤوس بنخب سلامتي وعودتي، لكن هيهات. ساحر هو منظر النجوم وهي تتلألأ راسمة صوراً وأشكالاً، وجوهاً وهيئات. لم أر النجوم من قبل متألقة كما رأيتها تلك الليلة، ذاك الدب الكبير، وتلك بنات نعش، وذاك النجم القطبي الذي يشير إلى العراق، وذاك الكرسي الهائل وسط السماء. رأيتها وكأني أراها لأول مرة أو ربما للمرة الأخيرة. تمنيت أن يذكر العالم لحظة أن هناك في مكان ما بشراً دفعهم السلاطين إلى حلبة مصارعة العبيد، أن ترتفع الأصوات داعية إلى السلام، أن تتوقف الحكومات لحظة قصيرة عن حسابات أرباح مصانع السلاح فيها، فتتذكر أعداد الضحايا الذين حصدتهم تلك الأسلحة وحجم الخسائر التي سببتها.

قال فوزي بنيرة متفائلة: «ذهب الكثيرون إلى الشط ولا بد أنهم قد وصلوا إلى الضفة الأخرى، ماذا نخسر إذا جربنا؟ لقد سمعت أنا أيضاً بفرق الإعدام على الضفة الأخرى.. ربما كانت إشاعات لتخويفنا. إذا كنت متعباً جداً، يمكننا العوم على لوح كبير أو باب خشبي.. ما أكثر الألقاض هناك!»

مشينا وسط ذلك الليل الكئيب نجر أقدامنا التي أثقلتها الهزيمة والحصار واليأس والجوع، نتابع شاردي البال مظلات مشاعل التنوير المتأرجحة في الأعالي، لم أظن أن خلاصنا سيكون هناك، بل استجبت لرغبة فوزي، لا لعبور الشط وإنما لمجرد قضاء الوقت مستعجلاً النهاية والساعة أو الساعات الأخيرة، كان دليلي في الطريق النجم القطبي وأضواء البصرة الصاعدة نحو السماء. كان الجنود المتعبون، على امتداد الطريق إلى الميناء، ممددين على الأرض الجذبة متوسدين بنادقهم، وبدت خوذهم المطروحة قرب رؤوسهم كشواهد قبور. اتجهنا إلى ملجأ من أكياس الرمل على ضفة النهر، قريباً من حطام سفينة. كان الملجأ شديد العتمة فاصطدمت بأجساد مبللة.

قال أحدهم: « اجلس هنا.. ثمة مكان يكفي.»

كانوا ثلاثة أو أكثر. عرفت ذلك من وهج سجاثرهم. تبادلنا حديثا سريعا عن توقعات مرتقبة، سألنا أحدهم: « يبدو أنكما لم تجربا عبور النهر بعد، لقد جربنا قبلكما، قطعت وصاحبي نصف المسافة تقريبا لكننا لم نستطع التقدم أكثر. القصف شديد جدا وشظايا القنابل المنفجرة في الجو قتلت الكثيرين. قنابل التنوير لا تتقطع والقناصة يتناوبون في حصاد الأرواح. الإيرانيون ليسوا بعيدين عن الميناء..إنهم على مقربة من قصر «الشيخ خزل» وكذلك الضواحي القريبة من عبادان.»

سألت بحثا عن فرصة أخرى: « ما الذي ستفعلونه إذن؟»

أجابني آخر وكان صوته قادم من أعماق سحيقة: « لم يعد بوسعنا ما فعله.. سنبقى في مكاننا هذا بانتظار النهار وموت لا مفر منه! هل تدخان؟ خذا .. لدي ما يكفي حتى الصباح.»

خيم الصمت طويلا. بدأت تأوهات وحسرات تعالي بعدها الشخير، حتى صاحبي أطلق شخيرا عاليا، ولعله كان يحلم بالنجاة أو أنه وصل إلى يأس مطبق. خرجت من الملجأ أستطلع المكان وأبحث عن لوح خشبي استعدادا لخوض مغامرة عبور النهر الكبير تحت نيران كثيفة. كنت أحرص نفسي ثم ما لبثت أن أيقنت أنني سأكون أمام خيار صعب بين أمرين: محاولة العبور أو انتظار الموت. كان الوقت عند انبلاج الفجر تماما. كلما اقتربت من الشاطئ أكثر أربني الصراخ المدوي. رأيت أشلاء السابحين تتطاير من بين الأمواج مع كل قذيفة تسقط. خارت قواي أمام ذلك المشهد المرعب. عندما استدرت للمغادرة، سمعت أحدهم ينادي متوسلا. كان هناك في الأسفل وسط الأمواج يحاول التثبيت بمعدن السفينة الأملس، أخبرني أن شظية قطعت ساقه ويريد مني أن ألقى إليه بلوح أو أي شيء يساعد على الرجوع إلى الشاطئ، فهرولت أبحث عما أراده. ركضت صوب موضع وراء ذلك الملجأ فلم أعر على شيء، عدت إليه مسرعا لأحثة على مقاومة الألم وقطع المسافة القصيرة إلى الرصيف، لكنه اختفى وضاع صوته.

لم يكن العبور الآن هروبا من الموت بل هو الارتقاء في أحضانه. هل أنتظر الموت والانتظار ربما لا يقل مرارة عنه؟ من يضمن لي موتا لا أتعذب كثيرا قبله؟

خطر في ذهني، حينذاك، أنني الوحيد من يمكنه تقديم مثل هذا الضمان. كانت بندقيتي معي محشوة بالرصاص. لماذا لا أطلق الرصاص على رأسي؟ ليس هناك من خيار أفضل من الانتحار، والأمر لا يحتمل الانتظار، و التفكير الطويل قد يفسد النية. لا بد من الانتحار الآن، إذا كانت الشجاعة هي الخوف من الموت، فهل فقدت الشجاعة لأنني لا أخاف من الموت بل من الحياة في الساعات المقبلة؟ لو كنت شجاعا، لمَ لم أرم نفسي في شط العرب خوفا من الموت بأيدي العدو؟ الموت هو الخلاص من الآلام والمخاوف والأعداء. حقا، ما الذي يغري هذه المليارات من البشر بالحياة وهم يعرفون جيدا أنهم سيموتون؟ ما الفرق بين موتي الآن وموتي بعد ساعة أو يوم أو سنة أو عشرين سنة؟ الحياة بقاء مؤقت أو ضيافة، ولأنها كذلك لا تستحق تحمل العبودية وقسوة الخوف والرعب وشدة الألم. تذكرت مثلا سمعته يوما يقول إن هنالك ستا وثلاثين طريقة لتقادي الكارثة، لكن الهروب بعيدا منها هو الطريقة الأفضل. ليس الآن من مجال للهروب أفضل من الانتحار.

«الانتحار؟ أجل، وهل تملك حلا غيره؟ هنالك أشخاص انتحروا لأسباب تعتبرها تافهة، كخسارة فريق يشجعونه، أو خشية فضيحة مالية أو خسارة سياسية، أو نتيجة كآبة، أو بسبب معتقدات آمنوا

بها، هل تتذكر ذلك المعلم الشاب الخجول الذي كثيرا ما كنت تراه جالسا يقرأ كتابا أو صحيفة، أو ينظر شارد البال إلى المارين من وراء زجاج المقهى في مدينة العمارة؟ لقد فوجئت بانتحاره تاركا وصيته التي ضمت صفحات كثيرة باح فيها بسره والتي قرأتها في مكتب قريبك ضابط التحقيق، لقد استغربت سبب انتحاره، بل وصفته بالمجنون لأنه قتل نفسه لفقدانه الحبيبة التي رآها سببا في تعلقه بالحياة. كانت مأساته أن الفتاة التي هام بها، تزوجت شخصا آخر، واعترف الشاب في وصيته بأنها لم تكن تعلم بحبه وولعه لأنه لم يجد الجرأة ليخبرها بما في قلبه. أما أنت فلك العذر، كل العذر. ألم يقارن بعض الفلاسفة الذين أذمنت على قراءة كتبهم الانتحار في ظروف صعبة كهذه الظروف بالاستيقاظ من كابوس مرعب؟ ألم يعتبره بعضهم الحرية اللامتناهية للإنسانية؟ لا، قتل النفس خطيئة لا تغفر، لكن ما ينتظر من ذل وموت أكبر من الخطيئة. الانتحار الآن ليس خيارا بل خلاص. »

استقر رأيي أن أفعل ما فعله ذلك الجندي الشاب قبل يوم، أن أطلق على رأسي رصاصة الرحمة، لكنني فكرت في إلقاء نظرة أخيرة على المكان قبل أن أغادره إلى الأبد. كان الأفق البعيد مضاء بمصابيح شوارع مدينة البصرة وأسواقها وأحيائها وبيوتها، هناك الآن وفي كل مكان آمن، يحضن الرجال زوجاتهم على أضواء خافتة وقد خدرهم تيار بارد من مكيفات الهواء والمراوح السقفية، والصغار يستلقون ببراءة في مهادهم وأسرتهم يطمون باسمين، النساء الوحيديات ينمن وفي جفونهن أحلام السعادة وصور الحبيب وثوب العرس وقبيلات اللقاء، والحراس المتثاقبون يغادرون أماكنهم بعد انتهاء نوبتهم. تصورت كيف تدب الحياة في تلك المدن البعيدة، ترتفع أصوات الباعة في الأسواق، ويتصاعد بخار الشاي من الأواني الكبيرة النحاسية في المقاهي الشعبية، تمتلئ الشوارع بالسيارات، يستيقظ أطفال متطلعين إلى صورتي المعلقة في غرفتهم ثم يبدؤون الضجيج، يتراشقون بالوسائد قبل أن تناديهم أمهم لتناول الفطور، يستلقون على الأرض يشاهدون أفلام الكارتون، وخصلات شعرهم تتراقص مع هواء المبردة التي تأكدت حافتها.

أغمضت عيني وحسنت أمري، وحين رفعت يدي لأطلق الرصاص، كانت يدي فارغة والبندقية ساقطة على الأرض.

\* \* \*

قبل قليل من شروق شمس ذلك اليوم الذي لا ينسى، الاثنين الرابع والعشرين من أيار، أيقظت صاحبي فوزي بصعوبة- كان بودي أن أتركه مدة أطول في آخر منام له قبل أن نواجه المصير أو النوم الأبدي- وغادرنا الملجأ. كانت موجات شط العرب تنساب هادئة تطفو عليها بقايا ثياب كاكية اللون وأوراق وألواح خشبية، وجثث عارية الصدور أو مقلوبة، يجرفها التيار صوب الخليج، وعلى ضفة النهر رأيت أكواما من الملابس و البنادق تركها أصحابها قبل أن يقذفوا أنفسهم في مياه النهر في مجازفة الخلاص.

في الطريق إلى الخرائب بعيدا عن منطقة الميناء، مررنا بجندي في أواخر العشرينيات من عمره تربع في حفرة صنعتها قذيفة أو صاروخ، و أمامه كوم من العيدان اليابسة والأشواك، دعانا بالحاح إلى الجلوس بجواره داخل الحفرة واحتساء الشاي الذي كان سيعده، كانت دعوة ليس من السهل مقاومة إغرائها، فالريق جففته السجائر، والحديث مع الآخرين في الساعات الحرجة عزاء وسلوى، فهو مناسبة لتبادل الوصايا الشفوية، واستذكار لحياة ستصبح بعد قليل جزءا من الماضي البعيد قبل أن تتطوي مع لحظاتها الأخيرة إلى الأبد.

قال الشاب ضاحكا: « لو كنت محكوما بالإعدام وسألوني عن أمنيتي الأخيرة، لأجبت بلا تردد: أشرب شايا. إننا الآن، بل منذ بداية الحرب- وإذا أردتما الحق، منذ سنوات طويلة محكومون بالموت، فلماذا نحرم أنفسنا من متعة أخيرة؟»

أشعل العيدان ثم صب ماء من زمزية في كوب معدني وضعه على النار، بعد دقائق أخرج من جيب سرواله ورقة ملفوفة، قال متظاهرا بالمرح وهو يلقي نصف ما فيها من وريقات الشاي في الكوب: « شاي سيلاني درجة أولى، نقي غير مخلوط، أصرت أمي أن أحتفظ بهذه الكمية من الشاي والسكر تحسبا للطوارئ، لكن لم يخطر في بال الحاجة المسكينة أنني قد أحتاج إليه في وقت الحصار، هل تصدقان أنها تصاب بالصداع عندما تتناول شايا مخلوطا من نوعيات رديئة؟ أبي أيضا كان مدمنا في آخر أيامه على شرب الشاي، وفي آخر لحظات حياته، وقد أدركت أمي، لا أدري كيف، أنها لحظته الأخيرة، فأسرعت إليه بملعقة الدواء، لكنه هز رأسه بالرفض طالبا قدحا شاي، شربه بمتعة غريبة قبل أن يضع رأسه على الوسادة ويغمض عينيه إلى الأبد.»

تأوه الجندي الشاب وأخرج من جيبه ورقة ملفوفة أخرى وصب بعضا من السكر في الكوب الذي ظل يدور بيننا. كانت أمه على حق، كان شايا لذيذا. عرفت أن اسمه عبد الخالق وأنه من مدينة «الكوت». قلت له «الإيرانيون قادمون، لا أتوقع منهم رافة بنا، ماذا يمكننا أن نفعل لتقادي مصير مظلم؟»

أجاب المهندس الشاب لافا ورقة السكر بعناية: « إنه قدرنا ولا مفر من مواجهته. كان يمكن للقوات في البصرة أن تتقذنا ليس بهجوم قد يعود بخسائر فادحة، بل بمجرد مد سلسلة حديدية أو حبل متين بين ميناء المحمرة وجزيرة أم الرصاص ينشبت به المحاصرون هنا ويعبرون به شط العرب، هذا إن كانوا لا يستطيعون إنقاذنا بزوارق صغيرة. ذلك ما يخطر ببال أية قيادة في الدنيا تواجه مثل هذا الموقف وتريد إنقاذ جنودها، لكن القادة الأغبياء المسؤولين عن القاطع الجنوبي لا يريدون لنا أن نخرج أحياء من هذا المكان، لماذا؟ لا أعرف. شيء محير، أليس كذلك؟ جازفت

عصر أمس بعبور شط العرب. كان عملا بطوليا أن تعبر الشط تحت وابل رصاص القناصة وشظايا القنابل المنفجرة في الجو، أليس كذلك؟ نعم، عبرته إلى الضفة الأخرى. استقبلني أفراد من الانضباط العسكري. ظننت أنهم سيهنتونني على النجاة وسيثثون على جرأتي و شجاعتي، لكنهم قبضوا على ذراعي بقوة متوعدين، قال لي ضابط برتبة عقيد: ( ستلحق من سبقك من الجناء الذين أعدموا بأمر السيد النائب، سنأخذك إليه وهو يقرر طبعاً رميك بالرصاص دون رحمة مهما توصلت؛ لأن النائب لا يستطيع مخالفة أوامر السيد الرئيس). في الواقع، لم يكن مبالغاً في كلامه، فقد شاهدت مرعوباً، قريباً من الضفة النهر، تلا من القتلى بعضهم فوق بعض عراة الصدور وقد مزقهم الرصاص. رأيت أيضاً حوالي ثلاثين شخصاً سبقوني في العبور. كانوا مثلي عراة الصدور يجلسون القرفصاء مذعورين ينتظرون مستسلمين أوامر الإعدام. ربما لا تكون هناك أوامر مكتوبة بل كلمة واحدة أو ربما إشارة من رأس النائب أو سبابته أو بطاقات مسدسه الخاص. بعد قليل، جاءنا ضابط صغير ليخبرنا أن سيده النائب قد ذهب إلى البصرة على عجل لحضور اجتماع مهم وأنهم سيأخذوننا إلى هناك. حشرونا في شاحنة وفوهات البنادق مصوبة إلى رؤوسنا وأوصلونا إلى مقر قيادة القوة البحرية حيث تقدم نحونا عسكري بلا رتبة، كان يمشط شعره ويلوك علكة- كان المهندس الشاب يقلد تلك الحركات بطريقة مضحكة- قائلاً بصوت ناعم محرراً ككفيه مع كلماته: (الويل لكم أيها الجناء.. خستتم أيها المتخاذلين.. كيف سولت لكم أنفسكم الفرار من أرض المعركة؟ من سيضحي من أجل الوطن إذن؟ ستتطاير هذه الرؤوس الغادرة.. سيفتلكم السيد النائب بيديه بعد أن ينهي قراءة القرآن وصلاة العشاء).

لكن النائب خرج إلينا واضعاً كلتا يديه على بطنه. قال بوجه معصور وعينين شبه مغمضتين: (القيادة تتعامل دائماً مع أبنائها العراقيين بمنتهى الرحمة، وأنا واثق أنه ليس فيكم من ينكر ذلك، لهذا سأمحك فرصة أخرى.. ستعودون إلى جبهات القتال.) لم يعيدونا إلى جبهة قتال، بل إلى منطقة محاصرة.. أعادونا إلى المحمرة عبر البر. دفعونا وسط الظلام إلى أرض مفتوحة وسلمونا بنادق وقنابل يدوية وأمرونا أن نذهب لنقاتل العدو ونقهروه. لم أشعر وقتها بامتعاض ما دام القتل يهددنا هنا وهناك، في جزيرة «أم الرصاص» أو في «أبي الخصيب» أو في مقر الفيلق أو في الكوت أو بغداد. أما الآخرون الذين زُج بهم معي وراء الساتر الاستراتيجي فمنهم من مات ومنهم من ينتظر، وأنا ممن ينتظر..»

ازداد القصف كثافة، وتعالى سحب الدخان من جهة الميناء ومن وسط المدينة، سقطت قذيفة غير بعيد عن الحفرة، فقفزنا أنا وفوزي مبتعدين، ناديت المهندس الشاب أن يلحق بنا. أطل برأسه قائلاً بعناد غريب: « إلى أين؟ الإيرانيون يحاصرون المدينة، سيأتون، فلماذا نتعب أنفسنا بالذهاب إليهم ونستعجل النهاية؟ سابقى لاحتساء كوب آخر من الشاي.»

ما إن ابتعدنا قليلاً حتى دوى انفجار قذيفة قريبة. حين التفت إلى الوراء كان الدخان والغبار يتصاعدان من تلك الحفرة، فرجعت راکضاً لأرى الحفرة وقد اتسعت والمهندس الشاب منكب على وجهه بلا حراك وقد غطى التراب والدماء رقبته وظهره ومزقته الشظايا، وإلى جانبه ذراع المبتورة والكوب المعدني قد ملاه التراب.

بقيت واقفاً أنظر إليه منكسراً شارداً بالبال، لكن فوزي جرنى من ذراعي بعيداً عن رصاص القناصة فهرولنا نحو خط انسحاب قريب.

حين جلسنا في الخندق نستظل به من الشمس بعيدا عن رصاص القناصة، سألني فوزي حائرا: «ماذا سنفعل؟»

أجبتُه وأنا أزيح خوذتي عن رأسي: « لا أدري، لكني أتمنى أن نرى نهاية لهذا العذاب.»  
« سترى ما هي إلا سويغات وستكون قوات الحرس الجمهوري هنا. الرئيس وعد بذلك، أكد ذلك قائد المحمرة.»

صرخت ضاربا الخوذة بالأرض: « اللعنة على الحرس الجمهوري. تردد كالبيغاء بيانات الإذاعة. إنهم سيقتلوننا بأيدي الإيرانيين. اللعنة على الحرس الجمهوري.»  
بهت فوزي لرد فعلي، فقال بصوت خفيض خجول: «أنت على حق.. اللعنة على الحرس الجمهوري. هل تعتقد حقا أنني أصدق إرسال نجدة إلينا؟ لكني كنت أقول ذلك لرفع معنوياتك، وعندما أراك قويا أشعر أنا أيضا بالقوة، لقد أردت أن أخدع نفسي بالعودة إلى عائلتي. هل اعتقدت أنني وفي هذا اليوم المشئوم ومصيرنا المجهول أفرح بحذاء جديد أحمر؟ كنت أحاول الهروب من التفكير بعائلتي، ببناتي الصغيرات، بالحياة مثل بقية خلق الله.» بكى فوزي بحرقة لاطما رأسه الأصلع براحتي يديه. كان منظره مثيرا للشفقة والألم، فصافحته معذرا. أدهشتني جرأتي على لعن النظام والحرس الجمهوري أمام الآخرين من غير أفراد أسرتي. لم أكن أفعل ذلك حتى أمام أولادي الصغار مخافة أن ينقلوا ما أقول إلى زملائهم في المدرسة فينقل بعضهم السباب إلى آبائهم من الحزبيين فيأتييني الدور لأساق إلى المشنقة بتهمة القذف.

رأيت النقيب كريم وخلفه مرافقه، وجنديين آخرين مقبلين نحونا من جهة المدينة. قال بلهجة سريعة: «خط الانسحاب هذا ينتهي بمنطقة بساتين ويمكننا عبورها إلى الطريق الموصل إلى الحدود العراقية. لا أمل لنا إلا القيام بهذه المحاولة. هل تريدان الانضمام إلينا؟»

لم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير في ذلك الاقتراح. هرولنا، فوزي وأنا، وراءهم. كانت تلك الاستجابة الفورية قد جنبنتني الخوض في الاحتمالات والنتائج. لم يعد متاحا أمامنا من سبيل سوى المخاطرة. بدت البساتين كأنها أفواه براكين. قال النقيب لاهثا: « يبدو أن المدفعية العراقية والإيرانية تستهدف هذه المنطقة.» لم نعد نميز أعمدة الدخان عن الأشجار، كنا نركض في خط متعرج واحدا وراء الآخر والنقيب كريم في المقدمة. كان همنا أن نتحاشى شظايا القذائف التي سقطت قريبا منا، والحفر التي أحدثتها تلك القذائف، وجثث الجنود العراقيين القتلى. كان أزيز طلقات القناصة يثقب الرأس ويشوش الرؤية. صرخ أحد الجنديين متأوها لكنه واصل الركض. صاح بعد قليل أنه ينزف بغزارة. فجأة صاح النقيب كريم جامدا في مكانه: « ألقوا السلاح.. الإيرانيون.»

\* \* \*

تيسنا في مكاننا واجمين. تلك الثانية أو الثواني من الزمن كانت الفاصل بين الحرية والعبودية، بين الكرامة والذل، بين الوجود والعدم. شعرت بالأرض تهتز تحت أقدامي، تتخسف بي، أحسست بغمامة سوداء تغطي بصري، بالاختناق. وضعت بندقيتي على الأرض بكلتا يدي وكأني أسجي ميتا مهيبا، لم أكن أدري من قبل أن تلك البندقية الروسية الصنع كانت أكبر بكثير من مجرد بندقية آلية تعمل بقوة الغاز ونباض الإرجاع، كانت حينها رمزا لكرامتي وحرיתי.

كنا وسط نصف دائرة من مواضع إيرانية. تقدم إيرانيان نحونا، أمرنا الأول أن نتقدم أمامه، وكان صبيا صغيرا مقطوعة كفه اليسرى بينما أسرع الآخر بجمع بنادقنا المرمية على الأرض. قادنا إلى موضع دبابة محفور بجانب ساتر عال. كان الصبي يرتجف مصرا على أسنانه، أشار إلينا أن نجثو على ركبتنا شابكين أيدينا خلف رؤوسنا. كان مكاني في أقصى اليمين، فلمحت في الموضع المجاور جثث جنود عراقيين قتلوا متجاورين فاغري الأفواه، ملطخين بالدم. كان مشهدا مرعبا. صرخ الصبي الإيراني فينا بكلام لم نفهمه قبل أن يتأبط البندقية واضعا يدها على ذراعه اليسرى، ساحبا عتلة الأمان بيده اليمنى.

إنها النهاية إذن، نهاية رحلة حياة مضمّنة، نهاية أحلام وكوابيس ومخاوف وآلام. إنها سخرية مريرة أن تنتهي حياتي هنا في هذه الحفرة برصاص مراقب موتور مقطوع الكف. في تلك الثواني اختلطت كل صور الذاكرة لتختفي كلها بسرعة، لم يبق منها سوى وجوه أولادي الصغار الذين أراهم في تلك الفوهة الصغيرة التي سينطلق منها الرصاص. ضحك الصبي بهستيريا وهو يعاين الوجوه ليختار منها ضحيته الأولى.

كان الجنديان والمرافق وفوزي يصرخون متوسلين بالقرآن والنبي وكل أسماء الأئمة، بينما النقيب القريب مني ظل صامتا، أما أنا فقدت القدرة على الكلام أو حتى الهمس، أحسست أن سكيننا تحز رقبتني. رفع الجندي الموتور البندقية ليبدأ من اليسار، لكنه غير رأيه فجأة ليبدأ مني. كان تفكيرني مشلولا تماما، ظللت أتابع فوهة البندقية ببلادة ولم أعد أرى الآن سوى وجه ذلك المهندس الشاب الذي لقيته في الصباح الباكر، فجأة، قفز من فوق الساتر جندي إيراني آخر لكن ببذلة مختلفة، رافعا بندقية صاحبه إلى الأعلى صارخا فيه أن يتركنا. أفهمنا بمفردات عربية ركيكة أنه من الحرس الثوري، أمرنا بالنهوض والهرولة بسرعة. تأخر الجندي العراقي الجريح عن اللحاق بنا، فطلب منا منقذنا التوقف مناديا الجريح أن يسرع، لكنه سقط على الأرض، وقبل أن يصل إليه الجندي الذي يقودنا، كان الصبي مقطوع الكف قد أطلق النار عليه.

وصلنا مهرولين إلى ساحة خضت أركانها بلون أبيض. قلت لفوزي هامسا: «أعتقد أنها ساحة الإعدام.» زاغت نظرات فوزي ولم يعلق بشيء. أوقفونا في صف طويل. أمرونا بإلقاء خوذنا على الأرض. هناك رأيت زين العابدين وأحمد القيسي. أقبل علينا رجل دين معمم يحيط به عدد من العسكريين. كان في أوسط عمره ذا عينين ضيقتين وحاجبين كثين وأنف ضخمة مالت أرنبته إلى الأسفل، ولحية قصيرة، وعمامة مائلة إلى الخلف فظهرت مقدمة شعر رأسه. بدأ الرجل يستجوبنا واحدا بعد الآخر، منها استجوابه بصفحة أو ركلة، وعندما جاء دوري، فنتشوا جيوبي

وأخذوا ما كنت أحمله من نقود قليلة، وعثروا على ورقة صغيرة كتبت عليها أرقاما. سألني رجل الدين بلغة عربية فصيحة ولكن بلكنة أعجمية: « ما هذا الرقم؟ »

« رقم هاتف جبراني. »

« وأين تسكن؟ »

« في بغداد. »

رفع الرجل حاجبيه عاليا: « في شارع الرشيد؟ »

أدركت أنه لم يسمع من مناطق بغداد سوى اسم شارع الرشيد، فأومأت برأسي بالإيجاب. تطلع رجل الدين إلى مرافقيه بتباه. عاد يسألني: « لماذا جئت تقاتل الإسلام؟ »

حاولت الخروج من ذهولي بجواب يرضيه لكنه بصق في وجهي مرددا باشمئزاز: « صدامي حقير. »

عندما انتقل إلى فوزي الذي كان يقف بجواري، سأله سؤالا لم يخطر في البال: « وأنت أيها الضابط.. ما هي رتبته وما هي الوحدة التي كنت تقودها؟ »

رد فوزي متلعثما: « لست ضابطا ولا جنديا.. دفعوني بالإكراه إلى الحرب ضمن قواطع الجيش الشعبي. »

عاجله رجل الدين بصفعة قوية صارخا فيه: « اعترف أيها المجرم الصدامي أو أتركهم يفتكون بك الآن، فأنا رجل ذكي وقوي الملاحظة وقد عرفتك من حذائك الأحمر. »

توسل به فوزي باكيا وأخبره أنه عثر على ذلك الحذاء في موضع للضباط ولبسه، ثم أراه هويته المدنية كسائق حكومي. لم يكتف فوزي بذلك، بل نزع الحذاء ورماه بعيدا ليثبت صدق دعواه، غير أن الرجل المعمم أمر الجنود بتفتيش فوزي بحثا عن وثيقة أو بطاقة هوية تدينه، وعندما وضع أحد الجنود يديه على جيبي سروال فوزي المنتفخين، تراجع صارخا إلى الوراء، فقفز المعمم جانبا محنيا ظهره بينما راحت عمامته تتدحرج على الأرض. وجه الجنود الآخرين بناذقهم نحو فوزي الذي كان يرتجف مذعورا. أمر الجنود فوزي أن يخرج بهدوء ما في جيبيه من قنابل، فأخرج بيديه المرتجتين حبتي بطاطا. ضحك بعض الجنود الإيرانيين، أما الرجل الذي كان معمما فقد تناول من أحد الجنود عمامته البيضاء ووضعها على رأسه منتقلا إلى جندي شاب كان معنا لحظة الأسر. عندما سأله عن المدينة التي يسكنها في العراق، أجاب الجندي متوقعا معاملة أفضل: « من مدينة النجف الأشرف المقدسة. » هجم عليه المعمم كالمجنون يكيل له الصفعات والركلات حتى أسقطه على الأرض. قال رافعا عباة من الأرض: « يا لك من مجرم! من النجف وجئت تقاتلنا؟ »

عندما سعدنا مع أسرى آخرين حوض شاحنة انطلقت بنا بعيدا عن ذلك المكان، سحب فوزي نفسا عميقا قائلا: « الحمد لله. أفلتنا من قبضة الموت. »

رد النقيب كريم بصوت خفيض متأرجحا مع اهتزاز الشاحنة: « لا ندري إلى أين يمضون بنا.. كل الاحتمالات واردة. » تطلع زين العابدين إلى الحراس الواقفين على رؤوسنا، ثم قال بصوت خفيض: « الله يسترنا.. سينتقم هؤلاء منا، ليس بسبب قادسية صدام فقط وإنما أيضا بسبب قادسية سعد بن أبي وقاص. »

في تلك اللحظة، صرخ مرافق النقيب كريم، الشاب الصغير قصي، وهو يتطلع في الوجوه شاكيا: « أريد أُمي.» وانفجر باكيا بحرقة.

بعد مدة ساعتين، أنزلونا من الشاحنة عند بوابة (سقيفة) كبيرة عند أطراف مدينة كبيرة كانت تبدو مبانيها في الأفق عرفت فيما بعد أنها مدينة الأهواز، اكتشفت أن عشرات المئات من الأسرى العراقيين قد سبقونا إلى مكان الحجز المؤقت. كان العدد يزداد كل ساعة حتى ضاق بنا المكان الذي كان كما بدا معملا كبيرا نقلت معداته الضخمة إلى مكان آخر. في عصر ذلك اليوم كان العدد قد وصل أكثر من خمسة آلاف أسير. شعرت ببعض الراحة حين التقيت بعدد من أفراد سريتنا سالمين. لم يعرف أحد شيئا عن مصير كاظم الخباز وكاكا حسين، لكن المفاجأة أنني رأيت أسيرا لم يخطر في بالي مطلقا أن أجده هناك، كان «الرفيق عطا» متقرفصا في إحدى الزوايا. لقد جيء به إلى الجبهة في الساعات الأخيرة قبل الحصار. تلافيت مواجهته كي لا يشعر أنني شامت في مصيره.

نصب الإيرانيون خمسة مرافق صحية وقتية في الساحة المقابلة للجملون ولكن من دون أبواب أو حتى خرق بالية. فتحوا لنا الباب الكبير تحت حماية مشددة لنقف صفوفنا طويلا، وكان الشاب الصغير قصي يقف أمامي متلويا، فعليه الانتظار طويلا قبل أن يأتي دوره لقضاء حاجته، فجأة انسل من الصف متجها نحو دغل مجاور لتلك الصفائح المنصوبة كمرافق صحية، ووقف هناك يتبول. دوى صوت إطلاق رصاص ثم رأيت يسقط وسط الدغل، فركض أحد الأسرى نحوه يتفقدته لكنه صاح مصدوما: «لقد مات.»

هاج الأسرى وارتفعت أصواتهم بالاحتجاج وحاولوا دفع حلقة الحراس الذين أطلقوا نيرانهم في الهواء فأعادوا الأسرى إلى الوراء، واتجه ضابط إيراني نحو الجندي الذي أطلق النار، حادثه قليلا وعاد إلينا قائلاً: « كان الجندي على حق. ارتكب صاحبكم ذنبا كبيرا أوجب إطلاق النار عليه.. لقد تبول واقفا وهذا حرام.»

انبرى أسير كبير السن مخاطبا الضابط: « التبول وقوفا ليس محرما في كل مذاهب الإسلام، أما قتل هذا الشاب فجريمة كبرى وحرام في عقائد أهل الأرض جميعا.»

من دون انتظار إذن من ضابطهم، هجم سبعة جنود إيرانيين على الرجل وأشبعوه رفسا وضربا، وهو يحمي وجهه بيديه صارخا: «حرام.. حرام.» عصرنى الألم والحزن والمرارة. حين التفت إلى حيث كان النقيب كريم واقفا وجدته قد غطى وجهه يجهش بالبكاء.

في الرابعة والنصف عصرا، سمعنا ضجة كبيرة في الخارج وإطلاق النار، وبدأت مكبرات الصوت تنقل بيانات الإذاعة الإيرانية وأناشيدها. كانت العبارة التي ظلت تتكرر: « خرمشهر أزد شد» (تحررت خرمشهر).

لم أستطع استيعاب وضعي الجديد، فقد بقيت ذاهلا وكأني قد فقدت ذاكرتي. دخنت سجائري الأخيرة بشراهة. خطر ببالي فقط أنني الآن في عداد الموتى أو المفقودين. هزني أحمد القيسي: « هل سمعت ما قالته الإذاعة؟»

هزرت رأسي بالنفي، فقال القيسي: « يقول البيان الإيراني إنه تم قتلُ وجرُّ ستة عشر ألف جندي عراقي وأسْرُ تسعة عشر ألفاً آخرين. إذا بقينا أحياء، فهم سيقتلوننا ببطء بأكاذيبهم. لقد جاءوا

بالأسرى جميعا إلى هذا الجملون، فكم تقدر عددهم؟»

قبل أن أجيب بما أخمنه من عدد، انبرى زيني قائلا: «سألت جنديا عربستانياً عن عددنا في الجملون فقال حوالي ستة آلاف أسير، وعندما سألته عن موعد نهاية الحرب، أجابني: بعد مليون سنة!»

هز النقيب كريم يده باستهزاء: «يعتبرون نصرهم عملا خارقا ومعجزة، بينما كان يمكن لأي لواء مدرع أن يدخلها بعد أن أفرغها صدام من القوات الفعالة والدروع والمدفعية، وأبقانا فيها غطاءً لانسحابه.»

واصل كلامه بعد سكوت قصير: «ربما فعل العراقيون الصواب بسحب تلك القوات للدفاع عن البصرة، فالإيرانيون لا يخفون حماسهم للسيطرة عليها للمطالبة بعد ذلك بشروطهم ومنها دفع التعويضات، ليس هذا فقط، بل إنهم أطلقوا على عملية تحريرهم المحمرة اسم عمليات بيت المقدس، وهذا يعني أن تلك المعركة كانت الأولى على طريق احتلال العراق بزعم كونه الطريق المؤدي إلى تحرير القدس.»

غلبني النعاس وهدني الحزن والتعب والجوع، فنزعت حذائي الثقيل وتوسدته، أما فوزي فقرر أن ينوب عني في خوض صراع ليس بالسهل للحصول على رغيف خبز عندما تأتي الوجبة التالية من أرغفة الخبز، فقد تهافت العشرات على سلال الخبز التي أحضرها الإيرانيون ولم نحصل منها على شيء. كان أحمد القيسي والنقيب كريم وزيني يتحدثون عن جريمة مقتل قصي ومأساة الآخرين والمستقبل ومصير أفراد السرية الآخرين وما قد ينتظرنا من أوقات صعبة.

طلب من الضباط الأسرى في صباح اليوم التالي التعريف بأنفسهم، فاقترحت على النقيب كريم أن لا يعرف نفسه لئبقى معا، لكنه كان مترددا. قال أخيرا وهو يبتعد عنا: «سيكتشف الإيرانيون كل شيء. سيجدون من يعطيهم المعلومات وسترى.» وبعد ساعة تم ترحيلهم إلى جهة مجهولة وكان من ضمنهم «الرفيق عطا». بعد الظهر، جاء الإيرانيون بأخر أسير في «خرمشهر». كان ذلك الأسير: كاظم الخباز. كان فوزي ينتظر وجبة جديدة من الخبز حين رأى الجنود يدفعون كاظم إلى المكان المزدهم الصاخب. جاء فوزي به يسحبه من ذراعه. بدا كاظم متعبا جدا وقد ازدادت أخاذيده عمقا ووجهه شحوبا وجبهته العريضة ورأسه الأصلع ملطخين بالتراب. على الرغم من كبر سنه، كان كاظم الخباز أسرعنا في حفر المواضع. جلس بيننا متطلعا حوله، قال ماسحا رأسه براحة يده: «لا أدري كيف نجوت من الموت. كانت معجزة، وجدت نفسي بعد ظهر يوم أمس محاصرا في بستان صغير والرصاص ينطلق من كل الجهات. كان الإيرانيون قد سيطروا على شمال الميناء. رأيت أمامي شقا يقود إلى فتحة ملجأ قفزت داخل الشق واختبأت داخل الملجأ المظلم مصابا بالرعب والهلوسة. سمعت ضجيجا وصياحا ودوي دبابات وعجلات وإطلاق نار. كنت منكمشا هلعا أتففس بصعوبة. بعد ساعتين أو ثلاث ساعات، ساد الصمت. لا أدري إن كنت نائما أو فاقد الوعي. المهم استيقظت وأنا لا أعرف إن كان الوقت نهارا أم ليلا. قررت المغامرة والخروج من الملجأ لأرى ما يدور حولي. أخرجت رأسي من الملجأ، كان الوقت ليلا فشجعتني ذلك على التقدم في الشق. صعقتني رائحة كباب شهية وسمعت همهمة. لاح لي شبحان يجلسان على رابية صغيرة قريبة من بداية الشق. كانا يتحدثان ويمضغان الطعام بصوت مسموع. عرفت أنهما إيرانيان، ومن نعومة صوتيهما عرفت أنهما شابان صغيرا السن. قررت في تلك اللحظة أن

أسلم نفسي، ربما بسبب الجوع أو عدم جدوى البقاء في الملجأ. دنوت أكثر ووقفت خلفهما تماما. كنت حائرا أبحث عن كلمات مناسبة أقولها لهما. فجأة، التقت واحد منهما إلى الوراى فرأى شبعا يقف عند رأسه، فركض صارخا فما كان من صاحبه إلا الركض وراؤه. التهمت على عجل ما تبقى من طعام ثم هرولت وسط الظلام بعيدا عن الملجأ، لكن رجلي عثرت بشيء ما فسقطت على وجهي، تلمست ما حولي فوجدت نفسي بين جثتين، وقبل أن أنهض سمعت جلبة. كانت مجموعة من الجنود تتقدم نحو الملجأ بحذر، وجها مصابيحهم اليدوية نحو الشق المؤدي إلى الملجأ، ألقوا رمانة يدوية داخل الملجأ أحدثت دويا مزق أدني. توقعت أنهم سيفتشون هذه المنطقة أيضا، فدفنت وجهي في التراب وبقيت ممدداً بلا حراك. توقفوا بالقرب مني، مسحوا المكان والجث بمصابيحهم ثم ابتعدوا. لم أتحرك من مكاني ولم أغير وضعي طيلة ساعات مخافة أن يكون هناك جندي قد أفزعه بحركتي فيطلق علي الرصاص. كان الهواء باردا منعشا فاستغرقت في النوم، لأستيقظ على ضجيج هائل. حين رفعت رأسي، وكان النهار قد طلع، رأيت مجرفة ضخمة تتقدم نحوي وقد أنزلت سلتها ذات الأسنان الحادة على الأرض لتدفع الجث في حفرة كبيرة. ففرت من مكاني مذعورا. أوقف السائق مجرفته وهرع نحوي يهدئ من روعي ويتفقدني. طوقني الجنود ببنادقهم، لم أفهم أسئلتهم، لكني لم أخبرهم أنني الجن الذي تراءى لهم ليلا.»

ضحكنا جميعا، ولم يلبث كاظم أن شاركنا الضحك.

بدأ الإيرانيون في اليوم الثالث بترحيل الأسرى إلى معسكرات مختلفة لم نكن نعرف عنها شيئا. في اليوم الرابع انضمنا، أحمد وزيني وكاظم وفوزي وأنا، إلى مجموعة كبيرة تستعد للمغادرة. لا بد أن يكون أي مكان آخر في إيران أرحم من هذا الققص الكبير. نقلونا عصرا بالقطار إلى طهران؛ لنجد أنفسنا ظهر اليوم التالي نهرول في صف واحد لنشق طريقنا، بين باب محطة القطار وساحة لوقوف السيارات تبعد عنها مسافة خمسمائة متر، بين حشد من موظفي دوائر حكومية قريبة دفعوهم لاستقبالنا بالصفعات والركلات والشتائم والبصاق. أحسست بالندم لأنني لم أنتحر في تلك اللحظة. كان علي أن أتوقع الأسوأ فتلك هي جنون الحرب اللعينة التي تجعل كل طرف يتباهى بأعداد القتلى والجرحى والأسرى من الطرف الآخر.

بقينا في تلك الساحة ثلاث ساعات قبل أن يحشرونا في باصات كبيرة اتجهت بنا خارج المدينة. بعد ساعة، وكان الوقت عصرا، دخلنا معسكرا كبيرا للأسرى يطلقون عليه «معسكر برندق». أخبرونا أننا سنقضي فيه ليلة قبل مواصلة طريقنا الطويل. كانت قاعات المعسكر أو ردهات النوم منفصلة واحدة عن الأخرى بأسلاك شائكة. لم ندخل تلك القاعات بل أبقونا في ساحاتها المطوقة بالأسلاك. انهالت علينا تبرعات الأسرى السخية من سجاجير وخبز. لم نلتق بهم فقد ظلوا وراء أبواب مغلقة عدا عدد قليل من أسرى ملتحين. خطب فينا أحدهم قائلا: «كان الله في عونكم أيها الإخوة فقد عانيتم مثلما عانينا قبلكم، لكنكم محظوظون لأنكم وقعتم في الأسر والحرب في أيامها الأخيرة. ستعودون أيها الإخوة إلى دياركم غضون أسبوعين أو ثلاثة.» أثر كلامه تماما في نفوسنا، وكان المتحدث يتطلع في وجوهنا لمعرفة رد الفعل فشجعه انتباهنا الشديد.

قال: «بيدو أنه لم تسنح لكم الفرصة لسماع آخر الأخبار الجيدة، أليس كذلك؟»

التقت القيسي نحوي فرحا واشربت رقبة زيني، أما كاظم الخباز فقد رفع يديه إلى السماء مرددا: «يا الله.. يا الله.» لكن سرعان ما خابت آمالنا حين تابع الأسير الملتحي كلامه: «إن جند الإمام،

وبعد تحريرهم خرمشهر، سيندفعون هذه الأيام لتحرير البصرة، وفي غضون أسبوع سيكونون في بغداد.»

قلت لأحمد القيسي: «سماع هذه الأخبار أسوأ من الأسر.»  
قبل أن يجيب أحمد، صاح أحدهم من وراء قضبان شباك صغير: «لا تصدقوه. إنه عميل لإيران.»

انطلقت أصوات أخرى من بقية شبابيك القاعة: «عاش العراق. عاش العراق.»  
أقبل عدد من الجنود الإيرانيين يهزون هراواتهم. اقتحموا القاعة. سمعنا صياحا وصراخا. خرج الإيرانيون يدفعون أمامهم ثلاثة من الأسرى كان وجه أحدهم مضرجا بالدم. قال القيسي متجهما: «المصيبة أننا لن نواجه الإيرانيين فقط، وإنما أمثال هذا الملتحي المعتوه.»

في الصباح التالي، الثلاثين من أيار، انطلقت بنا الباصات بينما كانت أكف الأسرى تلوح لنا مودعة من بين قضبان النوافذ الصغيرة. دفع السائق شريطا داخل جهاز التسجيل فارتفع صوت المطربة «كوكوش»، فمحتتي أغانيها بعض الطمأنينة، ودفعنتي إلى إعادة شريط المأساة على مهل واسترخاء.

قال أحد الحراس بصوت عالٍ وبعربية ركيكة: «سنذهب إلى الشمال.. إلى معسكر منجيل.»

\* \* \*

منجبل مدينة صغيرة هادئة أراها من بعيد عند أقدم جبال عالية رمادية جرداء. تطلعت طويلا إلى الوديان العميقة وأخايدها الغارقة في الظلال حد العتمة التي تبدو كشقوق أحدثها زلزال عظيم، إلى الطرق الملتوية على سفوح الجبال التي تظهر في النهار كأشرطة بيضاء، وفي الليل تبدو كمسارات نجوم في سماء بعيدة بسبب أضواء السيارات القليلة التي تخرقها، أتطلع إلى الطريق الذي يخرق المدينة، وفي الحقيقة لا أرى منه سوى طرفين، من الجنوب حيث ينحدر من فتحة عالية بين تلال عالية ليختفي بين المنازل، وأرى طرفه الآخر في شمال المدينة حين يدخل في نفق جبلي لا أرى مخرجه من الجهة الأخرى. بنايات المدينة الرمادية تبدو امتدادا للجبال وصخورها، أو مجرد تلال صغيرة متجاوزة لولا سطوح المنازل المتواضعة المكسوة بالزفت والتي تعلوها فتحات التهوية وهوائيات التليفزيون والرايات السود المعلنة عن قتلى المدينة في مطحنة الحرب. ثمة بيوت قليلة تتناثر في الجنوب على جانبي الطريق العام، وفي الغرب تجاور المنازل مقبرتها الجديدة التي ترفرف على سكانها أعلام إيرانية، أما معسكر الأسرى فيتربع على سفح جبل يطل عليها من الشرق وهو الجبل الوحيد الملون بخضرة أشجار الزيتون والعشب.

منجبل، ومنذ وصولي في الثلاثين من أيار، هي كل عالمي الخارجي أو كل ما أراه من خلال الأسلاك الشائكة والنوافذ التي تتقاطع عليها القضبان الحديدية في قاعات النوم. أحلام يقظتي تتجاوز بنادق الحراس والأسلاك الشائكة والاحتمالات المفزعة، فأرى نفسي كل يوم راكضا منحدرًا حتى أصل قاع المدينة لأتربع على أرصفتها، أجلس على تخوت مقاهيها، أشبع في مطاعمها ثم أغفو تحت ظلال أشجار الزيتون، أرى نفسي في يقظتي متسلقا ذلك الجبل البعيد موليا وجهي صوب العراق لأغني وأصرخ بأعلى صوتي، أتيه في الوديان حتى يدركني التعب في المساء فأتوسد الصخور محدقا في سماء مرصعة بالنجوم لا يحجبها سقف أو قضبان.

تقع منجبل على الطريق الموصل بين قزوين وطهران جنوبا وبين رشت وأنزلي شمالا، تجاورها بحيرة واسعة تمتد أمامنا خلف المقبرة. كان الأسرى بعد التعداد المسائي، يتوقفون متطلعين بحسرة صوب الأفق البعيد متأملين انعكاس قرص الشمس الأحمر على مياه البحيرة، ولا ينسى الكثيرون أن يعيدوا هامسين تلك اللازمة مع كل غروب: « مسية العافية عليكم يا هلنه ».

أهل منجبل أناس طبيون بسطاء، لا نحتك بهم لكنني اكتشفت ذلك يوم زارنا مدير الناحية الذي رأى بعينه ما يرتدي الأسرى من ثياب رثة ممزقة، فوعدنا بأنه سيدعو الأهالي إلى التبرع بما لديهم من ملابس جيدة يمكنهم الاستغناء عنها، وفي اليوم التالي نفذ الرجل وعده، فجاء بأكياس كبيرة من الملابس تهافت عليها الأسرى، لكن الأكياس كانت تحتوي على ثياب مزركشة وملابس داخلية نسائية، لكن ذلك لم يمنع الأسرى من استخدام الثياب لرقع الملابس وصنع أكياس لحفظ الملابس وحبات السكر والحاجيات الصغيرة الأخرى كوعاء الطعام والقدح المعدني والملعقة وفرشاة الأسنان، ولا يملك أحدا إلا أن يضحك وهو يرى الآخرين يستحمون أمامه وهم بملابس داخلية نسائية مليئة بصور الورود والقلوب والدوائر الصغيرة الملونة.

كان معسكر الأسرى ثماني قاعات مقتطعة من معسكر كبير مجاور لتدريب المجندين الإيرانيين. في شمال المعسكر قاعتان: السابعة والثامنة محاذيتان للأسلاك الشائكة التي تفصل معسكر الأسرى

عن معسكر الإيرانيين ثم الساحة المطلة على القاعتين الخامسة والسادسة، وبين القاعتين ساحة مبلطة للعب كرة الطائرة والمحاضرات والعقوبة أحيانا ومصلى للأسرى السنة. أما في جنوب المعسكر فعلى اليمين القاعتان الأولى والثانية تقابلانها القاعتان الثالثة والرابعة. إضافة إلى تلك القاعات، هنالك غرف للحراس وضابط الخفر وضابط الاستخبارات ومسؤول العقيدة السياسية وهو عادة من رجال الدين المعممين، وبناية صغيرة حورت إلى مطبخ، وساحة لا تزيد على نصف ملعب كرة قدم نقطعها مشيا ذهابا وإيابا، ومرافق صحية وحمامات في شمال المعسكر وجنوبه. على أعالي السطح تصطف منازل الضباط ومستودعات آليات عسكرية قديمة ومبان مهجورة.

تفصل معسكر الأسرى عما جاوره سلسلتان من الأسلاك الشائكة وفي الوسط تمتد كرات كبيرة متصلة من الأسلاك أيضا علقت عليها لوحات حمر مرسومة عليها جماجم وعظام متقاطعة، أما أسفل المعسكر وحتى منازل المدينة تتحدر غابة كثيفة كانت دائما في أحلام يقظتنا طريق الهروب المستحيل.

أقام الإيرانيون هذا المعسكر بعد أن ازدحمت المعسكرات في طهران مثل « الحشمتية » و «برندك» و «قصر فيروزة» و « زندان قصر » بالأسرى فاخترتوا مجموعات منهم من أسرى عمليات سابقة يبلغ عددهم حوالي ألف أسير ونقلوهم إلى منجیل، وجاءوا بعد أيام بخمسمائة من أسرى عمليات خرمشهر، كانت مجموعتنا من ضمنهم.

في عصر اليوم الأول لوصولنا المعسكر، سلموا كل واحد منا بذلة من قماش خشن أقل قليلا من خشونة أكياس الجوت شديد الخشونة، أبلغونا بوجود تطريز الاسم الثلاثي واللقب على الجهة اليسرى من قميص البذلة، وبطانية رصاصية اللون خفيفة وشرشفا أبيض، وقطعة من الإسفنج مغلفة بقماش رصاصي اللون أيضا كفراش وقطعة صغيرة من الإسفنج كوسادة، ووعاء معدنيا وقدحا معدنيا وملقعة كبيرة وأخرى صغيرة، ثم تم توزيعنا على القاعات، فكنا أنا وفوزي والقيسي وزيني وكاظم الخباز من حصة القاعة السابعة. ما إن تفرقنا حتى هرع الأسرى القدامى يبحثون بيننا عن أقارب أو معارف من أبناء مدنهم ومحافظاتهم لمعرفة آخر أخبار أهلهم. استقبلنا الأسرى القدامى بحفاوة وتقاسموا معنا سجايرهم القليلة المعدودة.

عندما دخلنا القاعة السابعة، هب عدد من الأسرى لمساعدتنا ورتبوا أسرتنا التي كانت في أماكن متفرقة من القاعة التي يشرف عليها، مثل بقية القاعات، مراقب يتم اختياره من بين الأسرى، ويطلق الإيرانيون على هذا المراقب كلمة « أرشد»، وكان أرشد القاعة شابا كرديا كثير المرح تغلب طبيته على تهوره أحيانا يدعى «حميد الخياط»، وله معاون يدعى « سيد مهدي»، وكان شابا أسمر مرحا مؤدبا كريما. ساعدني الاثنان في تهيئة سرير في الطابق الأول، فهناك ثلاثة طوابق بعضها فوق بعض، ولا بد من التسلق للوصول إلى الطابق الثالث، أما الثاني فيكفي أن تضع قدمك على حافة السرير الأول وتدفع جسدك إلى الأعلى.

حين انفض من حولي المرحبون، جاء سيد مهدي ليجلس على طرف سريري. قال بصوت خفيض وكأنه يفضي بمعلومات غاية في السرية: «أود أن أحدثك بصراحة عن الأوضاع هنا، وغاية ما أرغب من وراء هذه الصراحة أن أجعلك على معرفة بما يدور حولك. لكل أسير هنا قصة، لكن البعض يبالغ في قصته ويضفي على نفسه هالة من البطولة، وربما لا تصدق أن من

بين الأسرى من فرّ من وحدته وسلم نفسه لقوات العدو ظنا منه أنهم سيستقبلونه بالقبلات ويمنحونه لجوءاً، غير أن المطاف انتهى به أسيراً مع الآخرين.» قاطعته: « وأنت؟ متى أسرت؟»

أطلق ضحكة خجولة: « لا، لا تظن أنني واحد من أولئك، معاذ الله، الخيانة عار لا يحتمل. كنت نائب عريف احتياط في اللواء المدرع الخامس والثلاثين، ربما لا تدري أن أمثالي من مواليد 1957 خدموا في الجيش العراقي أكثر من أي مواليد أخرى، فدعوات الاحتياط لا تعد ولا تحصى، وكان العراق لم ينجب غير هذه المواليد، ما إن يتم تسريحهم وأعود إلى وظيفتي موظفاً في دائرة يريد الكوت حتى أستدعى مرة أخرى. وقعت في الأسر في إحدى المعارك التي حاول فيها الإيرانيون استعادة السيطرة على ضواحي عبادان.»

ضحك سيد مهدي نازعا قميص بذلته الخشن ليريني وشما على عضده «1981 / 1 / 5».

« أي إنني وقعت في الأسر قبل سنة ونصف تقريبا، كانت لحظات الأسر الأولى قاسية مرعبة، كان أمر كتيبتنا قد أصيب بجروح خطيرة في ذلك الهجوم، وقبل أن نهب لمساعدته وإسعافه، كان الإيرانيون قد احتلوا المقر، وعندما عثروا على الأمر، حزوا رأسه ورفعوه على عامود حملوه ودمه يقطر على وجوههم وراحوا يهزونه فوق إحدى دباباتهم التي ظلت تدور حولنا، فأدركت منذ تلك اللحظة قسوة ما ينتظرنا في أقباص الأسر.»

سرح قليلا وغمت وجهه سحابة حزن، قال: «مدة الأسر الطويلة تعني امتلاكي خبرة متواضعة في أوضاع الأسر، أليس كذلك؟ أود أن أقول لك بناء على هذه الخبرة أن لا تصدق أن الحرب ستنتهي في شهر أو شهرين أو عام أو عامين. أنت تعتقد أن الحرب أوشكت على نهايتها لأن الإيرانيين قد استعادوا خرمشهر، أليس كذلك؟»  
أومأت برأسي بالإيجاب.

« أنت معذور، لم تسنح لك الفرصة بسماع نشرات أخبارهم. إنهم الآن يرددون شروطا صعبة لإنهاء الحرب، منها تغيير النظام في العراق ودفع تعويضات هائلة، بيني وبينك، لا أحب صدام، لكنني لا أتمنى أن يتصرف الإيرانيون بمصير العراق والعراقيين، لا سامح الله، لو دخل الإيرانيون بغداد، فلا بد أنهم سيأتون بحاكم على مقياسهم، ولن يكون أفضل من أغا فتحي وأفشاري وأغا اعتماد.»

قلت موضحا: « سيد مهدي، صحيح أن معنويات القوات العراقية ليست عالية كما كانت؛ لأنهم كانوا يحاربون على أراض محتلة، لكن عندما يتعرض العراق لخطر الغزو، حينذاك سيدافع العراقيون عن بلدتهم بقوة، وإذا ارتكب الإيرانيون مثل هذا الخطأ سيواجهون الفشل بعد أن يتكبدوا خسائر هائلة في الأرواح.»

هز رأسه مؤيدا: « أعتقد أنهم سيرتكبون الخطأ، لن تهتمهم الخسائر في الأرواح؛ لأنهم أقتنوا البسطاء بأن من يقتل في الجبهة، داخل إيران أو خارجها، سيدخل الجنة. أما لجان الوساطة من المؤتمر الإسلامي وعدم الانحياز لم تفعل شيئا حتى الآن، فلا لجنة « النوايا الحسنة» ولا « المساعي الحميدة» نجحتا في إقناع النظام الإيراني بوقف الحرب. هل تعتقد أن الحرب تنتهي قريبا؟ أنا أيضا كنت أعتقد أن الحرب تنتهي في الأسبوع التالي لأسري أو الذي بعده. ذات يوم في معسكر «برندك» وزعوا علينا كمية من مكعبات السكر كتموين لثلاثة أشهر، ولأنني كنت مطمئنا

أننا سنعود قريبا إلى العراق، فقد أنهيت مكعبات السكر خلال أسبوع واحد، واضطرت أن أتجرع مرارة الشاي أياما طويلة. لا يخلو المعسكر من الجواسيس للإيرانيين، فقد دسوا بيننا عددا من الموالين لهم لمراقبتنا، وأعرف بعضهم حق المعرفة. إن الأسرى في هذا المعسكر أو غيره من المعسكرات خليط من متقفين وخريجي الجامعات وطيبين ودجالين ومحتالين وجهلة ومجرمين قتلة. يتواجد هنا ثلاثة ممن كانوا في سجن أبي غريب بانتظار تنفيذ الإعدام بسبب جرائم قتل فأفرج عنهم بشرط المشاركة في الخطوط الأمامية من الجبهة. لا تتق بأي كان إلا بعد اختباره، لا تصدق كل ما يقوله أو ينقله الأسرى من أخبار.»

سكت سيد مهدي قليلا ليتذكر شيئا يود مصارحتي به. قال: «قال لي زملاؤك إنك تعمل في وزارة الإعلام، أرجو أن تكتم ذلك، فالإيرانيون ينتقمون من كل من له علاقة بالكتابة والإعلام، ما إن يسمعو ذلك حتى يرسلوك إلى غرف التعذيب في سجن «إيفين» كما حدث مع صحفي اكتشفوا وجوده معنا في معسكر «برندك». كثير من الأسرى، أو معظمهم، ما زالوا على ولائهم للعراق رغم الضغط والجوع، الكثيرون لا يحبون صدام لكنهم يرفضون شتمه أو حتى الحديث بسوء عن النظام كيلا لا ينزلقوا لموالاته إيران، ولقد سامنا الموالون لإيران العذاب ونكلوا بنا، وهذا ما زاد الأسرى تمسكا بموقفهم. على كل حال، الأمور ليست سيئة هنا، لا بل يمكنني القول بأنها أفضل من المعسكرات الأخرى.»

بعد أيام قليلة، بدأ تثبيت المعلومات عن الأسرى الجدد عبر استجوابهم استجابا سريعا من قبل ضابط الاستخبارات الإيراني. كانوا يقفون في حلقات وسط الساحة يناقشون الأسئلة وأفضل الأجوبة، أو يستطلون قرب جدران القاعات، وجلست بجوار كاظم الخباز نستظل بجدار القاعة الثالثة قرب الطريق المؤدي إلى غرفة ضابط الاستخبارات والباب النظامي منتظرين دورنا. قلت له مازحا: «لو سألوك إن كنت بعثيا أو لا، ماذا ستجيب؟»

رد كاظم بتلقائية وهو يمسح لحيته البيضاء بأطراف أصابعه: «طبعاً لا. ألم أحدثك عن قصتي مع الحزب؟ على أية حال، حتى لو كنت قد سمعتها من قبل فلا يضيرك سماعها مرة أخرى. بعد انقلاب تموز عام ثمانية وستين حاول أحد أعضاء الحزب حينذاك أن يقنع أكبر عدد ممكن من الناس بالانتماء للحزب ليتباهى أمام بقية رفاقه بنشاطه وقدراته، فجاء إلي مؤكدا أن الانتماء للحزب مجرد كتابة اسمي في السجلات وحضور عدة اجتماعات في البداية فقط مقابل وعد بأن يتركني وشأني بعد ذلك. كان عليّ أولاً حضور اجتماع في منزل العضو الحزبي. ذهبت إلى الاجتماع لأجد أمامي أربعة من سكان الحي، اثنان منهم يبيعان الخضروات، والآخران عاملان في دائرة البلدية. طلب الحزبي منا أن نردد وراءه أهداف الحزب: الوحدة والحرية والاشتراكية، وفعل الشيء نفسه في الأسبوع التالي، وفي الأسبوع الثالث، أعلن لنا فرحاً: «لم يصدق مسؤول منظمة الحزب ما أنجزته في أسبوعين من تكوين مجموعة من المناضلين الثوريين الذين استوعبوا أفكار الحزب ورسالته وأهدافه العظيمة؛ لذلك سيقوم اليوم بحضور هذا الاجتماع ليتأكد بنفسه.» وعندما حضر مسؤول المنظمة، تهلل وجهه فرحاً بوجودنا نحن الخمسة وما ذكره عنا مسؤولنا، وحين أراد التأكد من مدى إمامنا بأهداف الحزب وشعاراته، وقعت عيناه عليّ من دون الآخرين، فسألني: «هل لك يا رفيقي أن تذكر لي ما هي أهداف الحزب العظيمة؟» حاولت مرتبكا تذكرها، قلت بعد لحظات: (نعم يا رفيقي.. إنها ثلاثة أهداف.. ال... ال...). فقال المسؤول ليساعدني على

التذكر: ( الوحدة)، فصحت ألوم نفسي بصوت مسموع ( الوحدة لعنة الله عليها، كيف نسيتها وقد كانت على طرف لساني؟). طردنا المسؤول من المنزل راكضا وراعنا بمسدسه. »

يسكت قليلا ويغيب مرحة، وتعلو تجاعيد وجهه مسحة حزن، يمسك عودا صغيرا وينبش في التراب: « صحيح أنا لا أعرف في السياسة والأحزاب كثيرا مثلما أعرف نوعية الطحين ومن أي بلد استوردوه من مجرد رؤيته، ولست متقفا مثلك أو مثل أحمد القيسي، لكنني أدرك حقيقة ما يدور حولي، فقد عشت حياة متعبة ولم أستيقظ يوما بعد طلوع الشمس، لم أمنح نفسي يوما للراحة. لا أدري هل هو الحظ الذي تحكم في حياتي أم هو القضاء والقدر. التحقت بالمدرسة مثل بقية الصبيان، وفي الصف الثالث انتابنتي حالة غريبة، كنت أصاب بالحمى كلما ذهبت إلى المدرسة، وبعد أن أبقى في البيت ملازما الفراش يومين وتزول الحمى، أذهب إلى المدرسة فتعاودني الحمى وهكذا، واحتار طبيب المستوصف في منطقتنا في تشخيص حالتي، وبعد شهر، قرر والدي، رحمه الله، أن أتترك المدرسة وأعمل معه في فرن الخبز، وبعد وفاة الوالد وكان عمري سبع عشرة سنة تحملت مسؤولية إعالة العائلة الكبيرة. الحمد لله لقد استطعت أن أعيل إخوتي الأصغر سنا مني وجعلتهم يكملون تعليمهم العالي، أكبرهم تخرج مهندسا وأحواله الآن ممتازة، والأصغر ذهب إلى الخارج لمواصلة الدراسة ولم يعد، ويقال إنه تزوج ويمتلك شركة، وكلاهما نسي ما فعلته من أجليهما، فالأول لا يزورنا إلا في الأعياد يمكث واقفا بضع دقائق ثم يغادر، والثاني يبعث لي بتحياته عن طريق أخيه المهندس الذي ما زال يطالبني بحصته في البيت القديم الذي ورثناه عن أبي، أما أخي الأوسط فدخل كلية الطب وقبل تخرجه اعتقلته مديرية الأمن العامة لأن صديقه متهم بالانتماء لحزب الدعوة، وبعد سنة أبلغوني بإعدامه وكان ذلك قبل ست سنوات. ماتت أمي حزنا عليه. يا لهم من قتلة أوغاد! كيف يمكن أن أكون مواليا لصدام؟ هل أنت بعثي؟»

هزرت رأسي بالنفي متابعا حركة عوده الصغير.

قال: « كل الجرائم لا تغتفر، لكن الجريمة الكبرى هي قتل الزعيم عبد الكريم قاسم، ألف رحمة على روحه الطاهرة. عرفت هذا الزعيم العظيم يوم كان أمرا لمعسكر منصورية الجبل، وكنت آنذاك جنديا مكلفا مهمتي العناية بدقائق المعسكر. كان الزعيم معروفا بتواضعه ومروءته. وفي أحد الأيام وقبل قيام ثورة الرابع عشر من تموز بشهرين، وأثناء تنظيفي للحديقة الصغيرة المحيطة بمقر الأمر، شعرت بالعطش وكانت حنفية الماء بعيدة عني فانحنيت على ساقية صغيرة ورحت أملاً كفي بالماء وأشرب، ولم أر إلا ظل أحدهم على الساقية، وعندما التفت رأيت الزعيم واقفا وهو يفور من الغضب، فوقفرت مرتجفا أؤدي له التحية، لكنه فاجأني بصفعة قوية قائلا: « كيف تشرب من الساقية؟ هل أنت حيوان؟» رجع الزعيم إلى غرفة مكتبه وبقيت في مكاني أتحسس بيدي أثر الصفعة على خدي، وواصلت عملي وكلي خوف أن يأمر بمعاقبتي بالسجن، وقبل أن أبتعد، رأيتة يقف عند باب غرفته يمسح عينيه بمنديل أزرق، أي والله كان منديلا أزرق فيه خطوط حمراء. أشار إلي بسبابته أن أتقدم نحوه قبل أن يدخل غرفة مكتبه، وعندما دخلت الغرفة خائفا كان الزعيم قد جلس على كرسيه، فأمرني أن أجلس على كرسي قريب من الباب، فاعتذرت إليه لأن رتبتي لا تسمح لي بالجلوس على كرسي أمامه، لكنه صاح بي أن أنفذ أمره، فجلست قلقا وكأنني أجلس على موقد لا كرسي. في تلك الأثناء دخل عليه ضابط برتبة ملازم أول ما إن رأني حتى تعجب من جلوسي في غرفة الأمر الكبير وأنا الجندي المكلف، وقبل أن يوضح طلبه، طلب منه

الزعيم أن يراجع في وقت آخر لأنه مشغول، فانصاع الملازم وغادر غرفة المكتب. سألني الزعيم واضعا مرفقيه على الطاولة: «اسمك؟» أجبت: «كاظم، سيدي.» فقال ألف رحمة على روحه الطاهرة، كاظم، مياه السواقي لا تصلح للشرب لأنها مليئة بالأوساخ والجراثيم، وتسبب الأمراض القاتلة، وإذا كنت تحرص على سلامتك فلا تشرب منها ثانية. صفتك لأنني أخاف عليك، ويبدو أنك طيب وفقير ولا تستحق إلا الخير. مدَّ يده في جيبه وأخرج نوطةً، أي والله نوط أبو الخمسة دنانير، كانت الخمسة دنانير تعادل المئات من دنانير هذا الوقت، وأمرني بأخذها، فترددت، لكنه صاح بي أن أنفذ أمره وحسب، وعندما اقتربت من الطاولة وتناولت الورقة الحمراء، وقف الزعيم باسمًا يصافحني بحرارة، وقال: «تذكر يا كاظم أن بابي مفتوح دائماً، فإذا كنت محتاجاً إلى فلوس أو أية مساعدة فلا تتردد في المجيء إلي.» كان هذا موقف الزعيم، ألف رحمة على روحه الطاهرة؛ لأنه صفع جندياً، أما صدام، لعنه الله في الدنيا والآخرة، وبعد أن قتل ولدي، أرسلني وأنا الرجل كبير السن إلى جبهة الحرب أدافع عن قادسيته تاركا ورائي زوجة وابنا أصبح سجين حجرة على السطح بسبب هروبه من الخدمة العسكرية، وأختا أرملة وأطفالها الأربعة.»

جاء دوري عصراً. كانت غرفة ضابط الاستخبارات متواضعة، فيها سرير ومنضدة كان وراءها ضابط الاستخبارات مرتدياً قميصاً أبيض مجعداً، وبجواره جندي كان يتولى الترجمة عند الضرورة، ويتوسط الحائط ملصق كبير يحمل صورة ملونة للخميني، لكن في الغرفة مروحة كهربائية، فأحسست بالهواء المنعش على الرغم من قلقي. كان الضابط في الأربعين من عمره بلحية خفيفة وأثر على جبينه على شكل دائرة ربما من كثرة السجود، أو أنه كوى جبينه متعمداً للإيحاء بذلك، كما أخبرني كاظم فيما بعد. سألني هادئاً وبلغتة عربية غير سليمة لكنها مفهومة وهو يسجل بعض الملاحظات على ورقة أمامه من دون أن يرفع رأسه لقراءة الاسم المطرز على البذلة: «اسمك؟»

« وليد ناصر.»

« المهنة؟»

« معلم.»

« عمرك؟»

« خمس وثلاثون سنة.»

« دينك؟»

« مسلم.»

« مذهبك؟»

وجدت سؤاله استقرازيًا وقحا كريهاً لا معنى له، فما الفرق في أن أكون شيعياً أو سنياً؟ توقعت أن يسألني عن منطقة سكني، عن الوحدة العسكرية التي كنت فيها، ترددت في الإجابة لكنني أجبت مكرهاً: « شيعي.»

نظر إليّ متمعناً وأصابع يده تحك خده الأيمن: « ما هو، برأيك، سبب اندلاع الحرب المفروضة على إيران الإسلامية؟»

« أعتقد أن السبب كان خلافات حدودية. »

احمرّ وجهه وصرخ غاضبا: « ألم تكن تدري أن الاستكبار العالمي بقيادة الشيطان الأكبر أميركا ودول الخليج هم الذين دفعوا صدام للهجوم على بيضة الإسلام، إيران؟ »

أجبتة متلعثما: « لا أدري، فليس لي علاقة بالسياسة. »

نهض واقفا وقد تصاعد غضبه: « هل أنت بعثي؟ »

« لا. »

« لماذا إذن قاتلت قوات الجمهورية الإسلامية؟ »

« دفعت إلى جبهات الحرب مكرها. »

« كلكم تقولون العذر ذاته. سأكتشف كل شيء عنك. أين أسرت ومتى؟ »

« في المحمرة. عفوا في خرمشهر قبل أسبوع. »

جحظت عيناه غضبا: « أية تسمية هي الأصح برأيك: خرمشهر أم المحمرة؟ »

« خرمشهر. »

« قلت المحمرة كما يسميها صدام والصداميون، فهل كانت فلتة لسان أم أنك واحد من أذئاب

صدام؟ »

أدركت أنني وقعت في ورطة ما كان لي أن أقع فيها لو كنت أكثر حذرا، ولم يكن أمامي سوى إقناع ضابط الاستخبارات بأن اسم المحمرة ليس جديدا: « عرفت من خلال قراءاتي أن اسم المدينة كان المحمرة. »

خف غضبه فجأة ولانت لهجته، فسألني لاختبار مزاعمي: « لا بد أنك تقرأ كثيرا وتمتلك معلومات عامة، ما الذي تعرفه عن تاريخ خرمشهر؟ »

« عفوا، ليست معلوماتي عن المدينة بالمهمة. »

جلس في مكانه متطلعا إليّ باهتمام: « تكلم بما تعرفه. »

« تقول بعض كتب التاريخ إن موقع المدينة كان معروفا منذ أيام الإسكندر الذي غزا إيران في القرن الرابع قبل الميلاد، كما أتذكر، وخضعت لحكم الخلفاء العباسيين، لا أعرف متى بالتحديد، ومنذ ذلك الحين سميت بالمحمرة حتى العشرينيات من القرن العشرين حيث تغير اسمها إلى خرمشهر. »

لم أقل له إن والد الشاه استطاع بالخديعة القضاء على الشيخ خزعل أمير المحمرة والذي كان يتمتع بوضع شبه مستقل، فضمها الشاه إلى إيران وسماها خرمشهر، ولم أقل له إن الإيرانيين غيروا تركيبتها السكانية وإنها كانت ذات أغلبية عربية.

قال الضابط بارتياح: « معلوماتك جيدة، ويمكن أن يكون حالك أفضل عندما تفكر جيدا فيما أقوله

لك. »

نهض من مكانه، دار حول المنضدة حتى وقف أمامي. قال لي بلهجة ودية واضعا يده على كتفي: « أمامك فرصة كبيرة، ليس فقط لإثبات توبتك بعد أن ارتكبت ذنبا كبيرا بمحاربة الإسلام ودولته،

وإنما أيضا نيل الثواب في خدمة الدين الحنيف. لا بد أنك قد سمعت بالعدوان الإسرائيلي الغاشم وغزو لبنان، ولا أعتقد أنك كمسلم تقبل أن يدنس المحتلون لبنان كما دنسوا أرض فلسطين؛ لذلك تريد قيادة الثورة الإسلامية تحرير فلسطين، ولهذا قررت الحكومة الإيرانية تشكيل فيلق من الإيرانيين والعراقيين باسم «فيلق القدس»، والغاية من ضم العراقيين ليست الحاجة لهم، فالقوات الإيرانية قادرة على تأدية كل المهام، ولكن لإتاحة الفرصة أمامهم للمساهمة في إعلاء كلمة الإسلام وتحرير أرض المسلمين، فمن يقتل يحصل على الشهادة، ومن يبقى يغفر الله له كل ذنوبه، ما تقدم منها وما تأخر، والغاية من هذا الفيلق هي تحرير القدس، وطريق القدس يمر عبر كربلاء، وتمهيد الطريق إلى المسجد الأقصى يقتضي تحرير العراق. فكر جيدا قبل أن تجيب، كي لا تخسر فرصة ربما لا تسنح ثانية لتحصل على حريتك، وهناك تعهد من قبل قيادة الثورة الإسلامية بإطلاق سراح كل الأسرى الراغبين في الالتحاق بهذا الفيلق، وقد سجل عدد كبير من الأسرى في هذا المعسكر أسماءهم.. هل ترغب في تسجيل اسمك؟»

كان السؤال مباغتا، فلم يذكر هذا السؤال من سبقوني إلى التحقيق، لكن سرعان ما أجبت: « لا، لا أُرغب»

فتح الضابط عينيه على سعتهما: « لماذا؟»

أجبت متجنباً النظر إليه: « لأنني تعبان.»

صفعني الضابط ودفعني نحو الباب بركلة قوية، صائحا بغضب: «اغرب عن وجهي أيها الصدامي الكافر.»

\* \* \*

تشتد الرياح عصر كل يوم فيتطاير الحصى الناعم من الساحة المكشوفة ضاربا وجوهنا وأقدامنا العارية قبل أن تهبط علينا السحب القادمة من وراء الجبال، قيل إنها من بحر قزوين، فتغسل الوجوه برداها، لكن الرياح تهدأ عند هبوط الليل حينما نكون جميعا خلف أبواب موصدة.

حين تهب الرياح عاتية تهز الأسلاك الشائكة، تصفع اللوحات المعدنية الحمراء ذات الجماجم والعظام المنقطة، محدثة إيقاعا جنونيا يعلن حضور الموت مع كل صفة. كنت أحسب تلك اللوحات مجرد تحذير من مغبة اختراق الأسلاك؛ لأن بنادق الحراس المنتشرين عند الزوايا والأركان جاهزة للانطلاق، لم نصدق ما تعنيه تلك اللوحات البلهاء من وجود ألغام مزروعة وسط الأسلاك الشائكة، وذات يوم توقفنا عن الدوران في الساحة لنراقب قطيعا من الماعز ينحدر صوب الخط الثاني من الأسلاك الذي لا يبعد كثيرا عن الخط الأول الذي نتواجد وراءه. اقتربت معزتان من الأسلاك، أدخلتا رأسيهما وراحتا تلتهمان العشب، طمعتا في المزيد، فاندفعتا داخل الأسلاك، فحدث انفجار رددت الجبال صداها، رأينا الأشلاء تتطاير، وأقبلت الكلاب تتقاذف في الهواء نابحة لتجثم على ما تناثر من قطع اللحم وتتقاسمه، أما الراعي المسكين فظل ينقل نظراته الهلعة بين قطع اللحم والشعر الملتصقة برؤوس الأسلاك المدببة وبيننا نحن الواقفين وراء الأسلاك. صرخ الحارس فيه أن يتحرك، فخطا الراعي حزينا خلف قطيعه، لكننا كنا أكثر حزنا، فقد كنا نرى أجسادنا تتطاير في لحظة يأس أو لحظة جريئة لا تليق إلا بالمجانين.

عندما تشتد الرياح تتمايل أشجار الزيتون المزروعة خلف الطوق الثاني من الأسلاك الشائكة، تتشابك الأغصان وتميل لكنها لا تنكسر. جاءنا العريف فتحي ذات ظهيرة مشيرا إلى عدد من الأسرى أن يتبعوه، اجتاز بهم الطوق الأول من الأسلاك، أمرهم أن يقطفوا الزيتون من أشجار حددها في منطقة ليست واسعة، حسدناهم لأنهم عبروا الطوق الأول، ولو لفترة قليلة، وبعد نصف ساعة أدوا مهمتهم، وكان فتحي مرتاحا، فتخلينا مدى سعادة أصحابنا وهم يعودون محملين بأرغفة الخبز ورؤوس البصل، أو أن يمنحهم العريف عددا من السجائر سنشاركهم فيها في احتفال صامت، لكنني رأيت فتحي وقد عبس فجأة، شتم أحد مجموعة الأسرى، صفعه ودعا الحراس أن يكملوا المهمة، فطرحوا الأسير أرضا وركلوه بقسوة. ظل الأسير يصرخ مستغيثا وسائل أخضر يسيل من فمه. قال فتحي وهو يقف أمامنا مسندا يده على الأسلاك الفاصلة بيننا: «لو أخبرتكم ما فعل هذا الأسير لطلبتن مني مضاعفة عقوبته، إنه لص عديم الأخلاق، لقد ملأ جيبه وفمه بالزيتون مدعيا أنه يأكل الزيتون المر ليحصل على النوى التي ينوي صنع مسبحة منها يشغل نفسه بها عندما يعصره الجوع.»

تنتطلق صفارة التعداد المسائي بعد صلاة المغرب؛ لنساق في صفوف إلى القاعات. في القاعة، أتحرق من البذلة وأرتاح من حك جلدي بسبب خشونتتها، ألبس سروال النوم وهو الشرشف الأبيض الذي وزعوه علينا لنلف به الوسائد عند التفتيش الصباحي. كان عدد من الأسرى المهرة في الخياطة وبدون مقابل يجعلون الشرشف الناعم سروال بيجاما لا بأس به، ولتغيير لونه، يلقي في ماء حار ومعه قلمان من الحبر الجاف يمكن شراؤهما من حانوت أفشاري، فيكسب القماش لونا أزرق، لكنه سرعان ما يهزل ويتمزق قبل زوال لونه.

وفي التاسعة مساءً، موعد النوم الإجباري، يبدأ الحراس بمراقبة من لم يغمض جفنيه صارخين: «خاموش كن» ( ناموا)، والويل لمن يخالف الأوامر، ومن سوء حظ البعض أنه ينام بعيون نصف مفتوحة، فنقرعه هراوات الحراس مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة. قبل مجيئنا بيوم واحد أعدت لنا إدارة المعسكر أسرةً جديدةً بألواح خشبية توضع فوقها، لكن بعض الأسرى القدامى أبدلوا في الحال بأسرتهم الحديدية التي ارتخت أسلاكها، وكان سريري واحداً منها وعندما أنام عليه، لا يظهر مني سوى الرأس والقدمين.

حين يحل موعد النوم، تبدأ مرحلة أخرى من العذاب، الرطوبة الخانقة والصنان والعطن والكوابيس. في الليل يتعالى الأنين ويتحول أحياناً إلى صراخ كوابيس يوقظ الآخرين. ما إن أغمض عيني حتى تنطلق صرخة أخرى، لكنني مع الأيام اعتدت ذلك، وربما أنا مثلهم في الأنين والشخير والكوابيس. الأسير المجاور لي كان يعلق فوق رأسه ورقة كتب عليها بخط عريض واضح «لا توقظ أسيراً نائماً فلعنه يحلم بالحرية»، لكنني متأكد أنه لا يحلم بها، فقد حدث في ساعة متأخرة ذات ليلة وبينما كان ضابط الاستخبارات يتجول داخل القاعة ليتأكد من انصياع الجميع لأمر النوم الإجباري، باغتته صيحة من ذلك الأسير النائم، فالتفت الضابط إلى مترجمه الذي كان جندياً من عرب خوزستان يسأله عن معنى ما صاح به الأسير، فأخبره الجندي أن الأسير شتم قادة الجمهورية الإسلامية، فأمر الضابط بضربه وتأديبه. أيقظه الجنود بصفعاتهم وركلاتهم ولكماتهم وهو لا يدري ما السبب.

النوم العميق في توابيت الأسر الجماعية نعمة عظيمة، فالنوم هنا ليس موتاً مؤقتاً تخطف الروح فيه ثم تعاد، وإنما هو الفسحة الوحيدة التي تعيد الأسرى إلى الحياة إن لم يكن هو الحياة الوحيدة التي يعرفونها في هذه الأقبية أو القبور، ففي النوم ينعمون بالحرية، يسبون يشتمون ويتحدون ويلعنون، ينطلقون في فضاء مفتوح لا منتهاه، يأكلون ما لذ وطاب وإن كانوا لا يشبعون، يحضنون حبيباتهم وأطفالهم ويبكون على صدور أمهاتهم وهم يحدثونهن عن زمن صعب اجتازوه بمعجزة. في النوم يطلق الأسرى لغرائزهم العنان.

في كل صباح، يحصل الأسير على نصف رغيف خبز لذيذ جداً، ولا أدري إن كانت لذته بسبب الجوع أو لأنه كان خليطاً من القمح والشعير والذرة، ولا بد أن يكفي لثلاث وجبات، ولم يكن سهلاً الاحتفاظ ببقيته طوال النهار من دون التهامه في وجبة واحدة؛ لذلك اعتبرت الشجاع جداً هنا هو من يبقي حصص الغداء والعشاء من نصف الرغيف ذاك من دون نقص. بعضهم لا يقوى أمام إغراء رائحة الخبز، التي نعتقد واثقين أن لا رائحة في الكون تدانيها، فيودع بقية النصف عند الآخرين حتى تحل الوجبة التالية، والبعض يتسلل إلى صرته التي يحتفظ بها تحت سريره فيقضم بعضاً من حواف قطعة الخبز، وكان يكرر ذلك مرات عدة في أوقات محددة، حتى يمكن معرفة الوقت من حساب القضم.

الفتور دائماً ملعقة صغيرة واحدة من المربي، وأحياناً قطعة صغيرة جداً بحجم عقدة الإصبع من الزبد أو الجبن، ربما لم يكن الحصول على تلك القطعة مهماً؛ لأنها لا تسد فراغاً في بطون خاوية، وإنما كان المهم توزيعها بطريقة عادلة دون مشاكل قادت أحياناً إلى عقوبة بالسياط. حصة كل قاعة (أسايشكاه) والتي تضم بين جدرانها العالية من 150-200 أسير، أربعة قوالب صغيرة مستطيلة من الزبد، ولما كان الأسرى قد تم تقسيمهم إلى مجموعات، تضم كل مجموعة من 25-20

شخصاً، فكانت حصة المجموعة نصف قالب من الزبد. من الصعب جداً توزيع تلك الكمية القليلة على ذلك العدد بالتساوي دون أن تكون هنالك سكين أو آلة قطع حادة ومن دون أن يكون القطع مائلاً فيأخذ من حصة أسير ليضيف ذرات إلى حصة أسير آخر في زمان ومكان كان الجوع أقسى ما يكون. كانت مهمة صعبة؛ لذلك تقع أعباؤها على الجميع بالتناوب، ومن يأتي دوره يعد خيطاً مبروماً من النايلون استلته من زوج الجوارب الذي وزع على الأسرى القدامى قبل مجيئنا، لهذا كان الأسرى الجدد يستعيرون خيوط الآخرين للقطع. يمسك الموزع طرفي الخيط بانتباه وتركيز وينزله باستقامة على القطعة المحددة ليفصلها عن بقية القالب على مرأى من الآخرين ومراقبتهم، ومع أنها مهمة صعبة إلا أن الموزع كان محط حسد البعض لأن ذرات من الزبد أو الجبن كانت تبقى عالقة بخيط النايلون، أما إذا كانت الوجبة مربى، فالموزع يستخدم ملعقته الصغيرة عند التوزيع؛ ليتلذذ في النهاية بلحس ما علق بها.

في ظهيرة كل يوم، ينطلق ثمانية أسرى من كل قاعة إلى المطبخ القريب من الباب النظام ومقر الحراس ليعودوا حاملين قدرين كبيرين من الرز والمرق، وقبل أن يصلوا القاعة، يصطف الأسرى واحداً وراء الآخر يحملون قصعهم المعدنية، وحصة الفرد لا تزيد على مقدار قرح بلاستيك صغير من الرز. ومن يحصل على حصته ينتقل إلى طابور آخر للحصول على المرق وهو عبارة عن ماء مصفر اللون مع حبات قليلة من الفاصوليا والحمص، وقد يكون المرق أحياناً (سيزي) وهو عبارة عن حبات من الفاصوليا والحمص واللوبياء وكمية وفيرة من الخضروات مخلوطة بالحصى الناعم. وقد اكتشفنا فيما بعد أن تلك الخضروات لم تكن سوى حشيش يأتي به مسؤولو المعسكر من محلات بيع العلف الحيواني ويسجلونه في قوائم المشتريات على أنه خضروات متنوعة، ومع ذلك كنا نتناوله بشهية.

قبل غروب الشمس بقليل يبدأ توزيع وجبة العشاء التي هي عادة ماء ساخن أصفر اللون مع أربع أو خمس حبات من الحمص. في بعض الأحيان تكون الوجبة أرزا مخلوطة بالعدس أو وجبة لا تقل شهية عن (السيزي) تلك هي (الكوكو) وهي، كما يفترض، خليط من البيض والخضروات، لكنها في المعسكر كانت خليطاً من البيض والبرسيم. كانت مكافأة أولئك الثمانية الذين لا تقتصر مهمتهم على حمل القدور الكبيرة فقط، وإنما أيضاً غسلها وغسل القاعة كل صباح والمشاركة في غسل المرافق الصحية والحمامات، كمية إضافية من الرز وقطعة صغيرة من اللحم لكل واحد منهم وسيجارة تقطع من الحصة اليومية لكل أسير والتي هي خمس سيجارات من نوع رديء.

الحر الشديد والروائح العفنة وأوجاع معدتي تجعل النوم المبكر صعباً علي فأنام في وقت متأخر، لكن الحراس يوقظوننا قبل صلاة الفجر بساعة بهراواتهم وصراخهم لتتوضأ ونقرأ القرآن، وبعد تأدية الصلاة، ننام ساعة ونصف الساعة لنستيقظ قبل طلوع الشمس لإخلاء القاعات لتنظيفها واستعداداً لمراسيم الصباح المملة.

يصطف الأسرى في الساحة كل صباح، مجموعات كل قاعة على حدة محاطين بأكثر من عشرة جنود بانتظار قدوم أمر المعسكر أو ضابط الاستخبارات وواحد من ثلاثة هم السلطة الفعلية في المعسكر: نائب الضابط اعتمادي ورئيس العرفاء أبشاري والعريف فتحي. وتحضر ثلة من الجنود المسلحين بالبنادق ليشاركوا في تحية العلم الذي لا يرفع قبل أن يردد الأسرى الدعاء بالعمر المديد للخميني والنصر لإيران في الحرب، وتنتهي المراسيم بسلسلة من الأوامر والتعليمات، فنركض

إلى القاعات بعد تلك المراسيم الطويلة لنلتهم قطعة الخبز مع القطعة الصغيرة جدا من الجبن أو الزبد أو مع ملعقة صغيرة من المربي، ونحتسي الشاي بأقداحنا المعدنية. لكن الأهم من ذلك، أن السجائر توزع مع وجبة الفطور، وبما أنها قليلة جدا، يظهر البعض كرم ضيافته حين يدعو مدخنا إلى زيارته والجلوس على طرف سريره فيقدم له نصف سيجارة، وكان ذلك كافيا ليصفه الآخرون بكرم حاتم الطائي، وفيما يتبرع البعض من غير المدخنين بسجائره إلى أقربائه أو أصدقائه كما يفعل القيسي الذي يتبرع بسجائره إلى زيني، أما البخلاء منهم فيحتفظون بها ليساوموا الآخرين لمبادلتها بقطعة ملابس داخلية على أمل أن توزع مرة كل شهرين أو ثلاثة كما وعد القائمون على المعسكر.

ابتدع الأسرى طريقة يقطعون بها السيجارة إلى ثلاث قطع من دون أن تسقط ذرة تبغ واحدة، كانوا يفعلون ذلك بواسطة خيط النايلون الذي يقطعون به قالب الزبد أو الجبن، يلفون الخيط على السيجارة ويسحبون طرفي الخيط بقوة. ولكي يستمتعوا بكل تلك القطعة من السيجارة، صنعوا من الأغصان الرفيعة المتفرعة من شجرة الكالبتوس الوحيدة داخل المعسكر غليونات يثبتوا السجائر في مقدمتها. كانوا يقطعون جزءا من الغصن، وبعد حكه على الكونكريت يصير مدورا ناعما مصقولا، ثم يقطعون، بعيدا عن أعين الحراس، قطعة صغيرة من الأسلاك بطول شبر يصنعون منها متقبا يثقبون به قطعة الغصن. وبعد استعمال «الغليون» يوما واحدا، كانوا يأتون بقطعة صغيرة جدا من الإسفنج الذي ينامون عليه، ويدفعونها داخل الغليون بواسطة قطعة السلك، فتدفع بدورها القطران الذي كان يخرج بشكل سائل كثيف بني اللون كريحه الرائحة، يصبغون به الغليون. كانت السجائر التي يوزعونها علينا تحمل علامة (اشنو) وهي من غير فلتر وكثيرة القطران، وقد قال عنها زيني ساخرا إنهم يأتون بروث الحمير بعد تجفيفه ويلقونه في أحواض لتقطيعه ومن ثم يعبئونه في أوراق السجائر.

نبدأ الدوران في الساحة يوميا بعد تناول الإفطار، وحين نتعب نسترخي في ظلال القاعات وبعد استراحة قصيرة نواصل الدوران مجترين حكاياتنا وذكرياتنا. نتهيا في الظهرية فيأخذ كل واحد قطعة من ملابس بالية أو من أكياس الرز فيفرشها على الحصى ليصلي عليها عندما تقام الصلاة، والويل لمن يتأخر عن الحضور إلى الساحة فالجنود الإيرانيون يفتشون القاعات لعلمهم يصيدون واحدا منا تخلف عن الصلاة ليذيقوه الرفس والركلات، لكنهم عندما تبدأ الصلاة يلعبون كرة الطائرة وبرهان مادي كبير ويعلو صياحهم على صوت الأسير الذي يؤمنا في الصلاة. كان انتظار موعد إقامة الصلاة طويلا، ولعل الأسير المتباهي بلحيته الطويلة والذي لم يكف عن تمسيطها بأصابعه والذي كان يؤمنا في الصلاة، كان يعتمد التأخير متظاهرا بقراءة القرآن، وكنت، برأسي الحليق تحت شمس محرقة، أبذل جهدا كبيرا في تحمل ذلك الانتظار أو الدعاء الطويل بين صلاة الظهر وصلاة العصر وما يعقبانهما من أذعية. اكتشف البعض ومنذ الأيام الأولى شرود ذهني في الصلاة فقد كنت أركع بينما كانوا واقفين، وأقف حين يركعون. افتضح أمري مرة وأصبحت حكايتي طرفة يذكرها الأسرى كلما تحدثوا عن الصلاة وركعات السهو، فذات يوم وعند نهاية صلاة الجماعة ردد أحدهم وهو يلتفت إليّ وكنت على يساره شاردا البال: « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.» فرددت على الفور: «وعليكم السلام.. كيف الأحوال؟».

ذات ظهيرة، كنت أتصعب عرقا وأنا في صفوف المصلين تحت شمس محرقة منتظرا أداء فرض صلاة العصر بعد دعاء طويل يفصلها عن صلاة الظهر، التقت نحو الساحة المنخفضة المبلطة فرأيت الأسرى السنة قد أنهوا صلاتهم، وعندما التفت إلى الوراء، رأيت أحمد القيسي وزيني يجلسان مسترخين في الظل وينظران إليّ باسمين، فحسدتها على راحتها تلك، وفي اليوم التالي وكان الخميس نقلت قطعة القماش البالية التي أصلي عليها إلى الساحة المبلطة. وبعد انتهاء الصلاة بساعة، استدعاني ضابط المخابرات، وما إن دخلت عليه حتى سألتني غاضبا: «أنت سني أم شيعي؟ وصلنتي معلومات أنك صليت اليوم مع أهل السنة مع أنك كما تذكر المعلومات التي وصلنتي تتحدر من الجنوب حيث الجميع من الشيعة، هل المعلومات صحيحة؟»

تعجبت من وصول تلك المعلومة بهذه السرعة، أسعفتني البديهة باختراع حكاية يمكنني بها الدفاع عن نفسي فأجبت متصنعا الهدوء: «أغا، المعلومات التي وصلنتكم صحيحة لكنها مع الأسف ناقصة، صحيح أن العشيرة التي أنتمي إليها من الشيعة، لكن عائلتنا من السنة..» قاطعني زاجرا: «كيف يكون ذلك؟ هل تعتقد أنك قادر على خداعي؟»

«عفوا أغا، سأبين لك ذلك، أحب جدي في شبابه فتاة من أهل السنة، لكن أهلها حاولوا إبعاده عنها فاشترطوا عليه أن يتحول إلى المذهب الحنفي، ومن ذلك الحين أصبحت عائلتنا على هذا المذهب.»

فكّر الضابط قليلا، قال: «إذا كان الأمر كما تقول فلا أحد يمكنه الاعتراض على ذلك.» لكن ما حدث في اليوم التالي، الجمعة، جعلني أعيد النظر في انتقالي إلى الساحة المبلطة الصغيرة، كنت أنتظر بدء الصلاة وانتهاءها بلهفة للخلاص من حرارة الشمس، لكن الأسير الذي تقدمنا في الصلاة فاجأني وهو يخرج أوراقا كثيرة راح يقرأ مقلدا خطباء الجوامع ولكن بنبرة خطابية بطيئة وبأخطاء لغوية وحركات مضحكة، واستمر في القراءة بينما أنهى الأسرى في الساحة الكبيرة صلاتي الظهر والعصر. ظل الخطيب يحدثنا عن أهمية الزكاة وأن لا نقصر في مساعدة الفقراء والضعفاء واليتامى، فالتفت إلى زيني متسائلا: «هل هذا معقول؟ أية زكاة ونحن لم نشبع يوما؟ إنه كمن يحدث جائعا عن الفرق في الفوائد الغذائية بين اللحم البيضاء والحمراء.» رد زيني بصوت خفيض: «لو تدري ما قاله في خطبة الجمعة الماضية، أوصانا بأداء فريضة الحج على من استطاع إليه سبيلا.»

نهضت واقفا ونفضت قطعة القماش التي أصلي عليها، أثارت حركتي تلك انتباه جميع الجالسين، أما الخطيب فلم ينتبه لأنه لو رفع رأسه لضاع عليه السطر الذي كان يقرأه، فصاح زيني: «إلى أين؟»

أجبت مبتعدا: «من الأفضل أن أعود إلى الساحة الترابية.»

انتابنا فرح قصير حين سمعنا ذات مساء من حزيران (يونيو) من جهاز التلفزيون المعلق قرب سقف القاعة أن العراق أعلن انسحاب قواته من بقية الأراضي الإيرانية المحتلة، وأنه أعلن أيضا وفقا لإطلاق النار، لكن الإيرانيين وبعد ساعة فقط أذاعوا بيانا أكدوا فيه استمرار الحرب حتى تحقيق شروطهم، وفي النشرة التالية أكد أكثر من مسؤول في تصريحات نقلها التلفزيون إن اليد التي تصافح صدام تقطع ولا بد من إزالته. وفي نشرة أخبار اليوم التالي، صرح رئيس الوزراء

«مير حسين موسوي» بأن إيران تقبل بوقف إطلاق النار واستقبال مراقبين دوليين ولكن عند الحدود الجديدة الفاصلة بين الدولتين في مدينة الرمادي في الوسط الغربي من العراق.

في أحد الأيام جاء الإيرانيون برجل دين معمم ممن أبعدهوا من العراق يزعم تبعيتهم الإيرانية، لإلقاء محاضرات علينا، كان الرجل قصير القامة نحيفا، لا توحى ملامحه بالوقار، وما إن تجول بيننا بعباءته الكالحة وخفيه المغبرين حتى صاح مندهشا: « كيف تحلقون لحاكم؟ »

أجابه أحدهم: « الإيرانيون يوزعون علينا شفرة لكل واحد في الشهر. »

رفع الرجل عباءته صارخا: « هذا حرام. حلاقة اللحية عمل منكر. »

قرر الإيرانيون في اليوم التالي منع حلاقة اللحية ووجوب حلاقة شعر الرأس. لم يكتف الرجل المعمم بذلك بل طلب منا في محاضراته في اليوم الثالث، ونحن نجلس على حصى الساحة تحرق حرارة الشمس رؤوسنا الحليقة، إعلان الولاء لإيران قائلا: « عليكم أن تحمدوا الله لأنكم الآن في جنة الإسلام. »

ضح الجميع بالضحك. سأله أحدهم: « وإذا كنا لا نريد هذه الجنة بل نريد العودة إلى العراق؟ »

صاح آخر: « لماذا لا توافق إيران على تبادل الأسرى؟ »

أجاب الرجل المعمم متلفتا حوله: « إيران لديها أسرى في العراق أهم منكم، ومنهم وزير النفط، لكنها تخشى عليكم من ظلم صدام إذا رجعتكم إلى دياركم، وإذا رجعتكم إلى الإسلام، تجدون فيه أن من حق الإيرانيين قتلكم، وليتهم قتلوكم، لأنكم حاربتم نظاما إسلاميا، لكن الإيرانيين أبقوكم على قيد الحياة، فواجب الشكر عليكم يلزمكم بالولاء لهم. إنها فرصة ذهبية أن تعلنوا التوبة وتتبعوا ولاية الفقيه. »

صاح أحد الأسرى: « هل تريدنا أن نكون إيرانيين مثلك؟ »

صاح المحاضر بصوت عال: « أنتم كفرة زنادقة عملاء صدام. »

هجم عليه بعض الأسرى ورموه بالنعل، لكنه أفلت من قبضتهم تاركا وراءه خفيه وعباءته التي أصبحت مزقا.

أدرك أمر معسكر الأسرى ومعسكر التدريب المجاور العقيد « شفافزند » - أو كما يسميه الأسرى العقيد « كارتر » للشبه الشديد بينه وبين الرئيس الأميركي جيمي كارتر - أن بقاء ذلك المحاضر سيكون سببا لمشاكل كان في غنى عنها، فأمره بمغادرة المعسكر، غير أن ذلك المحاضر المعمم قرر الانتقام منا فكتب تقريرا إلى مكتب الإمام الخميني واصفا الأسرى بالجاحدين الموالين لصدام والمعادين للإسلام، كما أخبرنا العقيد شفافزند الذي أبلغنا أن إدارة شؤون الأسرى ستتخذ إجراءات تجعل من أيامنا المقبلة أياما مليئة بالمتاعب. أثبتت لنا الأسابيع التي أمضيها هنا أن العقيد شفافزند رجل يتمتع بالحكمة وبعد النظر. سمعت أنه كان قائدا للفرقة الثالثة في قزوين في أواخر عهد الشاه وامتنع حينذاك عن تنفيذ الأوامر بإطلاق الرصاص على المتظاهرين إبان أيام الثورة، ولهذا السبب أبقاه النظام الجديد في إيران في الجيش ولكن في وظيفة هامشية.

حك زيني ركبته البارزة من سرواله البالي الممزق ملتفتا إلينا، أحمد القيسي وأنا، مخفيا قلقه بابتسامة شاحبة: «ها نحن في الأسبوع الأول من أيلول وليست هناك رسائل نبعثها إلى العراق، وليس هناك صليب أحمر يسجلنا ويمنحنا هوية أسوة بعباد الله من الأسرى الآخرين. ليس عجيبا ولا غريبا أن يسوقنا الإيرانيون إلى وراء جبل من هذه الجبال ويعدمونا رميا بالرصاص، فلا دليل على وجودنا أسرى ما دمنا لم نُسجل في قوائم الصليب الأحمر، ولا أعتقد أن أحدا سيهتم لشهادة الأسرى الآخرين عنا.»

كان ذلك ما يراود ذهني أيضا، لكنني لم أشأ أن أزيد آلام الواقع بفضاعة احتمالات المستقبل. كان الحارس، الذي لم تزل لحيته زغبا والحاضن بندقيته على صدره، يتطلع إلينا من وراء الأسلاك بدهشة وكأنه يرى مخلوقات غريبة فيما كنا نجلس أمامه، لائذين في تلك الظهيرة بظل جدار القاعة بمواجهة الأسلاك الشائكة.

قلت ساخرا: « زيني، لو أنهم يريدون إعدامنا فلا شيء يثنيهم، أما سمعت العقيد الذي يضع اتفاقية جنيف تحت حذائه لأن إيران لا تعترف إلا بتعليمات الإسلام.»

فتح زيني عينيه دهشة: « ما الذنب الذي ارتكبه المرحوم قصي؟ هل من التعاليم أن يقتل المرء لأنه يتبول واقفا؟ لا أعتقد أن المسلمين في أيام دولتهم قتلوا أسرى. هل تعتقد ذلك؟ والدي، وكان رجل دين معمم، لم يذكر يوما ذلك.»

ضحك زين العابدين أو زيني وبانت أسنانه الصفراء المتأكلة وهو يستذكر أباه: « ذات يوم وكنت حينذاك صبيا، تلصقت عليه من ثقب في الجدار، وكانت تجلس أمامه امرأة كانت معروفة في المحلة بكثرة شجارها مع زوجها وكان صاحب مقهى في الأعظمية، فأخبرها أنه أعد لها دعاء لا يخيب، وحرصا على الدعاء من تعرضه لنجاسة فقد خيَّط بنفسه قطعة قماش غلف بها الدعاء، فأعطته المسكينة بعض الدراهم ومضت سعيدة بالدعاء المستجاب المغلف، وعندما خرج أبي من الغرفة، دخلت لفحص الصندوق الذي سحب منه الدعاء فوجدت أدعية مغلقة كثيرة، ففتحت واحدا منها ورأيت أن الدعاء ليس سوى ورقة مليئة بالأرقام مقتطعة من كتاب «الحساب والقياسات» للصف الثالث الابتدائي، فركضت لأمي فاضحا سر أبي، لكنها قالت وبايمان مطلق أن أبي يقرأ على الورقة فتتحول إلى طلاس لا يراها بقية الناس، ومع أنني لم أكن أو من بذلك، فقد طلبت منه أن يزودني بشيء سهل عليّ امتحان الدراسة الإعدادية، فشد على زندي خرزة يخلط فيها اللونان الأزرق والأحمر، وقد نجحت في الامتحان. »

يسأله القيسي محتدا: « نجحت بسبب الخرزة؟ »

يجيب زيني مرتبكا: « لا أدري.»

« هل تؤمن بالسحر؟ »

«في بعض الأحيان لا تجد تفسيرا مناسباً لتقلبات أمزجة الناس وتصرفاتهم أو هبوط الثروة عليهم بسرعة أو زوالها فجأة، لذلك أصدق أحيانا بالسحر.»

زم القيسي شفثيه متبرما: «جعلتني الآن أشك بكل ما سمعته منك من حكايات. كفى كذبا ومبالغة، ربما تتطلي حكايتك على السذج والأميين من الأسرى ولكن ليس علينا، ويدفعني كلامك هذا إلى

الشك في كل ما حدثتني به حتى كونك خريج كلية الشريعة، فالجهلة وحدهم يؤمنون بالخرافات. «  
نهض زيني وتركنا متذمرا، تابعه القيسي بنظراته: « ماذا دهاه؟ تتغير أفكاره تبعا لحالته النفسية  
أو حسب الشخص الذي يجالسه، فهو أمامنا رجل متحرر، يهوى الشعر، يحب امرأته لكن المشاكل  
معها لا تنتهي، ويملك منزلا لم يكتمل بناؤه بعد وأجبرته زوجته أن يسجل ملكيته باسمها، وأنه  
مثلنا مجبور على الانتماء لحزب البعث، لكنه أمام الآخرين شخص آخر، فقد أخبرني بعض  
الأسرى أنه أخبرهم بأنه يؤمن بالسحر وإحضار الأرواح، وأنه أحضر روح أبيه وسأله عن  
الأحوال في العراق، وأن الشيخ أجابه أن الحرب ستنتهي في الثاني عشر من تشرين الثاني، وأنه  
كان شاعر الكلية الأول وينوي بعد عودته إلى العراق إصدار ديوانه الشعري الأول، وأن زوجته  
تقهم أوامره من نظرة عينيه، وتقف أحيانا مرتجفة أمامه تتلقى صفعاته برضا، ولولا وقوعه في  
الأسر لأكمل بناء قصر فخم في حي التجار ببغداد، وأنه بسبب تواضعه وخوفا من الإيرانيين لا  
يستطيع الكشف عن منصبه الخطير ولا عن درجته الحزبية الرفيعة المهمة.»

قلت: « لعله كان يمزح معهم أو لمجرد الحصول منهم على سجانر، لو أن أقواله وصلت إلى  
الإيرانيين فسيرسلونه إلى طهران ليعذب ويدفن هناك، هل حاولت نصحه؟»  
« أخبرته بكل شيء، وكان جوابه أن الظروف هنا تتطلب ذلك، أعرف زيني منذ عام تقريبا،  
وأعرف أنه طفل كبير وأنه طيب جدا وكريم ومشاكله مع زوجته مستمرة لكنه متعلق بطفليه،  
وسبب المشاكل، كما أعتقد استنتاجا من بعض ملاحظاته، أن زيني كان مدمنا على المقامرة فمن  
المراهنة على خيل السياق إلى صراع الديكة إلى لعبة الدومينو، ولعل زوجته اكتشفت ذلك. عيبه  
الآن المغالاة إلى حد الكذب.»

عاد زيني بعد قليل إلى مكانه بيننا، قلت له مازحا: « تصورتك قد قاطعتنا.»  
يجيب زيني قاطعا سيجارة إلى نصفين، متبرعا لي بواحد منهما: « إلى أين أولي إذا قاطعتكما؟»  
حاولت تغيير مسار الحديث: « هل ننتظر معجزة ما للخلاص من هذا الجحيم؟»  
علق القيسي متفائلا: « لا يمكن أن تستمر الأحوال على ما هي عليه، يقولون كلما ضاقت فرجت.  
ما علينا إلا الصبر.»

« لا يا أحمد، الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. أتمنى إرسال رسالة واحدة فقط ليعلم الأهل أنني  
أسير. أنا قلق على مستقبلنا هنا، الوضع الآن ليس سيئا، لكننا لا نعرف ما تخبئه الأيام المقبلة. هل  
من أخبار جديدة؟»

دارى القيسي قلقه بقهقهة قصيرة: « لا شيء يدعونا للخوف، ليس هناك أسوأ من الموت، ونحن  
الآن في عداد الأموات، وربما أقاموا لنا في العراق مجالس الفاتحة. علمت أن اثنين من الأسرى  
يخفيان جهازي راديو، وبدلا من الاستماع إلى ما تقوله الإذاعات عن الحرب ونهايتها، يفبران  
الأخبار كل صباح بعد أن ينصتا ليلا لأغاني أم كلثوم.»

ضحك طويلا قبل أن يواصل كلامه: «هل تتذكران ما تناقله الأسرى بعد مؤتمر القمة العربية  
قبل أسبوعين؟ قالوا إن الأسد وصدام وأثناء مصالحتهما تعانقا طويلا قبل أن يغرقا في بكاء  
طويل.»

« لو اكتفوا بالمصالحة لصدقناهم، ولكن، لماذا البكاء الطويل؟ »

ربت القيسي على بطنه: « هل تريان؟ ما عاد كرشي كبيرا، ألم أقل لكم إن الرياضة مفيدة؟»  
كان كرشه قد انخفض كثيرا: « صحيح، لكن ليس بسبب هرولتك اليومية بل بسبب الجوع.»  
« إلى أين وصلت بتعلم الفارسية؟»

« في تطور مستمر. حفظت الكثير من مفرداتها.»

« لا بد أن نشغل الوقت بشيء مفيد، سأحاول أنا أيضا حفظ بعض المفردات المهمة، ومن حسن الحظ أنهم يبيثون برامج الأطفال في التلفزيون كل يوم، وهكذا نستطيع أن نتعلم المزيد من المفردات من تلك البرامج.»

قال زيني وكأنه لم يسمع حديثنا: « يخطر في بالي أحيانا أن الحرب ستطول وعندما نعود لا يتعرف علينا أحد.»

نظر إلى أحمد القيسي مبتسما: « حكايتي هذه لا مبالغة فيها ويمكنك بعد عودتنا، إذا عدنا، أن تسأل أمي عن تفاصيلها، فقد كانت تحدثني كثيرا عن خالها الذي زجه العثمانيون في ( السفر بر)، ضموه إلى وحداتهم على حدود روسيا وانقطعت أخباره. حين وقع أسير بيد الروس أخذوه إلى أحد سجونهم في مدينة بعيدة. وعندما انتهت الحرب أطلق الروس سراحه، راح يعمل حمالا ليدبر قوت يومه، ثم بدأ مسيرته نحو العراق عبر إيران، يعمل أو يشحذ في كل قرية أو مدينة يصلها، واستطاع أن يدخر بعض المال، وبعد غياب سنوات طويلة وصل العراق، لكن أثناء قطعه الطريق بين بعقوبة وبغداد مشيا على الأقدام، سلبه قطاع الطريق ماله وملابسه وأبقوه عاريا تماما، فلجأ المسكين إلى ستر عورته بالأشواك قبل أن يتصدق عليه أحد القرويين بعباءة بالية. وصل بغداد منهكا يثير فضول الناس بعريه الذي لا تغطيه سوى عباءة هزيلة، ولحيته الطويلة التي تغطي صدره، وعندما طرق باب بيته عند الغروب فتحته امرأة ما لبثت أن صرخت خائفة، فتجمع الجيران حوله متهمينه بالجنون، غير أنه أصر على مقابلة زوجته فتحية وأخبرها أنه زوجها فلان، لكنها لم تصدقه ووعده أنها ستعطيه طعاما وملابس ليواصل بحثه عن أهله. أخيرا، حدثها هامسا عن ليلة الزفاف فصدقته. يبدو أن عليّ تذكر ليلة عرسي دائما.»

يغرق زيني في ضحكة طويلة: « أتصور النادبة في عزائي وهي تعدد مناقبي واصفة إياي بالبطل الهمام الذي أذاق الأعداء مرارة الهزيمة، وبأنني الفارس الذي لا يشق له غبار، والمصيبة أن زوجتي تصدق ذلك فتلطم وجهها حزنا وكمدا.»

انتصب أمامنا جندي إيراني صارخا فينا أن نسرع إلى قاعتنا. يردد زيني ونحن نهول: «بدأت المصائب.»

كان الجنود موزعين أمام القاعات وعند الممر. وجوه الأسرى تتطق بالخوف والهلع ويتجمع بعضهم عند الشبابيك المطلة على الساحة، والبعض الآخر يقف بجانب سريره منتظرا صفارة التجمع. همس سيد مهدي في أذني بصوت مرتجف: « يقولون إن العقيد « شريف عسكري» قد وصل المعسكر. إنه جلد وقاتل، يتحدث العربية واللهجة العراقية بطلاقة.»

صاح أسير عند الشباك مراقبا الساحة: « لا أرى شريف عسكري. نائب الضابط اعتمادي ومعه عدد من الجنود يحملون الهراوات.»

ارتسمت الفرحة على وجوه الأسرى القدامى، لكنني أدركت الآن مبلغ خوفهم من ذلك الجراد على الرغم من كل حكاياتهم عن بطولة مبالغ فيها كانوا لا يملون تكرارها على أسماعنا.

صاح الأسير المراقب بذهول: « أسمع صياح الجنود وصراخ الأسرى، إنهم يضربون الأسرى في القاعة الأولى، استعدوا للضرب.»

أسرع القدامى بارتداء كل ما يملكون من أسمال تحت ملابسهم الخشنة لتخفيف وقع السياط، لكن الأسرى الجدد لا يملكون غير البذلة الخشنة الهزيلة.

أرتجف الآن كما يرتجف الآخرون، ربما أرتجف أكثر منهم، لعلمي أجهل القدرة على إخفاء هلعي، أو لأنني لم أتلق ضربا مبرحا في حياتي. جلس زيني على فراشه واضعا خده على قبضة يده اليسرى، أما القيسي فوقف في الممر بين الأسرة محركا ذراعيه إلى الأعلى والأسفل، يخاطبني ضاحكا: « وليد، التمارين السويدية تقلل من دماء المعركة.»

صاح الأسير المراقب مذعورا: « انزلوا من أسرتكم، وصلنا الدور.»

اقتحم الجنود القاعة والهراوات والسياط تهتز في أيديهم مثل كلاب صيد شرسة مدربة تحاول التخلص من لجامها لتتقض على الفريسة. دخل اعتمادي ببذلته العسكرية ذات اللون الأخضر الفاتح وببيريته التي تشبه بيرية الجنود الأميركيين، كانت هيئته توحى بمهنة الجراد، وجهه النحيل ووجنتاه البارزتان وعيناه الغائرتان وأنفه المدبب. مشى ببطء في الممر الكبير وسط القاعة، شابكا يديه على مؤخرته الضامرة، ضاربا الأرض الكونكريتية بحذائه الأحمر اللامع فيتردد الصدى في رؤوسنا، دافعا إلى الأمام صدره الضيق المنفوخ بجيبين كبيرين فبدا مثل ديك هراتي يبحث عن منازل في حلبة صراع. عندما وصل نهاية الممر، استدار بحركة رشيقة صائحا بلهجة أمرة: « حميد.»

تقدم (أرشد القاعة) حميد مؤديا التحية العسكرية بضرب نعليه على الأرض بصوت مسموع. اخرج نائب الضابط من جيب صدر بذلته صورة مقطعة من جريدة ورفعها عاليا ليراها الجميع، أمرا «الأرشد» بترجمة ما يقوله حرفيا.

قال بصوت عال: « هل تعرفتم على هذا الأسير في الصورة؟ هل سبق لكم أن رأيتموه في معسكر آخر أو أنه انتقل إلى معسكر آخر؟ إنه مطلوب للإدلاء بما لديه من معلومات مهمة خطيرة، القيادة تنتظر منا الجواب، فيجب أن تتعرفوا عليه، وأنا أنتظر الجواب الآن.»

وضع الصورة في يد حميد ليعرضها علينا. الصورة غير واضحة وتكاد ملامحها تتطبق على أي واحد منا. يهز الأسرى رؤوسهم بالنفي. أوما اعتمادي برأسه إلى ثلة الجنود الواقفين وراءه. الهراوات و السياط راحت تعلق وتهبط وهي تلهب الأجساد شبه العارية. تناوبت أنات خافتة وكلمات توجع، تصاعدت الآن إلى صرخات ألم وتوسل. أرى القيسي يتلوى قافزا من ضربات السياط، أما زيني فصراخه يصم الأذان، يهز ما تبقى عندي من ثبات وأنا أقف منزويا في ممر ضيق بين طوابق الأسرة، انتبه أحد الجنود لوجودي فقفز نحوي ساحبا إياي من ياقة بذلتي إلى الممر الكبير، انهال علي بالضرب والصفعات والرفس، وكلما أبتعد عنه يسحبني من ذراعي بعد أن تمزقت ياقتي ليعاود لكمي ورفسي. لا توجعني الضربات كثيرا، لكنني كنت أخشى أن تتلفقني السياط، شعرت بدوار وفقدت القدرة على الوقوف وحفظ توازني فسقطت على الأرض لتداولني

أحذية ثلاثة من الجنود بالرفس والركل. عبر غشاوة مسدلة على عيني، رأيت شبح اعتمادي ينحني عليّ، يقترب من وجهي، فأحسست بأنفاسه اللاهثة المشبعة برائحة الثوم، صفعني بقوة، فتح فمه على سعته فظهرت أسنانه ناصعة البياض، بصق عليّ فشعرت ببرودة رذاذ بصاقه، أمسك بتلابيب بذلتي المتهرئة رافعا رأسي إلى الأعلى ثم أرخى يديه تاركا رأسي يصطدم بالأرضية الكونكريتية.

أيقظتني هزات خفيفة من يد أحدهم. فتحت عيني فرأيت اعتمادي واقفا بجانب سريري ينظر إليّ من دون أن يلوح على وجهه انفعال أو عاطفة، وخلفه وقف حميد ناظرا إليّ بعينين تفيضان قلقا ومواساة، بينما تناهت من الساحة أصوات الأسرى مرددة «أمين» بعد كل عبارة تدوي بها مكبرات الصوت في دعاء مراسيم الصباح. شعرت بلسعات وحرقة في وجهي وصدري وظهري وذراعي وساقِيّ، كان كل جسدي ينبض بالوجع. مررت يدي على رأسي الثقيل فلمست عصابة مشدودة بعناية. تهتد اعتمادي متحسرا، وعيناه تتفقدان ترتيب البطانيات والأسرة: « اسمك وليد ناصر، أليس كذلك؟ كيف حالك الآن يا وليد؟ أتمنى أن نومك البارحة كان جيدا. لقد أمرت الجنود أن يبقوك في القاعة أثناء مراسيم رفع العلم والدعاء والتعداد الصباحي.»

نظر إليّ قائلا بلهجة توحى بالعتاب والشفقة: « كان عليك الصمود وعدم السقوط على الأرض، فالجنود يظنون، وهم أحيانا على حق، أن من يسقط على الأرض يفعل ذلك متعمدا للنجاة من العقوبة. لا بديل عن العقوبة الجماعية. هل تعتقد أنه من السهل عليّ تعذيب الآخرين؟ كيف يمكن الحفاظ على النظام من دون عقوبات؟ لا شك أنك حاقد عليّ، أليس كذلك؟ لو كنت مكانك لكنت كذلك، أنت أيضا لو كنت مكاني لفعلت ما فعلته. تنتهي هذه الحرب يوما ما وتعود إلى وطنك، وربما نلتقي يوما في النجف أو كربلاء أو الكاظمية أو ربما في مشهد.»

لاحت على ملامحه الحادة القاسية ابتسامة عريضة: « لو التقينا حينذاك، هل كنت تلاحقني لتعزز سكيننا في ظهري؟»

لم يخطر في بالي أي جواب، ولعله لم ينتظر جوابا مني، فمد يده في جيب سرواله وأخرج علبة سجائر علامة « بهمن» المعروفة بنوعية تبغها الفرجينى المستورد، دسها تحت قطعة الإسفنج التي أتوسدها. ربت على كتفي واستدار مغادرا القاعة بخطوات منتظمة دافعا صدره إلى الأمام.

بدأ الأسرى من جميع القاعات بزيارتي بعد صلاة الظهر وتناول الغداء، حتى إن الأسرة المجاورة اكتظت بالزائرين الذين أثنوا على شجاعتي وقوة تحملي. أثار هذا الاهتمام استغرابي وحيرتي، قلت لبعضهم إن اعتمادي جاءني فقط ليطمأن على أن إصابتي ليست خطيرة تهدد وظيفته، لكن لا أحد يصدق قولي معتبرين كلامي من باب التواضع. قال لي أحدهم: « أحسنت يا صاحبي، هكذا تكون الرجولة أيها البطل.» أدرك الآن أن من العبث مواصلة الاعتراض.

قال لي «مطروود» وهو شاب بدوي، هامسا: بارك الله فيك يا وليد، لقد رفعت هاماتنا عاليا حين تحديت اعتمادي، وقد وددت تقديم هدية لك ولكنك تعرف الحال، غير أنني أعدك بناقتين عندما تنتهي الحرب ونعود إلى ديارنا.»

دنا من أذني أكثر حتى لامست شفتاه شحمتها: « أرجو أن لا تحرمني تركيتك في العراق.»

استقرتني كلماته وودت أن أزجره وأوبخه، لكنني سامحته بسبب سذاجته وبساطة تفكيره.

اكتشفت عند المساء أن مبعث ذلك الاهتمام يعود إلى تصديق الجميع الرواية المنقولة عن حميد الأرشد، والتي قالت إن اعتمادي قد رجاني أن ألترم الهدوء ولا أقود عصيانا، وإن حميد شهد بعينيه أن اعتمادي أعلن ندمه على ضربي متعهدا بعدم ضرب أي أسير بعد اليوم.

دافع حميد عن روايته: «لا بد من رفع معنويات الأسرى.» ولمرضاتي، نقل فراشي إلى سرير في الطابق الثالث قريب من شباك صغير يطل على الساحة. أدركت أن عبارات الأسرى ومشاعرهم كانت تعويضا لعجزهم عن فعل شيء، وهذا ما كنت أفعله أيضا، وها هم يدفعونني، بحسن نية، إلى القائمة السوداء التي قال عنها فتحي إنها تضم أسماء عدد ممن يعتبرون أنفسهم أبطالاً. هنالك أبطال حقا، لكنني لست واحدا منهم ولا أعتقد أنني سأكون. لعنت تلك الليلة وعلبة «بهمن» والبطولة المزعومة.

\* \* \*

أصبح النوم في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) أكثر صعوبة عن ذي قبل، فالأسرى يظلون طوال الليل، حتى وهم نيام، يهرشون بطونهم وأفخاذهم. أصابني الحكة أيضا، فكنت أحك بطني حتى أكشط محل الحكة بأظفري، لكنني أحمد الله أن حالتي كانت أخف وطأة مما أصاب أحد الأسرى الذي كان يحك الحبة الحمراء أمامنا حتى يكشط غطاءها فتتطير منها حشرة صغيرة. تزداد الشكوى، فيأتي الإيرانيون بطبيب هندي إلى المعسكر، ويكتشف أن الأسرى جميعا مصابون بحساسية جلدية سببها مياه البحيرة الراكدة مخلفة حبيبات حمراء في المناطق الحساسة من الجسم، فيقرر منع الاستحمام حتى تأتي الأدوية اللازمة من طهران، ويتطلب ذلك الانتظار شهرا أو شهرين.

غزانا القمل هذه المرة ووضع بيضه على الشعر وفي نسيج ثيابنا التي لا نملك غيرها، نراه على الوسائد والأغطية ونرى أسرابه تدب بنشاط على الجدران. اكتشفت أنواعا من القمل تختلف أشكالها وأحجامها باختلاف المنطقة التي تعشش فيها، كنت قد قرأت ذلك في الكتب المدرسية لكن لم يسبق لي رؤيتها كلها على الطبيعة، فقملة الرأس أرشق من قملة الجسم التي هي أكبر بطنا، وقملة الإبط أصغر حجما وأقل لسعا، واكتشفت أيضا أن القمل يغادر جسم الإنسان عند إصابته بالحمى.

قبل ليلتين، عانيت طويلا من الحساسية ومن لسعات القمل، وبقيت أحك رأسي وكل جسمي حتى تعبت يدي وثقل نعاسي، وما إن غفوت قليلا حتى أيقظني شخير الأسير الذي ينام في السرير الذي تحتي في الطابق الثاني من الأسرة. كان يطلق شخيرا عاليا متقطعا يعقبه بصفير طويل قبل أن يعاود الشخير المتقطع. كان عليّ فعل شيء لوقف شخير مده قصيرة تسمح لي بالنوم. كان رأس ذلك الأسير متدلليا على حافة السرير، فوجدته هدفا مناسباً للقصف، فمددت يدي إلى إبني وانتزعت من شعراته قملة ألقيتها عليه، لكنه لم يتحرك ولم ينقطع الشخير، فواصلت المهمة منتقلا إلى إبني الآخر لأستل من شعراته قملات أخرى، وتم إيقاظه بعد أن أسقطت عليه خمسين قملة.

يرصد عدد من الأسرى من مواقعهم في الطابق الثالث من الأسرة مرور الجندي الحارس الذي يتجول بين الأسرة ليلا، فيسقطون بدقة عالية قملات بين رقبتة وياقة بذلته، وبعد لحظات يبدأ الحارس بحك ظهره وصدره فيترك القاعة راكضا، وتتكرر الحكاية مع الجندي الذي يحل محله، يحدث ذلك في ليلتين متتاليتين، وأخيرا قرر الإيرانيون إغراق أمتعتنا وأجسادنا العارية بمبيدات الحشرات، وتصلنا قناني الدواء التي نتهافت عليها خاصة أنها تحتوي على مادة مخدرة وإن كانت قليلة لكنها تساعدنا على النوم دون حكة أو كوابيس.

تطلعت في الليل إلى الساحة الغارقة بالأضواء الكاشفة شاغلا نفسي بالأحلام والأمنيات المستحيلة. سألت زيني الممدد على السرير المجاور: «هل تعرف إدغار آلان بو؟»

تظاهر بنبش ذاكرته: «يببدو هذا الاسم مألوفا، ما به؟ هل كان أسيرا؟»

«لا، إنه شاعر وكاتب من القرن التاسع عشر، لكنني تذكرت مقطعاً من إحدى قصصه. يقول إن الذين يحلمون في النهار يدركون العديد من الأشياء التي تهرب من أولئك الذين يحلمون في الليل،

في رَأهم الرمادية في اليقظة يحصلون على لمحات الخلود والإثارة ليجدوا أنهم موجودون على حافة السر العظيم.»

رفع زيني رأسه باستغراب مشوب بالسخرية: «وهل رأيت حلما الآن؟»

«نعم، أرى طائرة مروحية عراقية تتسلل عبر تلك الجبال البعيدة، تتجه نحونا، تقترب أكثر، وها هي تحط وسط الساحة وينزل الطيار منها ويقترّب من الشباك أمامي مشيرا إليّ بالخروج متعللا بالذهاب إلى دورة المياه، تتجح الخطة وأخرج إلى الساحة وأصعد معه الطائرة التي تنطلق الآن فوق الوديان تجنباً لأجهزة الرادار متجهة إلى العراق.»

التقت إلى صاحبي فوجدته مقطب الحاجبين، قال معاتباً: «هل وصلت بنا الأناية حدا ننسى معه إنقاذ الآخرين؟ لماذا لم يخطر في بالك اصطحابي إلى الطائرة؟»

تدارك حاله، فقال باسمًا: «لا تتسني في أمنياتك مرة أخرى.»

أجبتّه مواسياً: «لن أرتكب هذا الخطأ الفادح مرة أخرى.»

في اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)، وفي ساعة القيلولة بعد أن أنهكنا كنس التراب من الساحة الترابية، فتلك عقوبة جماعية يومية غايتها إشغال الأسرى وإنهاكهم، انطلقت صفارة التجمع فبدأ التشاؤم والتخمين، فمن قائل إن ضيفا مهما سيزور المعسكر، بينما يؤكد قائل آخر أن الإيرانيين تكبدوا خسائر كبيرة في معارك شرقي البصرة والآن يريدون الانتقام منا، ومنهم من قال إن ضابط الاستخبارات الجديد الذي أخبرونا عنه قد وصل. جلسنا على التراب والحصى وشمس الظهرية تحرق رؤوسنا، وكنت أرى البخار يتصاعد من أجساد الجالسين أمامي. تقدم العريف فتحي بكرشه الضخم المتهدل وخلفه ثلثة من الجنود وأفراد الانضباط ومعهم أكياس كبيرة فارغة، وقف على منصة العلم في مقدمة الساحة وراح يعطس ويمسح أنفه بقطعة قماش قذرة، أخبرنا أن أحد الأسرى، وسيكتشفه أجلا أم عاجلا، وبعد غروب الشمس يوم أمس، أعطى أحد الحراس مبلغا من المال مقابل أن يأتيه براديو صغير، لكن الحارس الشهم، كما وصفه فتحي، أخذ الريالات الإيرانية وأبلغ عن ذلك الأسير الذي لم يتبين ملامحه جيدا. أمرنا العريف لاهثا بالبقاء واقفين في أماكننا موعزا إلى جنوده بتفتيشنا جيدا. عثر الجنود على نقود وعملات ورقية عراقية وإيرانية وعلى ساعات يدوية، وهي أيضا من جملة المقتنيات الممنوعة، فنشوا القاعات، وبعد ساعتين غادر فتحي وخلفه عدد من الجنود يحملون الأكياس التي انتفخت بمحتوياتها، لكن الجنود الآخرين بقوا لمراقبتنا. ركض جنديان إلى الساحة يسألان عن فوزي، وعندما تقدم نحوهما، استقبلاه بالضرب قبل أن يدفعاه نحو الباب النظامي حيث مقر الإدارة. عاد فتحي لاهثا وبخطوات بطيئة كغوريلا أنهكها التعب، يرافقه مسؤول العقيدة السياسية الشيخ المعمم محمود سعدي، وخلفهما جنديان يجران فوزي من ذراعيه. لم أستبعد، بما أعرفه عنه، أنهم عثروا عند تفتيش حاجياته على نقود أو قطعة ذهبية أو جهاز راديو. رماه الجنديان عند قدمي فتحي الذي ركله مناديا على الأرشد العام شيركو، وهو أسير عراقي كردي برتبة نائب ضابط ليتولى الترجمة، أما الشيخ سعدي فقد وقف عاقدا ذراعيه على صدره متطلعا إلى أعالي الجبل متحاشيا نظرات العريف فتحي، غادر المكان فجأة من دون أن يتقوه بكلمة واحدة. تلفت فتحي حوله محاولا إخفاء حرجه، فتحدث متمهلا بحثا عن الكلمات المناسبة: «نحن هنا في إيران حيث تطبق الشريعة الإسلامية فلا محل للفسق

والفجور والحرام، ألم تسمعوا ما ورد في القرآن المجيد؟ إنما الخمر والميسر والغناء رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه.»

همس شيركو في أذنه، فضحك فتحي قائلاً: «صحيح، لم ترد كلمة الغناء في القرآن، لكني أعرف أن الإمام يقول في رسالته الفقهية أنه حرام، والاستماع إليه حرام وسماعه حرام، والموسيقى إذا كانت بقصد الطرب فهي حرام، والشعر الماجن حرام ومنه كلمات الأغاني فهي حرام.»

أمر فتحي الجنديين الواقفين بكشف ظهر فوزي فظهرت آثار السياط متقاطعة عليه، واصل فتحي كلامه وهو يسحب ورقة من جيبه: «ارتكب هذا الأسير معصية كبيرة فاستحق العقوبة، فقد وجد جنود الإسلام تحت وسادته هذه الورقة التي كتب عليها هذا المذنب كلمات أغنية «انت عمري»، وكانت عقوبته ثلاثين جلدة، فإياكم وارتكاب مثل هذه المعصية.»

حين انطلقت الصفارة وتفرقنا، وجدنا أمتعنا وفراننا مبعثرة، واكتشفت أن دفترتي الصغير قد اختفى من تحت وسادتي، فبدأ قلقي، ناولني زيني سروالا أو بقية سروال لألبسه تحت سروالي ليخفف قليلاً من أثر السياط والركلات بينما نصحني القيسي أن أحافظ قدر ما أستطيع على رأسي ووجهي.

وجدت صعوبة في ابتلاع حبات الفاصوليا القليلة السابحة في الوعاء في وجبة العشاء، فقد كان ذهني مشحوناً بصورة السياط وأزيزها، مع أنني لم أكتب شيئاً في دفترتي الصغير مخالفاً للشرعية والقانون، لكن الإيرانيين لا يحتاجون إلى سبب أو مبرر للضرب أو حتى القتل.

شعرت ببعض الطمأنينة حين أغلقت الأبواب في التاسعة مساءً، لكن سرعان ما دخل جندي يردد اسمي، وما إن اقتربت منه حتى بدأ ضربني وركلي طوال الطريق من القاعة إلى غرفة ضابط الاستخبارات مروراً بالساحة والممر المؤدي إلى الباب النظامي.

كان الضابط جالساً وراء طاولته الصغيرة المتواضعة، ينظر بغضب إلى الأسير الواقف أمامه النائب ضابط غالي أو سيد غالي كما يناديه الأسرى، أو «مطرب القوات المسلحة» كما يحب أن يلقبه الآخرون، وهو في أواسط الأربعين من العمر، طويل القامة، ضخم الجسم، رقيق إلى درجة البكاء إذا ما استقره أحد الأسرى أو هدده عسكري إيراني، ويرتدي سروالا مرقعاً يصل إلى ما تحت ركبتيه بأربعة أصابع، وإلى جانبه وقف الأرشد العام شيركو متولياً الترجمة. وقفت جانباً منتظراً دوري.

سأل الضابط متوتراً: «أين كنت عندما تحدث الشيخ سعيدي هذا اليوم؟»

أجاب غالي متلعثماً: «أنا دائماً أستمع إلى حديثه وتوجيهاته الأبوية، كلامه ذهب مصفى، لكن الشيخ لم يتحدث هذا اليوم.»

استدرك الضابط قائلاً: «لا يهم من تحدث، فكل المسؤولين هنا يعملون بتوجيهات الإمام، ولا بد أنك قد رأيت كيف جُلد ذلك الأسير لأنه كتب أغنية، فماذا ستكون عقوبتك؟»

انخرط غالي بالبكاء، قال متوسلاً: «أغاً، لم أفعل شيئاً، صدقني.»

«كنت تغني، وهناك من يشهد على ذلك.»

«صحيح، أنا أفعل ذلك كلما سنحت لي الفرصة.»

قفز ضابط الاستخبارات من مكانه واقفا، رافعا رأسه نحو غالي: «تعترف بذنبك وتتوي ارتكابه مرة أخرى؟»

ارتعد غالي فعاود البكاء بصوت عال، جلس الضابط على كرسيه، صارخا في وجه غالي أن يكف عن البكاء ويجيبه. أجاب غالي بصوت تخنقه العبرات: «أغا، الغناء بالنسبة لي مثل الهواء والماء، أنتفس بالغناء، يمكنني الصبر على الماء والطعام، لكنني لا أصبر طويلا عن الغناء.»

وضع الضابط مرفقيه على الطاولة وشبك يديه، ينظر إليّ بطرف عينيه ثم يلتفت إلى غالي: «إذا كنت من سلالة النبي، كما تدعي، ما الذي دفعك إلى هذا الفعل الحرام؟»

تنهد غالي وقد اطمأن قليلا: «أغا، إنها قصة طويلة وأخشى..»

يتراجع الضابط بكرسيه إلى الوراء باسماء: «ارو القصة ولك الأمان.»

«أغا، أقسم بحق القرآن الذي نزل على صدر جدي رسول الله إنني سأحكي القصة كما هي دون زيادة أو نقصان. منذ طفولتي وأنا أحب الغناء ويسحرنني الصوت الجميل، كنت وأنا صغير أقلد المغنين من أبناء العشيرة الكبار، وكنت أتبعهم ليلا بلا خوف من خنازير برية أو كلاب مسعورة، حتى وصولهم إلى كوخ في أطراف القرية يتتأوبون فيه الغناء، وعندما كنت في السادسة عشرة، ذاع صيتي بين العشائر والقرى الأخرى، وما من عرس أقيم في تلك القرى إلا وكنت المغني المغرد فيه، وكانت الدنيا تزهر بعيني وأنا أرى الصبايا يختلسن النظر من بين عيدان القصب ويهزرن رؤوسهن طربا ويرددن كلماتي. كان أبي يتطأير من الغناء وطرمني من البيت عدة مرات، وذات مرة حرق ظهري بضربات عقاله الغليظ، لكن ذلك لم يؤثر فيّ، وظن الوالد السيد، الله يرحمه، أن وراء كلمات الحب التي أغنيها قصة عشق، فقرر، وكنت وقتها ابن الثمانية عشرة عاما تزويجي ببنت عمي، فحلفت له إنني أعشق الغناء غير أنه أقسم يمينا إذا لم أتزوج فسيعلن براءته مني، فرضخت، وكان التحاقني بالخدمة العسكرية فرصة للابتعاد عن البيت ومسؤولياته وعن أوامر أبي. أمضيت ثلاثة أشهر في المعسكر وكأني محبوس فيه بعد أن تعودت على الغناء في فضاء واسع وفي حقول خضراء على امتداد البصر وعلى جرف الأنهار وأثناء التجديف في مياه الهور؛ حيث كنت أسمع الصدى يردد أغنياتي، فضاقت نفسي ونويت الفرار من الجيش، وصادف أن سمعت من الجنود أن العجر أقاموا مخيما يبعد عن المعسكر مسافة أربعة كيلومترات، فهربت ليلا نحو المخيم، وعند أول خيمة، تلقاني رجلان عرفتا أنهما من العجر، فسألتهما: ما صنعتكما؟ فقالا الغناء، فعانقتهما بلهفة قائلا: كيف حالكما يا أخوي العزيزين؟»

ضحك الضابط ضحكة طويلة فانشرح قلب غالي وقد اطمأن تماما إلى سلامته من العقوبة هذه الليلة. يشير إليه الضابط بيده، ليواصل غالي قصته.

«كانت أياما ممتعة تلك التي قضيتها معهم، كنت أشاركهم في الغناء والرقص والعزف على الربابة والضرب على الطبل وإعداد القهوة. أعجبتني غجرية منهم بحسنها وجمال صوتها، عندما كانت تغني أشعر أنني في دنيا غير هذه الدنيا، كأني كنت أطيّر في الهواء، نويت أن أتزوجها لأظل طول العمر أغني لها وتغني لي، لكن بعد شهرين قرر العجر الانتقال إلى مكان آخر، فشاركتهم لف الخيام ورفع الأوتاد ووضع الأحمال على الحمير، وعندما كانت القافلة تسير في طريق ترابي مواز لشارع خارجي، مرت بقربنا سيارة جيب عسكرية، لكنها سرعان ما رجعت

إلى الوراثة وتوقفت قريبا مني ونزل منها ضابط برتبة عقيد ركن، فأشار إليّ أن أتقدم نحوه، فقال قبل أن أقترّب منه كثيرا: « لم أسمع طوال حياتي أن العجر مشمولون بالخدمة العسكرية. ما زلت ترتدي البذلة العسكرية، هل أنت هارب من الجيش؟»

أديت التحية قائلا نعم سيدي، فأمرني بالصعود في السيارة، فنظرت إلى العجر بحزن ولوحت لهم بيدي. كنت أبكي بصمت، وعند بوابة المعسكر، أمر العقيد الركن الحراس باصطحابي إلى السجن، وهناك فرغت حزني بالغناء، فكنت أغني في الليل وفي النهار، وحراس سجن المعسكر يأتون إليّ بأطباق الرز ولحم الزند والحلوى من أجل المزيد من الغناء، وبعد أسبوع استدعاني أمر اللواء العقيد الركن الذي خطفني من أحبتي العجر.

قال الأمر: يقول الحراس إنك ذو موهبة ممتازة في الغناء، وعليك أن تثبت هذه الموهبة مساء غد، فستقيم الفرقة الثالثة احتفالا كبيرا بمناسبة الذكرى الأولى لثورة الرابع عشر من تموز، وأتمنى أن ترفع هاماتنا أمام السيد قائد الفرقة. اذهب الآن واستحم واستعد.

حين رأيت المسرح الكبير الغارق بالأضواء، والضباط الكبار الجالسين في الخطوط الأمامية والنجوم تلمع على أكتافهم، وخلفهم جمهور كبير من الجنود، شعرت بالتردد، لكن ما إن بدأت الغناء حتى نسيت نفسي، تصورت أنني أغني هناك جالسا على جرف النهر مسندا ظهري إلى نخلة وتتردد في مسامعي صيحات إعجاب الصيادين العائدين بقواربهم المليئة بسمك البني والقطان، وعندما انتهت فقرتي، طالبني أمر الفرقة بالمزيد من المواويل والأغاني الريفية، وأوعز بتريقي إلى جندي أول، وبعد ستة أشهر طلب أمر الفرقة مشاركتي في الاحتفال السنوي بعيد الجيش، ومُنحت رتبة نائب عريف، عندها منحني أمر اللواء إجازة طويلة لأرى أهلي، أهلي الحقيقيين أعا، وليس العجر، فاستقبلوني بحفاوة وشوق، ورأيت طفلا جميلا في أحضان زوجتي سماه جده (خالد)، وهو الآن ما شاء الله شاب عمره عشرون سنة، الله يستر عليه ويحفظه، وعنده صوت ساحر، يقلدني بالضبط، وهكذا وبسبب الغناء وصلت إلى رتبة نائب ضابط، وتقلت بين معسكرات مدينة بغداد، فحفلاتي الليلية كلها في منطقة الثورة ببغداد حيث أقيم ويعرفني الناس، وعندما قامت الحرب التي قطعت أرزاق الناس وقتلتهم، ولسوء حظي، اختارني الأمر الجديد مرافقا له ظنا منه أن ضخامة جسمي وطول قامتي ستحميانه وهو لم يدرك إذا وقفت قطة في طريقي، فإني أبحث عن طريق آخر خوفا منها. كان الأمر شجاعا يتقدم الجنود في القتال، وكما شعر في الليل بالوحدة والضجر، يأمر مراسله بإعداد العشاء ويستدعيني لأتغشى معه ثم أغني له وكان يفضل المواويل والمحمداوي، فينسى همومه. وفي معركة عبادان توصلت به أن ننسحب، لكنه أصر على البقاء فاستحيت أن أنسحب وأتركه، وكانت القذائف تتساقط على قاطعنا كأنها المطر، وعندما أفقت من غيبوتي، وجدت الجنود الإيرانيين حولي، وكان الأمر على بعد أمتار مني وقد مزقته إحدى القذائف. هذه هي قصتي مع الغناء، أعا، إذا لم أغن تنفجر رثتي.»

قهقه الضابط قبل أن يعتدل في جلسته: « سيد غالي، سامحك هذه المرة، فالغناء حرام وليس هناك استثناء في الحرام والممنوع. لا تكرر ها ثانية.»

خرج غالي فرحا وهو يعصر يديه، وتقدمت قليلا نحو الطاولة. قلب الضابط وريقات دفترتي الصغير، نهض من مكانه وخرج من وراء الطاولة ليصفعني بالدفتر صارخا: « ما هذه الكلمات الإنجليزية؟»

أجيبه مرتبكا: « مصطلحات عامة كتبتها لكي لا أنسى اللغة الإنجليزية ولأشغل فراغي بها. »  
استقرته كلماتي فصرخ من جديد: « هذه لغة الاستكبار، لغة الشيطان الأكبر، لغة أعداء الإسلام،  
وإذا كان عندك فراغ فلماذا لا تقرأ القرآن وتدقق في معانيه وتطلع على تفاسيره؟ »  
« أعا، أقرأ القرآن ليلا ونهارا. »

نظر في الدفتر وجحظت عيناه: « ما هذا؟ كلمات فارسية؟ هل تريد تعلم الفارسية لكي تهرب من  
المعسكر؟ »

قبل أن أجيب، صفعني بقوة هذه المرة، فتراجعت إلى الوراء، لحق بي وضربني فسال الدم من  
أنفي، مسح شيركو الدم بطرف قميص بذلتي هامسا: « قل له أتعلم الفارسية لأفهم خطب الإمام  
الخميني وأحاديث المسؤولين الإيرانيين. »

استدار عائدا إلى كرسيه. أخبرته بما لقنني به شيركو، فهدأت أعصابه. رفع ضابط الاستخبارات  
من على الطاولة سواكا حك به أسنانه، أعاد السواك إلى مكانه باسطا ذراعيه على الطاولة: «  
كيف أنفك الآن؟ »

أجاب شيركو: « انقطع الدم. »

قال الضابط ونظراته لا تحيد عني: « إذا كنت تقرأ القرآن وتبحث في التفاسير، فقد تكون باحثا  
عن المعرفة واكتساب المزيد منها، لكن ليس بهذه الطريقة ولا بالدفتر الصغير. دفترك الصغير هذا  
يذكرني بحكاية قرأتها ذات يوم. تقول الحكاية إن الغزالي، وكتبه في الدين والفلسفة معروفة، عزم  
على تحصيل المزيد من المعرفة والاستفادة من علوم الآخرين، فغادر مدينته طوس إلى مدينة  
نيسابور أو نيشابور حيث بقي هناك أربع سنوات يدرس على أيدي أساتذتها وعلمائها، وفي طريق  
عودته تعرضت القافلة التي كان فيها إلى هجوم من عصابة من قطاع الطرق الذين أمروا أفراد  
القافلة بتسليم كل ممتلكاتهم إلى زعيم العصابة وألا يقتلوا بعد أن تنهب أموالهم، فتكدست الأموال،  
وعندما جاء دور الغزالي، حمل كيسه الثقيل ووضعه أمام الزعيم قائلا: « هذا أثن من كل ما  
امتلكته طوال حياتي. »

فرح اللصوص وأمرهم زعيمهم بحمله ليضاف إلى الغنائم، لكن الغزالي توسل باللص قائلا: «  
هذه حصيلة أربع سنوات من التعب والجهد والمثابرة، ولا أعتقد أنها تفيدكم بشيء. »

نظر إليه زعيم العصابة متعجبا: « وماذا في كيسك هذا؟ »

أجاب الغزالي وهو يهيم بفتح الكيس: « هذه أوراق ودفاتر كتبت فيها خلاصة علمي ودراساتي  
وبحثي وما نقلته عن أساتذتي من علم وأخبار. »

يذكر الغزالي حكمة قالها اللص وظلت في ذهنه لا تفارقه، فقد قال اللص وهو يركل برجله  
الكيس بعيدا عنه: « لا خير في علم محفوظ في الأوراق والدفاتر. » فتعلم اللغات لا يكون بكتابة  
مفرداتها بل بحفظها وفهمها، قد تقع أوراقك أو دفترك الصغير هذا بيد شخص غيري فيؤذيك.  
يمكنكما الذهاب. »

تتوالى الأيام برتابة مملة قاسية، وتمر الليالي باردة طويلة موحشة، نورخ الزمن بالألم والعقوبات، نراقب دورة الأرض جياعا ذاهلين لا نستطيع فعل شيء سوى الصلاة وترديد كلمة « أمين » في مراسيم الصباح، وطرد الذباب وترقيع ملابسنا بعد وجبات الكنس والتقاط الحصى الكبيرة من الساحة، نجتر حكاياتنا عشرات المرات، لكننا في كل مرة نضيف إليها ما يستهوي السامع ونشطب منها ما يعتبره عيبا ومنقصة، وقد تولد الحكاية حكايات أخرى، وهكذا يزداد رصيدنا من أحاديث الذكريات. امتلكننا ميزة حسن الإصغاء لحكايات مكررة، فحينما يسمع أحدنا حكاية من الآخر كان قد سمعها من قبل مرات عدة، يبدو متعجبا ومندهشا وكأنه يسمعها لأول مرة وكأن الحكاية لا تخلو من غرابة ودهشة. نعيش الماضي، والجانب المضيء منه لنفقد أنفسنا بأننا عرفنا السعادة يوما ما، فنحن لا نملك إلا الماضي، وبالماضي نتعلق بالحياة، فالحاضر جحيم والمستقبل نفق يزداد عتمة.

أستعيد في وحدتي وجوه أفراد عائلتي واللحظات الأخيرة معهم. تأملت وجوه أطفالتي قبل أن أودعهم بقبل رقيقة حذرة خشية إيقاظهم من النوم في تلك الساعة المبكرة، فقد سهرت معهم حتى ساعة متأخرة، وغلبهم النوم متكئين عليّ، أخبرتهم أن « البهلول » لن يبقى إلى الأبد يعيث فسادا، ولا بد أن يأتي اليوم الذي سيرون فيه نهاية البهلول وعصابته. زوجتي التي تركتها في الشهر الأخير من حملها، قلت لها وأنا أمسح بطنها بكفي في الغبش عند الباب متأبطا حقيبتني الصغيرة: « أتمنى أن يكون المولود بنتا، فإذا تحقق ذلك، ماذا سنسميها؟ » ترد عليّ وهي تعدل ياقة بذلتي العسكرية: « سنأتي قبل الولادة، أليس كذلك؟ » أخشى البوح بهواجسي كي لا أزيد همومها، فأكتفي بإيماءة. لا بد أنها الآن تهدهد وليدها بعينين دامعتين. أتمنى أنها وضعت بنتا، لكن ما اسمها أو ما اسمه وكيف شكله؟

في الطريق إلى مصيري المجهول المعلق على النجاة بالمصادفة، أتوقف لوداع أمي وأختي، أمي المثقلة بالحزن بعد وفاة أبي، تتبني إلى الباب بوجهها المزين بالوشم وبفوطتها السوداء التي تتأثرت عليها حبات العجين، تضمني إلى صدرها فتملأ أنفي رائحة طيبة تختلط فيها رائحة الخبز والهيل والعطر الهندي وحليب الأمهات، تقبلني وتوصيني أن أكون حذرا، داعية الله بجاه كل الأنبياء والأوصياء أن يعيدني سالما من محنة الحرب. أراها الآن جالسة في ذلك البيت المتواضع الصغير في مدينة العمارة تولول بصوت خفيض باكية على كل الغائبين، وتمسح دموعها بأطراف الفوطة السوداء، وتسال عني إختي العاندين من البصرة المزكومة أنوفهم برائحة القتلى في ثلاجات المستشفيات فيهبزون رؤوسهم.

في آخر يوم من إجازتي، سقط المطر بغزارة عند الغروب، فغسل واجهات المحلات التجارية والأرصفة، فرأيت بغداد وكأنني لم أرها من قبل مدينة تنبض بالحياة، صاخبة بالأضواء والألوان والناس، الناس يتراكمون في منطقة « الباب الشرقي » بحثا عن سيارة أجرة أو شرفة يلوذون بها. أسير في شارع أبي نؤاس أتأمل واجهات الحانات المكتظة بروادها، وأشم رائحة دجلة والسّمك المشوي على الفحم غير عابئ برذاذ المطر وما ترشه عجلات السيارات من مياه البرك. أدخل حانة « القصر الفضي » فتباغتني رائحة الينسون والباقلاء وسحب الدخان وأرى أصحابي

يتطلعون إلى الشارع من وراء زجاج الحانة، يستعرضون همومهم اليومية على شاشة المطر، يرفعون كؤوسهم في نخب سلامتي.

قال صديقي الشاعر ماسحا شفثيه من مرارة الشراب: « أرى وجهك يا صديقي نديا بالمتاعب والهموم. أحس بالندى، تلك الدموع الوحيدة لندم الليالي ومخاوف الصباح، بينما أراقب الضباب في قناعه الكئيب راسما نوبة غضب ومستنزفا برميل الشراب، لماذا لا تهرب مثلي من الجحيم؟ مازلت أخوض مغامرة الفرار من الخدمة العسكرية، إنها أفضل من الموت مجانا في معركة لن يكون فيها غالب أو مغلوب. هل تريد أن تكون بطلا؟ بعد عشرة أعوام أو عشرين، سينسى الناس أنك قاتلت بشجاعة أو هربت من ساحة القتال. حين تنتفض جلستنا الرائعة هذه لن يبقى هنا سوى صدى أحزاننا يتردد في الكؤوس الفارغة، وتكنس الريح خطوات السكارى الباحثين عن طريق أفضل أو طريق لا يضيعون فيه. »

قلت لأصحابي بحثا عن رثاء: « لا أدري، فثمة فكرة غامضة تراودني هذه الأيام بأني لن أعود مرة أخرى، لن يغير غيابي شيئا، وما يحزنني أن الحرب لا تنتهي بموتي. »

رد الشاعر مغمض العينين: « ستعود حتما في إجازة قريبة، لا بد أن تعود، وسنكون هنا في انتظارك لنقرع الكؤوس إيذانا بنهاية المجزرة؛ لنشرب معا ونموه الذاكرة بعودة الأحبة الراحلين إلى المنافي والقبور، نقنع أنفسنا بملذات سريعة خاطفة لتخفيف الألم، نعب كؤوس الشراب المغشوش كيلا نصاب بالدوار، نغمس رؤوسنا في الكؤوس هروبا من أسئلة محيرة » إن الرياح شديدة والجسد قصير. »

وبعد الكأس الرابعة، يقول صديقي القاص: « اشرب يا صديقي، بالشراب وحده تحصل على الهدوء لتتذكر، وبالشراب تمتلك الشجاعة لكي تنسى. إذا كانت جبهات الحرب ساحات للموت، فالوطن الآن مجلس عزاء كبير، ساحة لمطاردة الفرائس كي تكون ضحايا المحرقة، لقد هدنا الحزن وأتعبتنا المطاردة. »

عبّ الناقد شرابه، تطلع حوله ثم قال بصوت خفيض: « بتنا نعيش مهزلة تبعث على الرثاء، نلعب أدوار المهرجين في حكاية المأساة، والملعونون يتبارون في كيل المديح للقتلة، يحاولون بأوراق قصائدهم مسح قذارة الجلال، وغسل الدم من يديه بقطرات الحياء، وتغطية عوراته بالقوافي والجناس، وهناك عبر نهر دجلة، خلف أبواب القصر الرئاسي الحصينة، يتربع الطاغية على كرسيه خدرا بتملق أبناء العشيرة الأغبياء والمستشارين المسموطين برعب القائد والمتغنين بمقاتل العراقيين، وحين ينتبه الجلال، يصغي بكل جوارحه إلى ما يقوله قراء فناجين القهوة والعرافون وهم يعيدون تمثيلية كهنة المعابد القديمة مرددين طلب الآلهة بدماء ضحايا جديدة ليعود الخصب والرخاء وتستقيم أمور الحكم. المأساة، يا صديقي، أكبر مما نتصور، وأكثر مما نحتمل. كل حكومات العالم جاءت لتحل المشاكل، إلا حكومتنا فهي المشكلة الكبرى التي تبحث عن حل ليس بمقدورنا فعله. ما يمكننا فعله هو أن نحلم بالحرية. اشرب كأسك لعلك تنسى المشكلة الكبرى التي لا خلاص منها إلا بالوصول إلى المنافي أو المقبرة. »

دمعت عيون أصحابي وهم يعانقونني مودعين. أعيش الآن الماضي وحتى تلك التفاصيل الصغيرة التي لم تطرأ يوما في بالي ولم أتذكرها من قبل، أعود إلى أيام الطفولة، وأغدو طفلا أو

صبيًا أو في مقتبل الشباب في أحلامي، لكن في اليقظة، وبعد صفارة النوم الإجمالي، يجفوني النوم عندما أحاول تأمل وجوه الأحبة التائهة في ضباب يلف رأسي، فأنتبه إلى موتي البطيء.

ليالي الأسر الطويلة تهيج ما ترسب في الأعماق من أحداث وصور غابت عني زمنا طويلا، لكنني أجتزها، أتذكرها الآن بوضوح، أجدّها ممتعة أحيانا، ومؤلمة أحيانا أخرى. ثقتب الصفارة اللعينة ذاكرتي، جعلتني أسمع الرنين الفظ لذلك الجرس الحديدي الكبير المعلق بأحد جذوع الأشجار التي كانت ترفع سقف حجرة الجلوس في تلك الدار التي وعيت فيها لأول مرة ما حولي. كنت في عامي السادس يوم بدأ أبي فرحا ببناء قطعة أرض اشتراها بثمن رخيص في منطقة سكنية جديدة في البصرة أطلقوا عليها اسم « الفيصلية» تيمنا بملك العراق فيصل الثاني. لم تكن أعمدة الكهرباء قد نصبت بعد، وبسبب المسافة بين الباب الخارجي والحجرة التي نتجمع فيها شتاء يتوسطنا موقد تشتعل فيه عيدان متييسة سوداء، كان أبي العائد متأخرا من عمله في شركة النفط، يطرق الباب مرات عدة قبل أن ينتبه أهدنا إليه فيتخبط في الظلام حتى يصل الباب ويفتح مزلاجه الكبير. الآن فقط أدرك أن أبي لم يتأخر بسبب العمل، فوقت العمل في شركات النفط، خاصة إذا كانت تلك الشركة إنجليزية، محدد بساعات معينة، وعمله كسائق لا يتوجب تأخره حتى الساعة التاسعة مساء، ولم تكن أمي تعلق على عودته في ساعة متأخرة، بل كنا نراها تخفي وجهها بغطتها وتجهش بالبكاء. جاء أبي ذات ليلة بجرس حديدي ثقيل صنعوه له في ورشة الشركة، ثبته بجذع من جذوع السقف وسط الغرفة وربط لسان الجرس بحبل مده إلى فتحة أعلى الباب الخارجي، وعندما كان يسحب الحبل يضرب اللسان جوانب الجرس الذي كان يهتز بعنف وكأنه يوشك على السقوط على رؤوسنا. بعد ظهر أحد الأيام، ارتدت أمي عباؤها، أخبرتنا أنها ستزور بعض الأقارب وأوصتنا أن نعد الموقد عند المساء ونشعل الفانوس.

هبط ليل ثقيل حالك وأمي لم تكن قد عادت بعد، بقينا نحرك عيدان الفحم بقلق وخوف وعيوننا تترقب اهتزاز الجرس الحديدي لحظة بلحظة، هجع الصغار، وبقيت وحدي أنتظر عودة أمي وأبي، وكلما فتحت باب الحجرة أتطلع في الظلام، تراءت لي أشباح الكائنات الخرافية والجن وعفاريت حكايات جدي، فأصفق الباب بقوة يجفل معها إخوتي الصغار النيام. بدأ الجرس يدق ويهتز بعنف مثيرا فينا الفزع، كنت أواجه خوفي بالصياح: من؟ من يسحب الجرس؟ استيقظ الصغار على صياحي مرعوبين، لكن الجرس ظل يتأرجح بقوة قبل أن يسقط في الموقد مثيرا الغبار والرماد، تناولت الفانوس واجتزت تلك المسافة المخيفة حتى الباب الخارجي. دخلت أمي، حملت الجرس ورمته غاضبة في حوش الدار وهي تلعنه وتلعن من جاء به، احتضنتنا قائلة وهي تشهق: « تزوج أبوك امرأة أخرى هذه الليلة.»

أشياء كثيرة أتذكرها الآن وكأنها حدثت قبل مدة قصيرة وليس سنوات بعيدة، هل يجلو الألم الذاكرة؟ هل معاناة الأسر تفجر ما استقر في الأعماق؟ لا أدري.

قبل يومين وأنا محموم باغتنتي ذكريات بعيدة جدا. رأيت نفسي طفلا ممددا على سطح الدار أعاني من حمى اشتعل لها جسدي ولم تتفع معها منشفة أمي المبللة في تلك الليلة الصيفية، ولم يكن حينذاك في الفيصلية عيادات أطباء أو عيادة مستشفى، كان هنالك فقط المستوصف الملكي الذي يغلق أبوابه في الثانية ظهرا. كان جسدي يتصبب عرقا، وصراخي يزداد حدة، وعدني أبي أنه سيصحبني إلى عيادة أحد الأطباء في العشار، لكن ذلك الوعد لم يخفف حرارة الحمى، ولا أدري

كيف تفتق ذهن أبي عن حل يسكتني به مختارا حتى الصباح، نزل الدرج الخشبي وعاد بعد قليل، مد يده بورقة لم أتبينها في البدء قائلا: « هذا دينار، كله لك ولكن بشرط أن لا تبكي، فإن عاودت البكاء أخذته منك.»

كان الدينار ثروة لم أجرؤ حتى بالحلم بها أو تمنيتها، فقد كان أبي يعطيني عشرة فلوس كل أسبوع ومعها مقولته لتبرير قلة عطايه «الفلوس تقسد الأخلاق» ، قبضت على الدينار بقوة بيدي التي بقيت تنضح بالعرق، متحملا على مضض وجع الحمى، كظمت صراخي لكن دموعي بقيت تهمل بصمت مخافة أن أفقد الدينار. فارقتني الحمى في الصباح، وفارقتني الدينار أيضا، قالوا لي إنهم استعادوا الدينار ما دمت أنا قد استعدت عافيتي.

حبي الأول، تلك الفتاة التي أحببتها منذ مراهقتي ولسنوات بعدها، أكتشف الآن حجم أنانيتي وعمق الجرح الذي سببته لها، وها هي الآن تلهب ضميري بسياط التائب. أراها كل ليلة في منامي بذات العمر، مراهقة لم تزل، يتورد خذاها بضحكات عذبة، يشع وجهها بالسعادة، تلتف فرحة فيتراقص ثوب الكشمير، تردد مقطعا من أغنية «ليالي الأنس في □ بينا»، يكتسح الحزن وجهها فجأة ويصير اللون الأسمر الفاتح شحوبا، تعلن مخاوفها من فقدان هذه السعادة، لكنها سرعان ما تنبذ تلك المخاوف فتواصل الأغنية. أه يا إلهي، كنت أطمئن أنها لا خوف من تقلبات مفاجئة وأن مركبنا سيرسو على شواطئ المسرة بينما كانت يداي تنزعان عنها طوق النجاة. أراني في الأحلام أعتذر لها عما سببته من خيبة وهجران وأتعهد أن أعوضها تلك السنين، وبعد أن أستيقظ، أشعر بوخزات الذكرى كشوكة تغرز في جسدي، يجتاحني تأنيب ضمير لا يلبث أن يختفي حين أتذكر مأساتي وزوجتي وأطفالي، لكنها تعود في الليل تحدثني، تلتف بثوبها مرده أغنيته الأثيرة. يتكرر ذلك المشهد العاصف في أحلامي التي أحصد فيها الأسى، أستعيد دقائق تفاصيله التي علاها غبار الزمن وتعاقب الأحداث، أراها تقف أمامي بعد نقاش تافه، ترمي كتابها المدرسي بوجهي فتستيقظ شيمتي الموروثة، أشعر بمهانة كبرى، أرفض الاعتذار وأعلن القطيعة. كان ذلك قبل خمسة عشر عاما وكنت حينها في العشرين من عمري. أخرجتها ردة فعلي على تصرف غير ذي بال بدر منها في لحظة غضب، وتساءلت بمرارة: «لماذا؟» حاولت أن تطرح أسئلة أخرى أو تعيد الاعتذار أو أن تصرخ، لكنها لم تستطع. منعنتي شيم الرجولة التي تعلمتها منذ الصغر أن أتوقف عن تعذيبها، كنت أتابع بفضاظة حركة جفنيها وهما ينغلقان وينفتحان ببطء، شفيتها الملمومتين المرتعشتين. يا إلهي، كم كانت تحبني! رأيت في عينيها تعبا لم أره من قبل، لم أره في ملامح امرأة أخرى. كان صدرها يعلو ويهبط مصحوبا بأنفاس متلاحقة مسموعة. لم ألمس صدرها قط؛ لأنني كنت أراها ملاكا لا يمكن تدنيسه برغبات ونزوات وغرائز. مسحت بيدها جبهتها السمراء وكأنها تحاول استيعاب صدمتها، انهيار حلمها، حبها الأول، لقد اختقت ابتسامتها العذبة مثل كلماتها. كبرت تلك الابتسامة يوم أن أخبرتها بحلم كنت رأيتة فعلا، سألت أحد حراس بغداد العباسية عن قصر الخليفة فقادني إليه، وقفت في طابور الشعراء ممن ينتظرون فرصتهم الذهبية في إلقاء قصائدهم أمام الخليفة والحصول على الجوائز. حين دخلت، رأيت هارون الرشيد جالسا على كرسي عرشه ويقف إلى يمينه جعفر البرمكي وعلى يساره أبو نواس وخلفهم كانت هي واقفة هناك، ثبت الرشيد عمامته البيضاء الموشاة بخيوط الذهب، قائلا: «هات ما عنك.»

أتذكر أنني ألقيت قصيدة لا أذكر منها شيئاً سوى أنها بائنة من بحر «الطويل». كانت صيحات الإعجاب من أبي نواس تشجعني، وكان الخليفة يهز رأسه منتشياً بمديحي له. صفق لي الرشيد: «أعجبتني قصيدتك، لن ألقى إليك بكيس من الدنانير بل أدعك تتمنى ما تريد.»

قلت: «مولاي الخليفة، أطال الله عمرك، ما أطلبه هو في متناول يدك، بل في هذا القصر المعمور، أريد هذه الجارية الواقفة خلفك يا مولاي.»

التفت إليها الرشيد متمعنا فيها وكأنه لم يرها من قبل: «لك ما تريد.»

اختفت تلك الابتسامة في ذلك اليوم، أحس الآن أنها كانت تشعر بالتعب الذي منعها من الحركة، من الكلام، من الشكوى، فظلت جامدة في مكانها بينما ابتعدت عنها تاركاً لقدري أن يدفعني، ليس عنها فقط بل عن المدينة أيضاً في الشهر التالي مهاجراً إلى بغداد، لكنني بقيت أتتبع أخبارها، وكان الخبر الذي يكدرني كل مرة: ما زالت ترفض الزواج.

الذكريات وأخطاء الماضي والفرص الضائعة تؤرقني، حاولت أن أجد حلاً للخلاص من الأرق بالكتابة ولكن ليس على ورق، فالورق قد يكون دليلاً دامغاً على مهنتي كصحفي وإعلامي وكاتب للأطفال والتي أخفيت عنها الإيرانيين تنفيذاً لنصيحة سيد مهدي، غير أنهم ظلوا يشكون فيّ على الرغم من إصراري على أنني معلم مدرسة ابتدائية. أكتب على الجفون، في الليل، بعد انطلاق صفارة النوم الإجمالي، أسحب الغطاء المشبع برائحة العطن والرطوبة، أبدأ بكتابة الفصل الأول من روايتي، والبطلة دائماً هي تلك الفتاة الطيبة التي أحببتها، وبعد كتابة صفحتين أو ثلاث أعيد قراءة ما كتبت ولا أدري بعدها كيف استغرقت في النوم، وفي الليلة التالية، أستعيد ما كتبت وأتقنه وأضيف إليه، وفي الليلة الثالثة وقبل أن أضيف مقاطع أخرى، أتقح ما كنت قد حفظته أو ما تذكرته، لكن أفسى ما تفعله سيات العقوبات الجماعية أنها تنفض من الذاكرة كل ما أكتبه من فقرات، فأبدأ من جديد في كتابة الفصل الأول والبطلة كل مرة هي تلك الفتاة الراضة الآن في ذاكرتي.

لكن ما يزيد أرقني أنني ما زلت أمني النفس باستلام ردود رسائل الصليب الأحمر التي وزعتها علينا إدارة المعسكر لنملأها ولكن من دون رقم، فالصليب الأحمر لم يأت بعد. فكرت مرة أن أكتب واحدة من رسائل الصليب إلى تلك المرأة التي سببت لها التعس، لكنني كنت أعرض عن هذه الفكرة لأنها تدمي الجراح بدل أن تدملها.

ما زال أحمد القيسي يواصل هروله حول الساحة في تلك الظهيرة، ليس من أجل الرشاقة هذه المرة، فكرشه لم يعد كبيراً، بل من أجل اكتساب لياقة بدنية لمواجهة عقوبات محتملة، كما يقول، لكنني اكتشفت سبباً آخر لم يبيح به، ذلك أن تعبته من الهرولة يدفعه إلى النوم مبكراً، وبالتالي يبعد عن باله ما يساوره من قلق على ولده الصغير الذي قال عنه إنه مريض منذ ولادته ويبدو في السادسة من عمره بينما تجاوز العاشرة. يريد القيسي الحفاظ على ثباته بوقاية نفسه من قلق المستقبل بانشغاله بالهرولة والتمارين الرياضية، فهو يشد بطنه بكيس من أكياس البلاستيك التي يلتقطها من برميل القمامة، لأن وجود الكيس عند الركض يسبب العرق، فهو يرى أن العرق دليل على إذابة الشحوم. إنه محق في أن علو كرش البطن منظر قبيح يشوه حقيقة صاحبه، كما أنه يمنع عند الزوجين احتكاك مواضع الشهوة.

كان في البداية يرى مثلي أن الحرب لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أشهر بسبب الخسائر الكبيرة في الأرواح والتي لا تقل عن ألف من الجانب الآخر في كل بيان عسكري، والخسائر الجسيمة في المعدات الحربية التي استنزفت شراؤها موارد النفط في العراق وإيران، وتدمير البنية الاقتصادية الأساسية ومصافي النفط وآبارها في البلدين، وكذلك بسبب تدمير الشعبين العراقي والإيراني من استمرار الحرب وتقديم الضحايا، والضغط الدولي من الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومن المنظمات الدولية ولجان الوساطة من دول المؤتمر الإسلامي وعدم الانحياز. كان يرى نهاية الحرب في تلك المدة القصيرة بديهية لا تقبل النقاش، ودفعه هذا التفاؤل للعراك ذات مرة في الصيف الماضي مع أسير كان يقف بجوار نافذة كسر زجاجها شاكيا أن الإيرانيين لن يستبدلوا الزجاج المهشم، وعندما يأتي الشتاء سيدخل الثلج والهواء البارد من النافذة، فدفع القيسي ذلك المسكين إلى الحائط بقوة قائلا: «لماذا تريد إيذاءنا؟ الحرب لن تستمر حتى الشتاء، هل فهمت؟» وقد أثبتت الأيام أن الأسير القروي كان محقا، والقيسي، خريج العلوم السياسية، مخطئا في كل حساباته، أو أن هذه الحرب لا تخضع لمنطق أو تحليل أو استقرار.

لكن ما لم يستطع أحمد إخفاءه، كان تأكل طموحاته التي كان يتحدث عنها في الشهور الأولى بإكمال دراسته العليا. إنه لا ينتقد السادات بزيارته لئل أبيب، بل يندب حظه لأن السادات قام بالزيارة أثناء وجوده في القاهرة للحصول على الماجستير والدكتوراه من جامعة عين شمس، فبسبب معارضة النظام في بغداد لتلك الزيارة، قامت السلطات المصرية بطرد الطلبة العراقيين. طموحاته الآن لا تزيد على معالجة ولده الصغير، تهيئة كل الظروف لولده البكر عمار ليحصل على معدل عال في الامتحانات العامة للدراسة الثانوية، وبناء طابق علوي في داره ببغداد وإنشاء ورشة كبيرة لصنع السيارات، وبعد ذلك التمتع بكل مباحج الحياة وأن لا تمر به لحظة من دون أن يشعر بلذتها.

قال زيني وكان يجلس بقربي نتدفاً بشمس الظهرية متابعا دوران الأسرى في الساحة وهرولة القيسي: «ستكون أمورك على ما يرام في وقت قريب، وستمطر عليك السماء سحائر، وطبعا لن تنسى عمولتي.»

«كيف؟»

«أخبرت العشرات من الأسرى ممن لا يجيدون القراءة والكتابة أو الذين لا يحسنون الكتابة أنك خطاط ماهر لا يشق له غبار، يجيد كل أنواع الخط العربي، وأنت صاحب أسلوب ساحر مؤثر.» قلت محتجا: «هذا تشويه لسمعتي.»

«أعلم أنك يمكن أن تفعل ذلك مجانا، لكن الكثيرين منهم غير مدخنين، قلت لهم إنك ترفض قبول السجائر منهم، لكنني نصحتهم أن يضغطوا عليك لتأخذها. الكل هنا يتقاضى سجائر عن خدماته، حتى حاملو قدر القصعة، الحلاقون والخياطون والحائكون.»

فقهه مواصلا كلامه: «والسحرة المشعوذون أمثالي، ما رأيك؟» لم أجبه بشيء، لكنه فهم أن ذلك علامة رضا. كنت أعرف أن زيني وجد حرفة جديدة يشغل بها وقته وتدر عليه عددا من السجائر كل يوم بعد أن أفتع عددا من الأسرى الريفيين السذج بمهارته في قراءة أدعية على حصى ملونة كان يجمعها من الساحة مدعيا أن قراءته التي تعلمها من والده الشيخ على تلك الحصى تجلب

لحاملها راحة البال وتحقق له الأمنيات. اتسعت شهرة زيني بعدما اشتكى أحد الأسرى بأنه لم ينم ليلته بسبب الأشكال المفزعة التي تراءت له وأنه اكتشف في الصباح التالي أن السر كان تحت وسادته حين عثر على حصاة سوداء، مؤكداً أن زيني قد دسها له بعد أن رفض إعطائه سيجارة.

أثار زيني دهشة الكثيرين حين كشف لهم بعد معاينة الحصى الملونة التي يرميها أمامه عن معلومات خاصة جداً تهمهم، كان يعدد لهم أسماء إخوانهم وأخواتهم وأقاربهم، وما يدور في بالهم من هموم، ودهشت أنا أيضاً في بداية الأمر، لكنني اكتشفت فيما بعد أنه كان يقرأ خلسة رسائلهم المدفونة تحت وسائدهم.

ومهما يكن حال زيني فهو أفضل من فوزي الذي أصبح محل تنذر الأسرى بعد أن شاعت حكاية «السكس ويل»، فقد أقنع فوزي أسيراً بدويا بأنه سيطلعه على سر لا يريد أن يعرفه الآخرون، والسر هو أن عائلته تملك أسطولا من الشاحنات الكبيرة، وأنه يبحث منذ الآن عن مشتر للشاحنات المسجلة باسمه حصراً لأنه لا يريد بعد الخلاص من هم الأسر تحمل هموم العشرات من السائقين والمراقبين والعمال والحراس، فأبدى البدوي المسكين رغبته بشراء شاحنة «سكس ويل» من فوزي بعد العودة إلى العراق، فطالبه فوزي أن يقدم له عربونا رمزيا كالسجائر مثلاً كيلا لا يبيع الشاحنة إلى أسير آخر، فأعطاه، لكن فوزي يطالب بالمزيد والبدوي لا يستطيع التنازل بعد علبتين من السجائر.

بعد ظهر ذلك اليوم، وزعت علينا إدارة المعسكر مبلغاً قدره 2000 ريال قالوا عنه إنه راتب شهرين حسب اتفاقية جنيف، لكن ذلك المبلغ كان أقل بكثير من أربعة فرنكات سويسرية. أسرع رئيس العرفاء أفشاري في اليوم التالي بفتح حانوت صغير اقتطعه من غرفة كانت مخصصة للمكتبة، واختار أحد الأسرى ليكون وكيلاً عنه. جاء في بداية الأمر بقناني المربي والسجائر الجيدة، ويبدو أن تلك البضاعة لم تحقق له ربحاً كبيراً، فملاً الحانوت بحلوى متعفنة ومربي تفوح منه رائحة غريبة، وأمر باستبدال النقود بكوبونات وعين فترة أسبوع لنفادها، فدفعنا الجوع إلى أكل الحلوى غير عابئين بعفونتها.

\* \* \*

سقط الثلج عصرًا في الأسبوع الأول من تشرين الثاني، فهرعنا إلى النوافذ متأملين ذلك المشهد الخلاب الذي لم نره في مدننا الوسطى والجنوبية، رأيت على ضوء المصابيح الكشافة حباته تسقط طوال الليل بكثافة في كل الاتجاهات، فبدت تلك المصابيح وكأنها نافورات تنفث ثلجا وسط الظلام. ازداد الثلج كثافة وارتفع غطاؤه الأبيض مترا أو أكثر، وما زاد المنظر روعة، ما أكده الأسرى القدامى من إلغاء مراسيم العلم والدعاء عند سقوط الثلوج. لكن تلك الروعة أصبحت نقمة، ففي اليوم التالي أشرقت الشمس، فأمرنا فتحي بعد التعداد داخل القاعات بالخروج إلى الساحة لنجرف الثلج بأوعية الأكل ونكومه عند الأسلاك الشائكة. غاصت أقدامنا العارية وسط الثلج، فشعرت بأصابع يديّ ورجليّ تتجمد، تؤلمني، تحترق، لكن الألم يتوقف حين تخدر أصابعي وتترق أقدامي الغاطسة في الثلج.

سقط « أبو حميد » وسط الثلج يتلوى عاصرا بطنه بركبتيه، لكن الجنود لم يأبهوا لحالته فانقضوا عليه بالركلات والهراوات يأمرونه بمواصلة الجرف لكنه لم يستطع، تناوبوا في ضربه ضاحكين، داس أحدهم على بطنه فأطلق الأسير المسن صرخة ضعيفة أخافتهم فأمروا اثنين من الأسرى بحمله إلى سريره وتركوا المكان راكضين.

دثرناه بالبطانيات، لكن دفء السرير لا يوقف زبده وارتجافه، كانت عيناه تتوسلان بنا أن ننقذه، لكن ليس بوسع الآخرين مساعدته، سوى الأمنيات بأنه سيكون بخير، وأنه بعد حين سيعيد حكاياته عن ليالي الأهوار وشباك الصيد ودلال القهوة وحكايات عشق صباه وجحود زوجته، عن الناس الطيبين في ناحية النصر وزيارته الأولى لبغداد يوم دفعه أفراد الحرس القومي مع عدد من أهالي الناحية في باصات نقلتهم إلى بغداد، ومسيرتهم في شارع الرشيد حيث أجبرتهم بنادق بورسعيد التي يهزها المراهقون في الحرس القومي على ترديد شعارات التأييد بمناسبة مرور شهر على انقلاب شباط عام 63، وعندما وصل موكب الفلاحين أمام بناية مصرف الرافدين، رفعوا رؤوسهم يعاينون بدهشة البناية التي لم يروا بناية شاهقة مثلها من قبل. كان أبو حميد لا ينسى وهو يسرد تلك الحكاية أن يذكر أن رؤوس الفلاحين ظلت ترتفع مع طوابق البناية، وعند الطابق الأخير لم يبق عقل على رأس صاحبه.

كانت يده النحيفة الخشنة تعصر يدي بقوة فسرت فيّ رعشة ألجمت ما كنت أريد قوله من أمنيات كاذبة تخفف آلامه، غير أنه أغمض عينيه وهدأ فجأة بلا أية حركة سوى نفس ضعيف. ركض سيد مهدي إلى كابينة الممرض الإيراني القريبة من الباب النظامي يستدعيه.

أقبل الممرض ساخطا لاعنا قادسية صدام التي جاءت بنا إلى هنا، ولاعنا القادسية التي جاءت بالإسلام إلى إيران. حاول إفاقة أبي حميد، لكن الرجل ظل في غيبوبته، قرأت في ملامح الممرض أن حالة صاحبنا خطيرة جدا. انتشرت بسرعة إشاعة موته بين قاعات المعسكر حتى وصلت إلى أن العريف فتحي الذي أتى لاهتا راكلا كل من صادفه من الأسرى.

تنفس فتحي الصعداء أن الأسير لا يزال على قيد الحياة، نظر إلى الأسرى الواقفين حوله شزرا، قال بلهجة الخبير: « يبدو أن لدى هذا المسكين حساسية عالية من الثلج، كان عليه أن يخبر الجنود عنها ليعفوه من رفع الثلج. » التفت إلى الممرض قائلا: « أعطه حبة أسبرين. »

قال الممرض متلعثما: « سيدي، أعتقد أن حالته خطيرة، إنه يعاني من قرحة في المعدة، وزاد الألم بعدما . أقصد من الحساسية، وإذا بقي هنا ربما يموت إن لم ينقل إلى مستشفى قزوين.»  
انفجرت أسارير فتحي وكأن عبئا ثقيلا أزيح عن صدره ذي الثديين المترهلين: « الحمد لله، لم تتدهور صحته بسبب عقوبة وإنما بسبب القرحة والحساسية.»  
أمر فتحي الأسرى بنقل أبي حميد إلى الباب النظامي، وأمر الممرض بمصاحبة المريض في سيارة الإسعاف والذهاب إلى مستشفى مدينة قزوين.

بعد مراسيم الصباح، طلب منا فتحي ساخرا أن ندعو لأصحابنا بالشفاء والعودة مكررا «الدعاء أهم من الدواء.» لم تفارقني نظرة أبي حميد المستغيث بنا. أتذكر ذلك الرجل المسكين البالغ من العمر ثلاثة وستين عاما والذي كان يعصب رأسه دائما بقطعة بيضاء اقتطعها من قماش شرشف سريره، تاركا طرفيها يتدليان وراء أذنيه كما كان يفعل في قريته مزهوا بغترته قبل أن يقتحم أفراد من المنظمة الحزبية في بلدة ناحية النصر كوخه عند الليل ويأخذوه مكبلا إلى ساحة تدريب الجيش الشعبي ومن ثم إلى جبهة القتال. يشكو أبو حميد دائما من معدته ومن زوجته قليلة الوفاء حاملا في جيبه رسالة كتبها أحد الجيران عن لسان أمه بأن زوجته قد تركت البيت لأنها ضاقت ذرعا برعاية عجوز عمياء.

واصل الأسرى الدوران في الساحة عند العصر، مستهلين أحاديثهم بذكر أبي حميد لكنهم ينسونه بعد قليل حين يبدأ سرد الذكريات وأخبار الحرب. تطلع أحمد القيسي إلى الجبل الذي تطل قمته علينا مؤكدا أن الثلوج لن تسقط هذه الليلة، لكن زيني يقول ماصا عقب سيجارته حتى لم يبق منه شيء في غليونه الخشبي: « اثنان هنا لا يمكنك التنبؤ فيهما؛ الطقس ومزاج المسؤولين، فالطقس يتغير من ساعة إلى أخرى، والمسؤولون يمازحونك وفجأة يأمرونك بالزحف أو يصفعونك.»

قلت هامسا: « سمعت من أحد الأسرى العاملين في المطبخ أن فتحي وأفشاري والكثير من الجنود مدمنون على تعاطي الترياق والحشيش، فالإيرانيون لا يعتبرون المخدرات محرمة؛ لأنها لم تذكر في القرآن، ولعل ذلك هو التفسير المعقول لرغبتهم الشديدة في الإيذاء والضرب.»

ضرب زيني كفا بكف ضاحكا: « راح أبو حميد ضحية الترياق.» تذكر زيني في الليل حكاية أبي حميد، فقال مازحا: « سيعود أبو حميد معافي فنتخلص من أئبنه وشكواه من معدته، لكن كيف له أن ينسى تلك الحقيرة، زوجته؟ بالمناسبة، كيف سيكون مصير طفلي إذا ما قررت زوجتي الطلاق بدعوى فقداني أو موتي؟ إخوتي لا يحبون الطفلين فهما برأيهم صورة طبق الأصل عن أمهما، ولا سبيل إذا سوى قيام الصليب الأحمر بجلبهم إلى هنا. أه، متى سنرى لجنة الصليب الأحمر؟ سنموت وفي عيوننا حلم رؤية بطاقة الصليب.»

دخل الجندي الانضباط «أبو الفضل» القاعة متمعنا في وجوه الأسرى المضطجعين أو النائمين. التحق هذا الشاب بالمعسكر قبل أسبوعين، واستطاع خلال مدة قصيرة من كسب ود الأسرى بأدبه وحسن معاملته، ولعل زيني أقربنا إليه، فما إن يراه حتى يبادره بالسؤال عن لجنة الصليب الأحمر أو عن أخبار بوصول رسائل من العراق. مد زيني رأسه إلى الأسفل مناديا عليه: « أغا أبو الفضل، كيف حالك؟»

تسلق أبو الفضل الأسرة مصافحا زيني بحرارة: « زيني، كنت أبحث عنك، لدي خبر مفرح لك، لقد وصلت قبل قليل أربعة أكياس كبيرة مليئة برسائل الصليب الأحمر، فتم قرير العين هذه الليلة.»

كانت فرحتنا كبيرة، لكن فرحة زيني سلّبتة النعاس، وكلما تقلبت في فراشي تلك الليلة كنت أراه ساهما يتطلع إلى السقف بصمت..

في الصباح، كانت الفرحة تملو وجوه الأسرى، أخبرنا فتحي في ختام مراسيم العلم أن فرز الرسائل يحتاج إلى وقت طويل لأن أكياس الرسائل تنقلت في معسكرات عديدة قبل أن تصل معسكر منجيل. في الظهر، تراحم الأسرى في ساحة لعب كرة السلة حيث تطل نوافذ المطبخ الذي تولى داخله عدد من الأسرى القدامى فرز الرسائل. كانت أيدي المتجمهرين تتداول الرسائل إلى أصحابها، وكان بعض الرسائل مرفقا بالصور، لم تظهر رسالة واحدة للأسرى الجدد أمثالي حتى الآن، لكن هنالك عددا كبيرا من الرسائل لأسرى لا يعرفهم أحد هنا.

هطل المطر عصرا بغزارة، فهرولت مبتعدا يائسا، ومن النافذة القريبة مني في قاعة النوم، رأيت الآخرين يبتعدون أيضا، وبقي زيني المبلل تماما ملتصقا بنافاذة من نوافذ المطبخ. رأيتته يتهاوى على الأرض لكن يديه ظللتا ممسكتين بقضبان النافذة، أسرعت إليه وتبعني أحمد القيسي، رفعناه من الأرض وأسندناه إلى أكتافنا وهو يهذي مرتجفا، غطيناه بالبطانيات، لكن حرارة جسمه ارتفعت أكثر فزاد قلقنا عليه، قلت له معاتبا: « ما فعلته كان انتحارا، لا تقلق على عائلتك فقد تعودوا الآن غيابك، هل نسيت أننا هنا منذ ستة أشهر؟ إنهم يذكرونا مثلما نذكر الآن شخصا رحل عن هذه الدنيا، إنهم مشغولون الآن بأمورهم اليومية، وقلقك هذا لا يفيدهم بشيء.»

فتح زيني عينيه ببطء قائلا: « ما من أخبار عن الصليب الأحمر؟»

تعالى ضجيج الأسرى القدامى في الصباح وقد شكلوا مجموعات في الساحة، فهم، أو معظمهم، سعداء برسائلهم على الرغم من تواريخ بعضها التي تعود إلى أربعة أو خمسة أو ستة أشهر بسبب نقلهم من معسكراتهم السابقة، وهم سعداء بصور عائلاتهم، ولعل سيد غالي كان أكثرهم سعادة، فقد وصلت إليه رسالة تخبره أن ولده خالد قد عقد قرانه على قريبة له وأن موعد زفافه يصادف هذا اليوم، يخبر غالي الجميع بالخبر السار، ومعلنا للجميع أن الأسر إذا منعه من أن يغني في عرس ولده، فهو سيغني هنا لكنه يخاف السياط والركلات. لكنه لم يهدأ، ظل يمشي محدثا نفسه، راح يركض في الساحة كالمجنون، جلس أخيرا على طرف منصة العلم وبدأ بالغناء بصوت عال شجي، وسرعان ما اجتمع حوله الأسرى مشدودين إلى صوته وكلمات مواويله الرائعة، ولم ينقطع عن الغناء على الرغم من التحذيرات المعلنة عن وصول اعتمادى. صرخ الجلاذ فيه أن يتوقف، لكن سيد غالي لم يسمع سوى صدى مواويله، انهال عليه بالسوط الغليظ المبروم، لكن المغني واصل غناؤه. تصاعد لهاث اعتمادى فتوقف عن الضرب، وفجأة قفز غالي معانقا إياه قائلا بفرح: « أغا، اليوم يتزوج ابني خالد، كنت أغني في عرسه.» لكن فحيح الجلاذ كان ينذر بنوبة جديدة من الضرب. جلس غالي على الأرض باكيا، أهال التراب على رأسه. تطلع اعتمادى في الواقفين حوله، ربت على رأس غالي قائلا بود استثنائي: «مبروك عرس ولدك. ساعدك تغني هذا اليوم فقط. سأأخذك الجنود إلى غرفة المخزن ويغلقونها عليه لتغني لوحدهك.»

نسي البعض فرحة الرسائل ونسي البعض الآخر الحسرة من عدم وصولها، حين علم الجميع بعودة أبي حميد عصر ذلك اليوم. كنت أتمنى أن أراه ماشيا على قدميه، لكنه جاء محمولا من إبطيه ورجليه. بعث شحوب وجهه في رعدة مخيفة. لم يضع أبو حميد عصابته هذه المرة. توالى عليه الأسئلة، عن صحته وما فعلوه به في مستشفى مدينة قزوين، كان رأسه متدليا إلى الوراء ليتمكن رؤية الآخرين. كانت عيناه ترمشان بإيقاع بطيء وهما يدوران على الوجوه المحدقة فيه. تساءل بصوت واهن: «أمي، كيف حالها؟ لا بد أن الجيران يعتقدون بها الآن، الناس الطيبون ما زالوا موجودين.»

توالى عليه الأسئلة من جديد، التقط أنفاسه بصعوبة: «قدموا لي في المستشفى قدحا كبيرا من الحليب الساخن، كان لذيذا لكنه ليس لذيذا جدا كحليب جواميسنا، كم بقي من تلك الجواميس؟» أسدل جفنيه، فظننت أنه قد نام أو غاب عن الوعي، لكنه فتح عينيه ثانية: «تذكرتكم وأنا أشرب الحليب الساخن. نزعوا عني ثيابي، كنت أشير إلى معدتي، وفهمت من إيماءات رؤوس الأطباء أنهم قد عرفوا علتي، وبعد ساعتين حلقوا كل الشعر النابت على بطني. حلاقة شعر البطن ليست محرمة.»

لاحت ابتسامة على شفثيه الذابلتين، واصل كلامه ولكن ببطء أكثر: «عندما أفقت وجدت نفسي خارج غرفة العمليات، شعرت أن جسدي مليء بجروح عميقة أحدثتها سكاكين حادة كبيرة، اللفافات تشد بطني لكنها لم توقف الألم. أخبرني أحد الأطباء باللغة العربية أنني سيء الحظ، فقد حدث خطأ في غرفة العمليات، اشتبهوا بأني مريض آخر كان دوره بعدي يعاني من التهاب حاد في كليته، فاستأصلوا كليتي بدلا من عملية في معدتي.»

ندت من الواقفين تأوهات استغراب واستنكار وكلمات مواساة، لكن أبا حميد تابع دونما تذمر: «لكن ذلك ليس مهما، المهم أنني شربت حليباً حلوا ساخناً. تركوني في غرفة ممددا على السرير ولا أحد يقربني، وبعد ساعة لم أعد أحتمل الألم الفظيع، صرخت بكل ما أستطيع، فجاءت ممرضة شابة جميلة يصح عليها القول والله إن أقبلت فنتت وإن أدبرت قتلت، وضعت يدها الناعمة الرقيقة على يدي لتجس نبضي، فأحسست بلمسة ملائكية سرت في جسدي ونسيت كل الآمي، وعندما وضعت يدها على جبينتي..»

غرق أبو حميد في نوم عميق، فتفرق من حوله الآخرون، غطيناه جيدا متمنين له نوما هائنا. عند الفجر، وقبل النهوض الإجباري للوضوء، أفزعتني صرخة سيد مهدي وهو يعلن موت صاحبنا أبي حميد.

في الصباح، وبعد أن ألقينا عليه النظرة الأخيرة وصلينا عليه، حملته سيارة الإسعاف ومعه أربعة أسرى وممولان ومجرفتان، فدفن هناك في بقعة مجاورة للمقبرة المطلة على بحيرة منجيل؛ ليصبح أول واحد منا يدفن في مقبرة الغرباء تلك. أعلن رحيل أبي حميد أن على الآخرين أن يتهيئوا لمواجهة موتهم ما دامت السياط مباحة والضرب والتعذيب لا يخضعان لمراقبة أو محاسبة.

افترش الأسرى الساحة الكبيرة مقيمين مجلس عزاء يعزي أحدهم فيه الآخر، ليس بموت ذلك المسكين وإنما بموتهم هم، فالكارثة الكبرى ليست بتوقف القلب عن مهمته وموت الجسد، وإنما موت الأحلام في نفوس الأحياء.

\* \* \*

قال زيني وهو يحكم لف البطانية على جسده بعد مراسيم العلم وتناول قطعة الجبن الصغيرة وشرب الشاي الساخن: «أشعر بالبرد يلف عظامي، إنه يشدني إلى الفراش ويغريني بالنوم، هل تعلمان أن هنالك نوعين من الهم: نوع يفقدك الاستقرار فيهم بك، ونوع يدفعك إلى النوم، وهمي إذا ما هاج أغلق جفوني، لكن البرد يحول بيني وبين التقاط الأخبار من الأسرى في القاعات الأخرى.»

أحمد القيسي الذي كان جالسا بيننا متدثرا ببطانيته، رد بقهقهة ساخرة: «إنني لا أحسدك على نومك، ولو كان هنالك خبر جديد لوصلك وأنت على سطح القاعة، اطمئن، لا خبر عن الصليب الأحمر.»

عقب زيني وعلى شفثيه ابتسامة شاحبة: «أتمنى لو كان لي مصباح علاء الدين السحري، أفرك المصباح، وحين يظهر الجني لا أطلب منه سوى الإجابة عن سؤال واحد فقط: متى تنتهي الحرب؟»

قلت ضاحكا: «سؤالك صعب يا زيني وسيخرج الجني المسكين.» وبعد لحظة صمت، تساءلت جادا: «إذا ما انتهت هذه الحرب، هل ستزول أسبابها؟»

ردّ القيسي وهو يهز رأسه الكبير: «لا أدري. الحروب دائما عنوان لفشل الأنظمة في إيجاد حلول أخرى، لم يكن صعبا التنبؤ بوقوع هذه الحرب ما دام الحكام في البلدين لا يحتكمان إلى العقل، بل إنهم رأوا في القوة حلا لكل المشاكل. وقع صدام على اتفاقية الجزائر، ثم عاد فألغاها وشن الحرب، وربما يعلن بعد شهر موافقته عليها من جديد، من يحاسبه؟ الإيرانيون الآن لا يكتفون بالمطالبة بتنفيذ الاتفاقية بل أكثر من ذلك، يريدون إسقاط النظام ودفع تعويضات ضخمة ورسم حدود جديدة. لا أحد يدري كيف ستنتهي الحرب.»

احتج زيني متذمرا: «لا أحد ينسى أيضا موقف الإيرانيين من الحكومة في العراق، لقد بالغوا في الاستقزاز بتدخلهم في شؤون العراقيين، ألم تنظم السلطات الإيرانية مظاهرات ضخمة طالبت فيها بتأسيس جمهورية إسلامية في العراق؟ ألم يعلن قادة إيران الجدد أنهم سيذهبون إلى بغداد لتحرير الشعب العراقي؟ ألم تقم جماعات إيرانية مسلحة بإيعاز من النظام بمهاجمة قنصليات عراقية في إيران؟»

قلت: «صحيح، كان ذلك استقزازا، وإذا كان كل استقزاز يواجه بحرب لانقرضت البشرية منذ زمن بعيد.» سحب زيني بطانيته على رأسه متكورا كعلامة استقهام، ففهمنا أن همه قد تصاعد.

بعد ظهر ذلك اليوم، الحادي والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، وبعد أن اندفعت الغيوم بعيدا نحو الغرب وبدت زرقة السماء صافية، وبعثت أشعة الشمس الدفء، خرجنا من أقببنا الحجرية المرقمة مستأنفين الحياة في الدوران على محيط الساحة، متحدثين عن الحرب التي نتمنى نهايتها ونتبادل أخبارها. خفت حدة البيانات العسكرية الإيرانية، لكن ذلك لم يبعث فينا ارتياحا أو أملا بقرب نهاية الحرب، فالتلفزيون الإيراني راح يعرض يوميا مشاهد استعراضية عن توجه دفعات جديدة من المتطوعين، ولا أعتقد أن طريقة تطوعهم تختلف عن تطوع العراقيين الإجباري، يطلقون عليهم «البسيج» (التعبئة)، و«سباه باسدران انقلاب إسلامي» (قوات حراس الثورة

الإسلامية)، ومصدر الأخبار التي نتناولها في السر كان بناية المطبخ حيث يلتقط الطهارة الأسرى إشارات تفلت من الجنود الإيرانيين، وفي أحيان أخرى يخلطها بعض الأسرى يقصدون من وراء ذلك حث الآخرين على الصمود. كنا أيضا نتتبع أخبار الوضع الداخلي في إيران، ومرد ذلك الاهتمام أننا في صباح أحد الأيام فوجئنا بسلال فيها تمر وتفتح يضعها الجنود أمامنا في ساحة المعسكر، وقبل أن ينال كل واحد منا ثمرة ونصف تفاحة، طلب منا فتحي قراءة سورة الفاتحة على روح «آية الله صدوقي» الذي أعلن التلفزيون عن اغتياله بعد خروجه من أحد المساجد على أيدي مجهولين في العاصمة طهران. قال أحمد القيسي وهو يلحس تمرته قائلا: « كان على الإيرانيين أن يفعلوا ذلك في الأعياد، لا أن يدفعونا إلى انتظار أخبار القتل والاعتقالات لنتذوق حلاوة التمر وطعم التفاح.»

فجأة، خفتت الأصوات ووقفنا في أماكننا بلا حراك حين شاهدنا رجلا مدنيا وسيم الوجه في أواسط الأربعينيات من عمره، حليق اللحية وذا شارب رفيع، طويل القامة، يرتدي معطفا مطريا ذا لون أزرق غامق، ينهال بالصفعات على أحد الأسرى، صارخا في الواقفين إن كان فيهم من يعرف الفارسية، فتقدم شيركو مؤديا التحية.

« سل ابن الكلب هذا لماذا يضحك؟ »

ترجم شيركو السؤال، فأجاب الأسير: « حكي صاحبي طريفة فضحكت.»

صفع الرجل الطويل ذلك الأسير مرة أخرى، قائلا: « لا تتس من تكون في هذا المكان، لا أحب أن يضحك أحد بهذه الطريقة.»

كان ظهوره مباغتاً لنا، ولم نستطع السؤال عن هويته، فابتعدنا عن طريقه مفسحين له ممرا واسعا في الساحة، تلاحقه نظراتنا وهو يسير بخطوات سريعة واضعا يديه في جيبي معطفه المطري. توقف أمام كاظم الخباز المتربع على الأرض قرب جدار القاعة السابعة مواجهها الساحة بنظرات شاردة، صاح به أن ينهض، فبوغت الخباز وراح ينظر حوله بذهول، وضع يده على الأرض دافعا جسده النحيل إلى الأعلى.

سأله الرجل غاضبا: « لماذا لم تنهض؟ ألم ترني؟ »

تلعثم كاظم الخباز ملتفتا إلى شيركو: « والله لم أنتبه لقدومه. كنت سارح البال.»

« فيم كنت تفكر أيها المسطول؟ »

تتهد الخباز ويداه تعبثان بأطراف قميص بذلته لتسحبها إلى أسفل ليغطي ما ظهر من بطنه: « أفكر في عجوزي التي تركتها هناك وبأختي وبعياليها وبمرض السكر الذي يتعيني هذه الأيام وب... » قاطعه الزائر الغامض متضايقا: « كفى، لست طبيبا لأعالجك و أنت هنا لست في دار استراحة، لن أعفو عنك مرة أخرى.»

ابتعد كاظم الخباز خطوتين، فناداه الرجل ممعنا النظر في رदन قميصه الذي صار خيوطا تغطي ساعده، وفي سرواله الممزق: « لا ترتدي هذه البذلة ثانية.»

« عفوا، أغا، ملابسنا الداخلية لا تستر شيئا.»

صرخ الرجل مستغربا وهو يلتفت إلى شيركو: « هل هو مجنون؟ أمرته بارتداء بذلة أخرى وليس التعري.»

أخبره شيركو أن المسؤولين في المعسكر وزعوا قبل خمسة أشهر بدلات للأسرى يلبسونها ليلاً ونهاراً، وأضطر الأسرى إلى ترقيعها عدة مرات.

انتهز زيني وجود الرجل ذي المعطف، فاتجه إلى حنفية الماء المنصوبة على جانب الساقية الصغيرة ليتوضأ ويفتحها قليلاً، فقد عوقب زيني قبل يومين لأن أحدهم أخبر الإيرانيين بأنه يصلي من غير وضوء، لكن الرجل اقترب منه وضربه على ظهره بطرف حذائه المدبب، فسقط زيني على الأرض. أغلق الرجل حنفية الماء وقال موبخاً: « لا تسرف في الماء، إنكم تبددون ثروات البلاد.»

توقع زيني أن يثني عليه الزائر لالتزامه بالوضوء، لكنه الآن في حيرة من أمره، وحين استدار الرجل، قال زيني ساخراً: « أتيتم بالتراب وأمرني الله.» لكن ما إن ضرب كفيه على الأرض، حتى التفت إليه الرجل صائحاً: « ماذا يفعل؟»

أجاب شيركو: « إنه يتيم، أغا.»

أمسك الزائر بتلابيب زيني صارخاً فيه: « ألا تخاف الله؟ كيف تفعل الحرام بحضوري؟ ألم تسمع ما قاله الفقهاء إنه إذا حضر الماء بطل التيمم؟ ستنتال عقابك فيما بعد.»

أدركت أن هذا الرجل لم يكن زائراً عابراً، بل جاء ليبقى. بعث ظهوره قلقاً فينا جميعاً، فأحسست أننا مقبلون على أيام صعبة قاسية، وتوجست خيفة مما يحمله الغد من مفاجآت، لكن أكثرنا قلقاً هو زيني. وفي العاشرة ليلاً نادى الجنود زيني وأخذوه بالركلات، وعندما عاد بعد نصف ساعة، كان يئن من الضرب والكدمات. قال بصوت مبحوح وهو يسحب بطانيته على رأسه: « أعطوني علاجاً جيداً للخلاص من الأرق.»

أعلن العريف فتحي بعد مراسيم الصباح وهو يقدم لنا الزائر الغريب: «إنني سعيد بوصول ضابط الاستخبارات الجديد المقدم خورشيدي، فهو يتمتع بخبرة واسعة وكفاءة عالية في التعامل مع الأسرى، وكان يعمل في معسكرات الأسرى العراقيين في طهران، ولديه صلاحيات واسعة. أرحب به باسمكم جميعاً، وسيتولى السيد المقدم مهمة اكتشاف الرؤوس الحقيرة التي تحاول تعكير الأمن في المعسكر وتحض على الفوضى ومعاداة الجمهورية الإسلامية.»

قبل أن ينصرف فتحي نظر إلينا وعلى وجهه ابتسامة شامتة. اعتلى المقدم خورشيدي منصة العلم وأذبال معطفه المطري تتموج خافقة في الهواء البارد الذي مزق وجوهنا وأذاننا، راحت عيناه تجولان في وجوه الواقفين المتيبسة من الجوع والبرد، أشار إلى شيركو أن يقف بمحاذاة المنصة ليترجم ما سيقوله.

فرك خورشيدي يديه قائلاً: « هنالك مثل فارسي يقول : «من لا يضرب ولده في الصغر، سيلطم صدره فيما بعد.» وأنتم لست صغاراً، لكنكم تتصرفون كالأطفال، ولا بد أن تنتهي هذه الفوضى. لا تنتسوا أنكم وقعتم في أسر القوات الإيرانية على أرض إيرانية وكانت فوهات بنادقكم حارة. لقد فقدنا عشرات بل مئات الآلاف من جنودنا، فهل راح هؤلاء بضربة شمس أو في هزة أرضية؟ أنتم من قتل جنودنا، فهل توقعتم أن تأتوا إلى هنا لتأكلوا وتشربوا وتناموا جزاء ما فعلتم؟ كلا وألف كلا، لن تعودوا كما جنتم، فلا سبيل للخلاص من انتقامنا إلا بوسيلة واحدة فقط، أن تعلنوا توبتكم عما اقترفتموه بحق بلدنا، لكن إعلان التوبة لن يقبل من دون إعلان الولاء للقيادة الإسلامية في

إيران وولاية الفقيه مثلما فعل أخوان لكم في معسكر الحشمتية والقوة الجوية وبرندك وآراك ومشهد وزنجان وجرجان، وتعاونوا معنا في تشخيص المشاغبين والمخربين الذين ما زالوا على ما هم عليه على الرغم من الأسر والبعد عن العراق بعشرات مئات الكيلومترات.»

سكت قليلا ممعنا النظر في وجوهنا لمعرفة ردة الفعل على تهديداته: أخبرنا أنه لا يريد سماع قوائم لا تنتهي من الاحتياجات، وأن نكف عن الشكوى فالبلاد تعاني من مشاكل داخلية كثيرة والحكومة مشغولة بمعالجتها، هناك الحرب مع العراق، والتمرد في كردستان، وعمليات التخريب والاعتقالات التي يقوم بها عملاء «مجاهدي خلق» وحزب «تودة»، والاضطرابات في سيستان وبلوشستان، ومشاكل اللاجئين الأفغان والعراقيين، ومطاردة مهربي المخدرات، والمؤامرات التي يحيكها عملاء الاستخبار العالمي، والاعتقالات التي لا تنتهي، فقبل أيام اغتالوا آية الله صدوقي، وقبله رجائي وباهنر، وقبلهم اغتالوا بهشتي واثنين وسبعين من كبار مسؤولي الدولة مرة واحدة. قال: «إن البلاد تعاني من وضع اقتصادي صعب بسبب الحصار المفروض عليها من قبل الشيطان الأكبر، أميركا، ومع ذلك تشكون من أوضاعكم. يقول المثل «كنت أشعر بالأسى لأنني حاف حتى رأيت رجلا بلا قدمين». احمدا الله أنكم ما زلتم أحياء، وهناك من الإيرانيين من يحسدكم لأنكم تأكلون خيزا وتجدون رزا.»

توقف لحظة عن الكلام وانفرجت شفتاه عن ابتسامة لم نعرف كنهها حينذاك: «هنالك خبر مفرح كان الإخوة المسؤولون في المعسكر يحاولون تأجيل إعلانه إلى وقت مناسب، لكنني رأيت إعلانه الآن. إن بعض الأسرى المؤمنين الطيبين ممن عرفوا الحق فاتبعوه وعرفوا الباطل فاجتنبوه، أعلنوا ولاءهم للإسلام والقيادة الإيرانية، وانتظر أن يتضاعف العدد ليصبح جميع الأسرى في هذا المعسكر من المؤمنين، وبالتأكيد ستكون معاملتهم معاملة متميزة؛ لأنهم يستحقون كل تقدير، واعتبارا من هذا اليوم، سيكون الأرشد العام الأسير النائب ضابط حسين عباس وسيتولى اختيار أرشد جديد لكل قاعة، والويل لمن يتعرض لهؤلاء المؤمنين أو يخالف أوامرهم.»

أخرج خورشيدي ورقة من جيب سترته الزرقاء: «هذه جملة من القرارات التي لا أتهاون في تطبيقها حرفيا: اعتبارا من صباح يوم غد سترددون في مراسيم العلم هتاف «الموت لصدام»، إذا حدث شجار بين اثنين فالعقوبة تشمل جميع الأسرى، الغناء ولو على انفراد ممنوع، الضحك بصوت عال ممنوع، الثناء على الجيش العراقي ممنوع، الدفاع عن صدام ممنوع، الاحتفال بالمناسبات الوطنية العراقية ممنوع، الحديث عن مزاعم الجوع وسوء المعاملة ممنوع، التجمعات في الساحة ممنوعة، التبول وقوفا في المرافق الصحية ممنوع. يعاقب كل من لا يقف استعدادا عند مرور عسكري إيراني من رتبة جندي أول فما فوق، ومن لا يسلم ما لديه من خاتم ذهبي أو نقود عراقية أو ساعة يدوية أو راديو أو آلة جارحة أو قنينة زجاجية أو معدنية أو مطاطية، يعرض نفسه للسيط و يعاقب كل من لا يدلي بمعلومات صحيحة عن رتبته و وحدته ودرجته الحزبية، ومن يخالف أوامر الحراس والجنود و جنود الانضباط وضباط الصف ونواب الضباط والضباط من المسؤولين في المعسكر، ويعاقب كذلك من يخالف تعليمات أرشد القاعة أو الأرشد العام، ويعاقب بعقوبات قاسية جدا من يتحدث مع الحراس من وراء الأسلاك الشائكة أو من يعترض أو يحتج على رجال الدين من المحاضرين، واعتبارا من هذه الليلة، يتولى الأسرى الحراسة داخل القاعات ويكونون مسؤولين أمام الجنود وضباط الخفر، ويتولى الحراسة طيلة الليل ستة أسرى ضمن ثلاث

وجبات تبدأ من التاسعة مساءً وتنتهي في السادسة صباحاً، وتتشكل وجبة الحراسة من حارس وأمر حرس، أما عريف الخفر فيكون من الأسرى التوابين، ولن تقتصر عقوبة المقصر في واجب الحراسة على الضرب والوقوف حتى الصباح وإنما أيضاً يقوم بالحراسة لثلاث ليال كاملة في المرافق الصحية.»

تطلع في الوجوه قائلاً: « ألقيت عليكم الحجة والذكي منكم من درأ عن نفسه العقاب. » رفع فوزي يده: « أعا، منذ ستة أشهر ونحن نرجو من المسؤولين بتسجيل أسمائنا في قوائم الصليب الأحمر أسوة بالأسرى الآخرين، وعدد الذين لم يسجلوا هو خمسمائة أسير وجميعهم من أسرى خرمشهر.»

تساءل خورشيدي وقد أمال رأسه: « الصليب.. الصليب.. لماذا الإلحاح على هوية الصليب؟» « من أجل أن يعلم أهلنا أننا ما زلنا على قيد الحياة وأنا ننعّم بالصحة والعافية والأمان.» هزّ المقدم رأسه متظاهراً بالرأفة: « وإن كنت لا أجد مبرراً لمثل هذا الاهتمام بامتلاك بطاقة لا تتفع ولا تضر، إلا أنني أؤكد لكم لو كان الأمر بيدي لفعلته من أجل راحتكم فقط، لكن الأمر تقرره الجهات العليا في طهران وسأنقل طلبكم.»

« حلت الكارثة» تلك العبارة أو معناها أصبحت محور أحاديث الأسرى، وبدأ بعضهم في إعلان توقعاته التي لم تشر في كل الأحوال إلا للمزيد من العقوبات والضغط والمزيد من عمليات غسل الدماغ، والبعض الآخر لم يخف حنينه إلى الأيام الماضية فالأسرى لن يعرفوا الراحة والهدوء بعد اليوم، أما أنا فتوقعاتي تجاوزت ذلك، فتعيين الرجل المسن الساذج حسين عباس أرسداً عاملاً لا يعني شيئاً خطيراً مهماً، ولا الإعلان عن وجود موالين لإيران من بين الأسرى في المعسكر، وإنما يكمن الخطر في أن خورشيدي سيبالغ في إذلالنا ويضعنا من خيارين: التعذيب حتى الموت أو إعلان الولاء لإيران، أو التوبة كما يريدونها الإيرانيون.

حلت الكارثة إذن.

لم يدر أحد حتى هذه اللحظة إن كنا سنردد شعار «الموت لصدّام» في اليوم التالي أم لا. إن الأسرى جميعاً، عدا نفر يعدون على الأصابع، لا يحبون صدّام، ولا يتردد أسرى كثيرون في البوح بما عانوه من اعتقال ومطاردة من قبل أمن النظام ومخابراته واستخباراته، وذكر من أعدمهم صدّام من إخوة وأقارب ومعارف وأصدقاء، كما أن من بين الأسرى عدداً من الأكراد الذين سبق لهم القتال ضمن صفوف البيشمركة، وبينهم أيضاً مؤيدون وأنصار للحزب الشيوعي، إضافة إلى أن غالبية الأسرى هم من مدن وسط وجنوب العراق، فكانوا مضطهدين قبل أن تضرم نيران قادسية صدّام، ومع ذلك لم يملك أحد الجزم باستجابة الأسرى لتهديدات خورشيدي، ربما يرفضون ترديد الشعار تعبيراً عن الاستياء والاحتجاج على ما يلقونه من معاملة وما يعانونه من جوع وتعذيب.

أدركت بقلق مشوب بالهلع أن مواجهة غير متكافئة ستقع لا محالة بين أسرى مساكين جياع، وخورشيدي بكل ما يملكه من صلاحيات وبما وضع تحت تصرفه من قوات الجيش والتعبئة وحرس الثورة وبما يدخل ضمن صلاحياته من قطع للسجائر والحرمان من وجبات الطعام.

وقف الأرشد العام الجديد حسين إلى جانب سارية العلم قبل بدء مراسيم العلم ومجيء المسؤولين، فرك لحيته الطويلة والبيضاء تماما عند الذقن قائلاً بود ورجاء: « المسؤولين مصررون على لزوم تنفيذ أوامره، ولن يتهاونوا أبداً، فالإيرانيون مشهورون بالعناد؛ لذلك أحذركم من بطشهم، وأنصحكم بالالتزام بما يطلبون من أجل سلامتكم ومن أجل عائلاتكم التي تنتظر عودتكم سالمين، فلا تخيبوا أملهم فيكم، فنفذوا التعليمات لتتجنبوا الضرب والإهانة. »

قاطعهُ أحد الأسرى غاضباً: « وترديد الشعارات المعادية للعراق، أليس ذلك إهانة؟»

رد حسين مضطرباً: « ليست هناك إهانة؛ لأننا نفعل ما يأمرونا به، فنحن مجبرون.»

سأله آخر: « أنت عراقي، فكيف ترضى أن تشتم أهلك وبلادك؟»

« الإيرانيون يريدوننا أن نشتم صدام وليس العراق.»

صاح أسير من الصفوف الأخيرة: « إذا شتمنا صدام اليوم، سيطلبوننا غداً بشتم الجيش العراقي، وفي اليوم التالي نشتم العراق والعرب.»

قال حسين: « إن أهلنا والعراق بخير ولن تؤثر فيهم شعارات يرددها أسرى معزولون عن العالم بالعشرات من خطوط الأسلاك الشائكة.»

سأله أحدهم: « إذا كانت الشعارات لا تؤثر فلياً الإصرار على ترديدها؟»

« نحن جميعاً متفقون أن الشعارات لا تفعل شيئاً، لكن المسؤولين الإيرانيين لا يعتقدون ذلك، ليس في هذا المعسكر فقط بل في كل أنحاء إيران، فهم يؤمنون أن حفظ الاستقلال والقضاء على الأعداء لا يمكن أن يتحقق بدون ترديد الشعارات، قالها مرة حسين منتظري، نائب الإمام الخميني إن هتافات الإيرانيين ستسقط أميركا. سمعت أنهم يخصصون ساعة كاملة لترديد الشعارات قبل بدء خطبة صلاة الجمعة التي تقام في جامعة طهران، وهذا ما يفعلونه في كل إيران، إنه قانون. »

عقب أحمد القيسي بصوت مسموع: « إنها البداية ليس إلا، فما إن نستجيب لأمر حتى يطالبونا بأصعب منه، والتنازل يعقبه تنازل.»

ابتعد الأرشد حسين عباس قليلاً من حافة السارية واضعاً كفه النحيفة المليئة بالعروق وراء أذنه الكبيرة: « عفواً، ماذا يقول الأخ؟»

أجابهُ أحمد حائفاً بسؤال آخر: « هل تتعهد لنا بأن المسؤولين لن يطلبوا منا أكثر من هذا؟»

ارتفع صوت علي الرفاعي، وهو شاب جريء: « أمضى حسين عباس ثلاثين سنة في صفوف الجيش متعهداً كل يوم بالولاء له، وها هو اليوم يصبح عدواً له.» قال الأرشد العام وكأنه لم يسمع الرفاعي: « أقدر مشاعركم؛ لأنني لا اختلف عنكم، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟ نحن في قبضة الإيرانيين.»

حين استدار لمغادرة المكان، قفز علي الرفاعي نحوه وانهاه عليه بالصفعات، هب الأسرى لإبعاده عنه خوفاً من انتقام خورشيدي، لكن أربعة من الجنود ركضوا نحو الساحة وانقضوا على الرفاعي، ضربوه بوحشية ودفعوه أمامهم إلى الباب النظامي.

خيم الصمت على الجميع في ذلك اليوم شديد البرودة. اصطكت أسناني وارتجفت ولا أدري إن كان ذلك من البرد أو من العقوبة التي توقعتها من خورشيدي، التفت فرأيت الواقفين حولي

يرتجفون أيضا. جاء خورشيدي مسرعا وخلفه تراكض جنود كثيرون. طوقنا الجنود بهراواتهم بينما صعد خورشيدي المنصة ومعه الأسير اسكندر كمترجم جديد، واسكندر هذا شاب دارت حول سلوكه شائعات وحكايات لا حصر لها. قال خورشيدي خافيا يديه في معطفه المطري: « مصيبتكم أنكم تنتسون بسرعة. بالأمس حذرتكم من مغبة العصيان ومخالفة الأوامر، لكنكم توغلون في المخالفة أكثر، فأوامر الأرشد العراقي هي أوامري، وأوامري هي أوامر أمر المعسكر، وأوامره أوامر رئيس الأركان، وأوامر رئيس الأركان هي أوامر رئيس الجمهورية، وأوامر رئيس الجمهورية هي أوامر الولي الفقيه، وأوامر الولي الفقيه هي أوامر القرآن والإسلام، وقد أقمت عليكم الحجة، وبعد هذا يقوم أحد المشاغبين بالتهجم على المؤمن المتدين المسكين حسين عباس ويتهمه بالخيانة. بالأمس، طلب مني حجة الإسلام الشيخ محمود سعيدي أن أبذل غاية جهدي من أجل راحتكم وتوفير احتياجاتكم، فأخبرته أن معظم الأسرى هنا في طريقهم إلى الهداية والولاء، لكنكم تعرقلون كل ما أريد بذله من جهود. يقولون عندنا ( إن عين النبع يمكن أن تسد بمجرفة، لكنها إذا امتلأت لا يمكن عبورها على ظهر فيل)، وما دمت أملك المجرفة فلن أضطر للذهاب إلى الهند بحثا عن فيلة.»

أمر خورشيدي جنوده بإحضار علي الرفاعي، وحين رأينا الدماء قد غطت وجهه، غلت نفوسنا بالغضب الذي ألجمته بنادق الحراس وهراوات جنود الانضباط. أشار إليه خورشيدي قائلا: « كان بمقدور هذا المشاغب أن يبقى واقفا معكم، ويذهب عندما تذهبون لتناول إفطاركم، لكنه يريد أن يكون بطلا، وها نحن أمامكم سنطبع على جسده نياشين البطولة.»

خلع الجنود قميص الرفاعي ومددوه على منصة العلم، تناوبوا على ضربه بالسوط المبروم، إلا جنديا واحدا من فصيل الانضباط بقي في مكانه، فصرخ فيه خورشيدي أن يشارك زملاءه، فترجع الجندي علي مشهدي إلى الوراء قائلا: « أقسمت أمي علي أن لا أضرب أسيرا إلا دفاعا عن نفسي.»

هدده خورشيدي بالمحاكمة أمام محكمة عسكرية، فأجاب مشهدي: «لا أريد معصية أمي، وهي لم تطلب مني في حياتي شيئا غير هذا.»

أمر خورشيدي الجنود باعتقال مشهدي وأخذه إلى إدارة المعسكر، ودعناه بنظر اتنا صامتين، أما الجنود الآخرون فواصلوا جلد الرفاعي، أحسسنا بالسياط تلهب ظهورنا، بصرخاتنا تتردد في أعماقنا. فجأة قفز المرشد العام حسين عباس نحو خورشيدي ساحبا يده محاولا تقبيلها، لكن خورشيدي سحب يده في رد فعل لإرادي متراجعا إلى الوراء وقد جحظت عيناه، فقال حسين متوسلا: «أغا، أرجوك أن تعفو عنه.»

نظر إليه خورشيدي باحتقار: «هل دفعك خوفك منه إلى التوسل للعفو عنه؟ كيف تخاف منه وأنت في حمايتنا؟»

طأطأ حسين رأسه مجيبا بصوت تخنقه العبرات: «لا أحب أن أراه يتعذب بسببي، إنه بعمر أصغر أولادي، إنني أرى ولدي الآن يجلد أمامي.»

زَمَّ المقدم شفثيه، أشار إلى الجنود أن يكفوا عن الضرب. نهض الرفاعي وعيناه تغمزان من الألم. صاح خورشيدي بالجنود أن يأخذوه إلى السجن الانفرادي. رفع ضابط الاستخبارات قبضته

في وجوهنا: « الآن سأختبر طاعة الباقين.. رددوا بعدي: الموت لصدام.»

لم يسمع سوى أصوات قليلة خافتة خجولة، فنزل من المنصة واختار عشوائيا عددا من الأسرى، كنت واحدا منهم. أمرنا بالوقوف قرب منصة العلم، دار حولنا شابكا يديه خلف ظهره، وقف أخيرا مواجهنا لنا وأمرنا بتزديد الشعار. بقيت ساكنا والآخرين كذلك، اكتشفت في تلك اللحظة أن امتناع الأسرى عن تزديد الشعار ليس بسبب الاحتجاج على سوء المعاملة فقط، وإنما أيضا بسبب الخوف من الأسرى الآخرين أن يشي بعضهم ببعض الآخر إذا ما عاد الأسرى يوما إلى الوطن، فربما سيتهمون بأنهم رضخوا لأوامر الإيرانيين وشتموا صدام حسين، وحينذاك سيتذكر الجميع أن السياط المبرومة هي أرحم من ساحات الإعدام وسرايب المخابرات. أوما خورشيدي إلى الجنود بضرينا بالهراوات والسياط، فصرخت عاليا وقفزت متألما من صعقة السياط، تكومت على الأرض فازدادت الضربات والركلات قسوة. نظر خورشيدي إلى ساعته، داعيا الجنود إلى بدء مراسيم رفع العلم والدعاء.

بعد الإفطار، ضجت القاعات بنقاش حاد: هل سنقول الموت لصدام أم لا. ردد البعض تبريرات الأرشد العام من أن الشعارات لا تسقط العراق، فيما رأى البعض الآخر أن تزديد الشعار سيليه طلب آخر كأن يطلبوا منا التطوع لقتال الجيش العراقي في جبهات المعارك، لكنهم جميعا تجنبوا إعلان مخاوفهم من النظام في بغداد وأجهزة أمنه واستخباراته إذا ما عادوا يوما إلى العراق. كثيرون من الأسرى برروا موقفهم بأن عدم تزديد الشعارات سيعرضنا لعقوبات قاسية، و سنضطر أجلا أم عاجلا إلى تنفيذ أوامر خورشيدي، وكان ذلك رأيي أيضا لكنني أحجمت عن الإفصاح به كي لا أخيب ظن من أثنى عليّ ومن دعا الآخرين أن يقتدوا بي في رفضي لتزديد الشعارات.

بعد الغداء مباشرة، انطلقت صفارة خورشيدي فتجمعنا في الساحة نحاول تهيئة أنفسنا لسلسلة جديدة من العقوبات، أمرنا بالزحف على حصى الساحة من أقصاها إلى أقصاها، فداست أذنية الجنود رؤوسنا وظهورنا، تقياً عدد من الأسرى، وأجبرهم الجنود على الزحف على قبيهم. أمرنا بالهرولة بسرعة، ومن تأخر لسعت السياط ظهره، زحفنا من جديد ثم ركضنا وبعدها زحفنا وركضنا حتى أذنت الشمس بالغروب، فتركنا الطاغية للصلاة. كانت الصلاة فرصتي لأسترد أنفاسي المحشورة في صدري، وما إن انتهت صلاتنا حتى هرولنا باتجاه القاعات بحثا عن الدفء والقليل من الطعام، لكن خورشيدي قطع علينا الطريق: « إلى أين؟ هل نسيتم أن اليوم هو الخميس؟ اجلسوا في الساحة وقرأوا « دعاء كميل » عسى أن يغفر الله جرائمكم بحق جمهورية إيران الإسلامية.»

حين انتهينا من الدعاء والتكبير، وقف ضابط الاستخبارات أمامنا شادا معطفه المطري على جسده أكثر، أخبرنا أنه لا يزال يشعر بالعطف علينا؛ لذلك أمهلنا خمس دقائق لتناول العشاء والعودة إلى الساحة.

حملنا أوعيتنا المعدنية ووقفنا في طوابير طويلة لاهئين من التعب والألم، لكن صفارة خورشيدي أعلنت انتهاء المهلة، فرمينا أوعيتنا على الأرض وركضنا إلى الساحة مذعورين متعبين، ركضنا كقطيع ماشية تطارده كلاب الحراسة. كانت السياط والهراوات والركلات تتال منا، سقطنا على

الأرض الواحد تلو الآخر، فتم تعدادنا ونحن ممدّون على الأرض متلوون من الألم ومنكمشون من  
البرد.

\* \* \*

تلبدت السماء بالغيوم حاجبة قمم الجبال الجرداء الشاهقة والقرى البعيدة، وهبت ريح باردة خفيفة. تمددت على سريري عصر ذلك اليوم متطلعا إلى الساحة من كوة النافذة الصغيرة القريبة. كان الأسرى يواصلون دورانهم اليومي، يكررون أحاديث الذكريات. مازالت الأرض تدور، والأيام تتوالى، وها هي الجمعة الثانية من كانون الأول (ديسمبر) قد حلت وليس هناك تباشير نهاية قريبة للحرب أو حدوث معجزة تعيدنا إلى الوطن البعيد، ونحن ما زلنا ننتقل من عقوبة إلى عقوبة أكثر قسوة. هناك، على حافة منصة العلم كان كاظم الخباز يجلس متطلعا إلى الجبال، متابعا بنظراته الغيوم المندفعة نحو الغرب، متحسسا بأطراف أصابعه قطرات المطر، رفع كفيه إلى وجهه، سحبها على تجاعيده وكأنه يتوضأ بقطرات المطر، فرك عينيه الغائرتين، لعله قرأ الفاتحة على روح عبد الكريم قاسم. اقترب منه الشاب فاضل الملقب بـ«أبو النطح»، جلس إلى جانبه. أطلق الأسرى على فاضل هذا اللقب بسبب ضرباته الرأسية في لعبة كرة القدم التي يمارسها الشباب في فترة الظهر بكرة من أسمال ملفوفة، لم تبد على فاضل أبي النطح أية مبالاة بأوضاعنا المأساوية، فهو لا يأسف على شيء قدر أسفه على عدم مشاهدة مباريات كأس العالم، فلم يكن الإيرانيون حينذاك قد وضعوا أجهزة التليفزيون في قاعات النوم. حرك فاضل رأسه وكأنه ينطح كرة في الهواء فضحك كاظم الخباز ضحكة طويلة.

ازدادت قطرات المطر، غادر بعضهم الساحة الآن، لكن هنالك اثنين ظلا يواصلان السير منفردين وبشكل ملفت للانتباه، كان الأول يسير وسط الساحة بسرعة ثابتة لا تتغير، ذلك هو «الحاج ثمانون»، وهو في الثلاثينيات من عمره، ذو شقرة غامقة، واكتسب هذا اللقب بسبب كثرة ما يرويه عما صادفه من مواقف ومتاعب أثناء سفره لأداء فريضة الحج عام ألف وتسعمائة وثمانين، أو لترديده دائما مزايا ما يعتبره أثنى ما يملك؛ ساحة زراعية علامة «عنتر 80». لكن المؤكد أنه رجل لم يكن يُضاهى بكثرة المشي والدوران في الساحة. أما الأسير الثاني فكان يسير في خط مستقيم جيئة وذهابا بموازاة الأسلاك الشائكة، حاملا بيده نصف نعال يضرب به بقوة كل من يدنو منه أو يعترض طريقه، إنه «أبو وفاء» الذي تغيرت طباعه فجأة في الأسبوعين الأخيرين، فانقلب من رجل هادئ متزن يحدثك عن الحرب ساردا خلفية الصراع وتوقعاته بنهاية للحرب دون غالب أو مغلوب، وعن بنته ذات الأربعة عشر ربيعا، وعن دائرة البريد التي يديرها في ضاحية بغداد الجديدة، انقلب إلى رجل صامت شارد الذهن، وإذا كان «حاج ثمانون» يعتبر جزاره الزراعي أهم ما يملكه في حياته، فأبو وفاء لا ينتازل عن نصف النعال حتى لو يكلفه ذلك حياته. حاول الجنود ذات يوم قبل مراسيم رفع العلم انتزاع النعال من يده، فظل يصرخ عاليا مندفعاً نحوهم محاولا نشب أظفاره في وجوههم غير مبال بضرباتهم القوية ولكماتهم وركلاتهم، فاضطروا أخيرا إلى إعادته إليه. لأبي وفاء طريقته الخاصة في إعلان مودته للبعض فيتوقف لحظة ليربت على ظهر ذلك الأسير بنعاله، وكلما كانت مودته أكثر كانت ضرباته الخفيفة أكثر، كذلك لمن يخبره بفشل هجوم إيراني على الأراضي العراقية. قبل يومين، قادني الدوران في الساحة إلى اعتراض طريقه، فرفع نعاله ليضربني لكن أحمد القيسي الذي كان معي أخبره أنني كاتب قصص للأطفال، فتوقف أبو وفاء قائلا: «أنا أحب وفاء وأحب كل الأطفال، إذا أنت تستحق المكافأة، استدر لأضربك على ظهرك خمس مرات.»

سقط المطر بغزارة، وغادر الأسرى الساحة، و بقي أبو وفاء وحده مواصلا سيره قرب الأسلاك الشائكة، غير عابئ بالمطر الذي بلله تماما. قررت النزول إلى الساحة وإقناعه بالذهاب إلى قاعته، في تلك اللحظات، ظهر فراس توفيق، ذلك الشاب الذي تعرفت عليه عندما كان جالسا قبالي في إحدى عربات القطار الذي حملنا من الأهواز إلى طهران، اقترب من أبي وفاء محاولا إقناعه بمرافقته إلى القاعة، لكن أبا وفاء ضربه بالنعال، وكان لا بد لفراس أن يلجأ إلى الطريقة الوحيدة التي تبعد أبا وفاء عن الساحة وهي استفزازه وجعله يطارده حتى القاعة، ولا يستقره إلا القول إن الإيرانيين سيحتلون بغداد. ركض أبو وفاء وراء فراس حتى اختفيا في القاعة الخامسة.

كلما أرى الأسير الشاب فراس توفيق، أتذكر تلك الليلة الطويلة التي أمضيها في القطار بعد أسرنا بثلاثة أيام، وكلما تحدثنا عنها ضحكنا، ولا يكف زيني عن مزارحته بسؤاله عن السبب الذي منعه من الهروب تلك الليلة.

توقف القطار بعد ساعتين، أي حوالي التاسعة ليلا، في محطة «انديمشك»، وقد قرأت اليافاطة المعلقة تحت الأضواء، لكنني لم أر أحدا من الركاب المتجمعين على رصيف المحطة يصعد إلى القطار فأدركت أنه كان مخصصا للأسرى. شاهدت من وراء زجاج النافذة الجندي الانضباط الأسمر الذي كان يقف عند باب المقصورة والذي وزع علينا علبة سجائره، يسرع إلى حانوت وبيتاع شيئا، وعند عودته، قدّم لفراس علبة بسكويت صغيرة، قائلا بالعربية: « خذ، فأنت لا تدخن.»

أدار الجياح الآخرون رؤوسهم بعيدا عنه ليضمها دون أن ننغص عليه لذتها، لكنه راح يوزع قطع البسكويت على الجالسين العشرة في المقصورة. بعد نصف ساعة من مسير القطار، توقف فجأة وتعالى صرير فرامله وتراكض الجنود الحراس نحو مؤخرة القطار، وسمعنا صياحا ثم لعل صوت الرصاص، وبعد قليل، صعد الجنود يقهقهون وتحرك القطار. قال الجندي الأسمر: « حاول أحد الأسرى الهروب من نافذة مكسورة في دورة مياه المقطورة الأخيرة، لكن الجنود لحقوا به وقتلوه.»

عندما انتصف الليل، والقطار يشق طريقه سريعا وسط فضاء مظلم، تدلت رؤوس الجالسين وراحت تهتز مع حركة القطار. خرج فراس لقضاء حاجته يرافقه الجندي الأسمر، وحينما عاد أمال رأسه نحوي، هامسا: «في عربتنا هذه اثنان من الجنود الانضباط وحارسان مسلحان يقفان عند نهايتي ممر العربة وقريبا من الأبواب، وأحد الحارسين يغط في نوم ثقيل وبندقيته في حضنه، أما الآخر فلا بد أنه سيغفو بعد قليل، وهناك جندي انضباط يتقعد المقصورات الأخيرة بين أونة وأخرى، والجندي الانضباط الثاني هو صاحبنا الذي هو بالتأكيد من عربستان، وربما سيغض الطرف عنا، ولا أعتقد أن الإيرانيين في النهاية سيبالون إن نقص عددنا اثنين أو عشرة.»

لم يستغرق التفكير في المغامرة الخطيرة سوى بضع دقائق، فرغم ذهولنا وإحساسنا بالضيق لم نتردد في الموافقة على القيام بها، فليس أمامنا خيار آخر، حين أمرنا العدو أن نضع سلاحنا على الأرض، فهو قد أجبرنا أن نتنازل أيضا عن حريتنا وإنسانيتنا وإحساسنا بالحياة، فماذا بقي لنا إذا؟

وقف الجندي الأسمر عند باب المقصورة مرددا أغنية عراقية. تقدم نحو النافذة متطلعا إلى الظلام. قال لنا بود: « ما زال الطريق إلى طهران طويلا، وعليكما أن تتاما قليلا، فالساعة الآن الواحدة صباحا ونحن لم نقطع حتى الآن نصف المسافة، وبعد طهران تنتظركم رحلة طويلة

أيضا. « أضاف قبل أن يبتعد عن المقصورة: « لن أقفل باب المقصورة كي لا تتحرجا في الذهاب إلى دورة المياه.»

مر من الوقت ساعة، فضغط فراس على يدي ونهض، همست في أذنه إن كانت الأحوال على ما يرام، فعليه أن يقفز من نافذة دورة المياه ويتجه غربا وأني ألحق به بعد ذلك بقليل، ربت على كتفه و تظاهرت بالنوم.

الأمر أصبح جديا وليس مجرد افتراضات أو تسلية النفس باستعادة مشاهد سينمائية، فهل الأمر بهذه البساطة؟ إنها مغامرة لا نخسر فيها شيئا؛ لأننا ببساطة لا نملك شيئا. مرت الدقائق بطيئة ثقيلة، وتسارعت نبضات قلبي حتى خيل لي أنني كنت أسمع دويها. لم يكن هنالك أحد في الممر سوى الجندي الأسمر واقفا عند نهاية الممر واضعا رأسه على ذراعيه المسندتين على حافة نافذة مفتوحة. حين وصلت نهاية الممر الأخرى، وجدت الحارس نائما مسندا ظهره على باب المقطورة وقد سقط رأسه على كتفه وتهاوت يده على البندقية الموضوعة بين فخذي، أدت مقبض باب دورة المياه فوجدته مقفلا. هل قفز صاحبي من النافذة ونسي الباب مقفلا؟ أدت المقبض من جديد فانتهبه الحارس ناظرا إليّ بعينين نصف مفتوحتين، فجمدت في مكاني، لكن الحارس غط في النوم ثانية، فعدت إلى المقصورة أفكر في خطوتي التالية، لكنني فوجئت بفراس يعود إلى مكانه بوجه شاحب. قال لي وشفاه ترتجفان: « لا تظن أنني ترددت أو خفت، ولا تظن أنني عدلت عن الهروب خوفا من الموت تحت عجلات القطار أو برصاص الجنود. بدا كل شيء وكأنه قد أعد لهروبي، حتى النافذة لم أواجه عناء في فتحها، لكنني غيرت رأبي لا خوفا ولا جبنًا، بل لأنني تذكرت طيبة هذا الجندي العربستاني وعلبة البسكويت، فهل ترضى أن نجازيه بالهروب ونتركه يواجه عقوبة شديدة؟»

هزرت رأسي مؤيدا وجهة نظره كاتما ضحكتي.

حل الليل واشتد البرد فارتفعت رائحة الرطوبة والعفونة، وبعد الصلاة وسرط حبات الحمص والفاصوليا والتمضمض بمائهن الأصفر الدافئ، ازدحمت الأسرة في الطابق الأوسط المواجهة لجهاز التليفزيون المثبت فوق رف يعلو غرفة أرشد القاعة، بالأسرى وارتفع ضجيجهم. دخل القاعة جنديان إيرانيان يصحبهما الأرشد العام حسين عباس، كان حسين يرتدي هذه المرة معظفا سميكا قديما، ولا بد أن الإيرانيين وهبوه المعطف تشجيعا له على مواصلة مهمته. نظر حسين باستغراب للجالسين على الأسرة، وتطلع إليّ متسائلا: «هل تنتظرون مشاهدة فيلم هذه الليلة؟»

أجيبه من دون أن التفت إليه: « أية أفلام؟ إنهم يعرضون أفلاما قديمة جدا عصر يوم الجمعة وليس في مسائها. عرضوا عصرا فيلما لم نر فيه أية امرأة، وبفضل التقطيع كانت مدة عرض الفيلم نصف ساعة فقط.»

سأل بنبرة أكثر ليونة: « إذا، تنتظرون مشاهدة مباراة بكرة القدم.»

« كلا.»

« ماذا تنتظرون؟»

أجيبته متضايقا: « برنامج كزارش هفتكي» (التقرير الأسبوعي).»

قال متهكما وهو يدير عينيه بين الجالسين: « كل هذا الازدحام من أجل برنامج إخباري؟ لا بد أنها تعليمات أصدرها أقطاب الشغب من جماعة علي الرفاعي، وليكن في علمكم أن لجنة المساعي الحميدة قد واجهت الفشل، وأن الرئيس سيكيورتي..»

قاطعته مصححا: « الرئيس سكتوري.»

« الرئيس، أيا كان اسمه، أعلن أن مساعي لجنته لم تحقق شيئا، لذلك لا تتعبوا عيونكم بلا فائدة، فالحرب لا تنتهي بهذه السهولة.»

توقف الأرشد العام عند فاضل أبي النطح الجالس في الطابق الثاني من الأسرة، رفع رأسه نحوه مبتسما: « ها، أبو النطح، منذ متى وأنت مولع بمتابعة الأخبار؟ ما رأيك يوما إلا وأنت أما تلعب بكرة الخرق البالية أو تتحدث عن فريق «الطيران» أو «الزوراء» أو «الشرطة».

فرك «أبو النطح» جلدته رأسه باسماء: « هل تدري؟ لو أصدق الأخبار لتابعته، ولو تابعتها لانفجر رأسي منذ وقت طويل. هل تدري؟ هذا البرنامج هو النافذة الوحيدة التي نرى من خلالها أحوال العالم كيف أصبحت، موديلات السيارات الحديثة، نرى نساء بلا حجاب.»

لم يتقوه الأرشد العام بأي تعليق، بل استدار خارجا من القاعة. تابعه أبو النطح بنظرات طافحة بالاشمئزاز لاظما الهواء بكفيه، لكن سرعان ما انفجرت أساريره مع بداية فقرات البرنامج التلفزيوني. تصاعدت تعليقات الأسرى على أنواع السيارات الحديثة التي ظهرت في اللقطات السريعة عن المدن الأوروبية التي تعاني من البطالة كما قال البرنامج، لكن الضجيج بلغ منتهاه عند عرض الفقرة الثانية من البرنامج، فتيات شقراوات في عرض راقص، فالتفت زيني نحوي بنظرات تقضح دهشته وفرحه بتلك الصور، فقلت: « التقرير يتحدث عن مرض خطير جديد يبدو أنه سيكتسح العالم يدعونه «الإيدز» وأكثر طرق انتشاره هي ممارسة الحب مع المصابين.»

تأوه أبو النطح: « بممارسة الحب؟ أتمنى، مع مثل تلك الشقراوات، أن أصاب بالإيدز مرتين.» حاولت عبثا اقتناص إغفاءة قصيرة فنوبتي في الحراسة كانت تنتظرنني بعد منتصف الليل، بدأت مغمض العينين بكتابة فصل جديد من روايتي، لكن في الفقرة الثانية، هزّ أحدهم قدمي فقد حان دوري في الحراسة المقيمة التي لا بد من مواصلة السير خلالها في ممر ضيق لثلاث ساعات، وكان ذلك أمرا مملا متعبا.

كان منظر القاعة أثناء الليل يبعث على الكآبة والحزن، مائتا أسير ينامون على أسرة رتبت سريرا فوق سرير، فيبيدون كالأرانب المسكينة المستلقية في أفقاصها داخل قبو مختبر للتجارب، لكن الفرق أن الأرانب تغذى جيدا وتراقب أحوالها بعناية ويتم فحصها بدقة. ربما وجد المسؤولون عند زيارتهم للقاعات في الليل هذا المنظر مثيرا للفضول أو مدعاة للشماتة، فقد جاء العريف فتحي أكثر من مرة بأقارب له ليشبعوا فضولهم بمشاهدة الأسرى وهم نيام، واصطحب رئيس العرفاء أفساري ذات ليلة شخصا قال عنه إنه ضيف عزيز جاء إليه من طهران من أجل رؤية أسرى عراقيين، أما اعتمادي فكان يصطحب أقاربه ليمتعهم برؤيتنا عندما يعاقبنا بالوقوف ساعات طويلة من الليل بجانب الأسرة.

لا تعرف القاعة سكونا في الليل، بعض الأسرى يقضي الليل أرقا يتقلب في فراشه، وبعضهم يتردد بين الحين والآخر على المرافق الصحية التي تبعد حوالي أربعين خطوة عن باب القاعة

ليستغل ذهابه وعودته في تنفس هواء منعش أو مشاهدة النجوم المبتوثة في السماء. بعض الأسرى يتحدث في نومه بصوت مسموع ولكن بكلمات مبهمه، وبعضهم يئن أو ينجب أو يبكي أو يصر على أسنانه حتى يكاد أن يكسرها.

أشغلت نفسي بمراقبة الأسرى في نومهم، كانت ذراع سيد مهدي الموشومة تتدلى بارتخاء، بينما الأسير الذي كان ينام بجواره طرز على وسادته ( الأسر قبور الأحياء وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء). أما الأسير النائم في الجانب المقابل فقد غطى وجهه بمنديل قديم طرز عليه اسم ( نسرين). وفي الممر القريب من الباب، ظهرت ذراع « كريم الشرطي» الذي وشم على عضدها عبارة ( أه يا أمه)، وعند نهاية الممر ألصق أسير شاب بمعجون الأسنان، الذي يوزع مرة كل ثلاثة أشهر، ورقة على الحائط فوق رأسه خط عليها ( أين أنت من غريب قد طالت غربته، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان؟)، وفي الجهة المقابلة من الممر كان ينام «جواد أبو سبع»، الذي كان من نزلاء قسم الأحكام الثقيلة في سجن «أبو غريب»، ولقبه جاء من وشم صورة أسد على كف يده التي وضعها الآن على الوسادة قريبا من وجهه المليء بندب جروح عميقة قديمة.

انتبهت إلى الأسير الذي يشاركني الحراسة فوجدته قد ملّ من الوقوف عند باب القاعة، فتبادلنا موقعينا. وقفت عند الباب أستنشق هواء نقياً، فباغتني ظهور نائب الضابط اعتمادي في جولة تفتيشية سريعة، وقبل أن يغادر سألني: «كيف هي الألواح الخشبية التي وزعت قبل أيام لتوضع على الأسرة متهدلة الأسلاك؟»

أدركت على الفور غاية اعتمادي من طرح السؤال، فهو يريد دائما تذكيرنا بأنه ذو فضل علينا، وعلينا أن نتذكر ذلك قبل تذكر قسوته، وأن يكون ذلك في بالنا إذا ما زارنا مسؤول قادم من العاصمة.

« إنها ممتازة، والأسرى جميعا يدعون لك بالخير.»

درت في الفسحة المحصورة بين القاعتين السابعة والثامنة، مشيت مبتعدا عن القاعتين نحو بناية المرافق الصحية المعزولة والقريبة من الأسلاك الشائكة، وما بعد الأسلاك منطقة صغيرة كانت غارقة في ظلام دامس؛ لأن جدار البناية حجب الضوء الكاشف المنسوب في الجهة الأخرى، وعلى بعد ثلاثة أقدام من تلك الزاوية ثمة ساقية تأتي من أعالي الجبل وتمر أمام المرافق الصحية وتحد نحو الوادي. كانت الساقية خلف الأسلاك مغطاة بشجيرات كثيفة قصيرة وأعشاب استطلت وتفرعت. راقبت الجندي الحارس جيدا، رأيت يقترب من الأسلاك ويختفي في الظلمة ثم يظهر ماشيا إلى المنطقة المضاءة.

«الهروب فكرة جيدة، لكنك لست مؤهلا لها، حانت أمامك فرصة من قبل في القطار ولم تفعلها، لكن كيف الهروب الآن؟ تنتظر نوم الجندي الحارس وتمرر جسداك في الساقية لتعبر من تحت الأسلاك ثم ترحف سريعا متخفيا بين الشجيرات والأعشاب، وعندما تصل إلى السلسلة الثانية من الأسلاك الشائكة لا بد أن تجد فتحة أحدثها الجنود الإيرانيون أثناء تسللهم ليلا إلى المدينة والعودة إلى معسكر تدريبهم، وبعد عبور الأسلاك تركض بكل ما تستطيع من سرعة لتتوغل في الغابة حتى تصل الشارع الرئيس الذي يحاذيها. لا، لن يكون السير آمنا في الشارع أو بمحاذاته، عليك العبور إلى الجهة الأخرى واجتياز التلال المحيطة بالبحيرة، ربما يستغرق ذلك أقل من ساعة،

وتصل بعدها الجبال. ماذا يحدث لو وجدت نفسي وسط قرية من تلك القرى التي نرى أضواءها ليلاً كنجوم في أفق السماء؟ ليس ضروريا اختراق الوديان والقرى لأنهم سيبحثون عنك في تلك المناطق، يتحتم عليك إذا اللجوء إلى مغارة أو كهف أو الاختباء بين الصخور. تبقى هناك حتى يملوا المطاردة أو يتجهوا إلى منطقة أخرى للبحث عنك. ولكن ما طعامي وشرابي طيلة مدة اختبائي وأنا جائع حتى في هذه اللحظة؟ ليس هذا مستحيلا، ربما ستجد حلا. تواصل طريقك بين القرى أخرسا بلا ذاكرة أو هوية، تعمل خادما في أحد المساجد حتى تقترب من القرى على الحدود العراقية الإيرانية وتنتهز الفرصة للتسلل إلى العراق. من يضمن لي أن الجنود العراقيين لن يعتبروني جاسوسا إيرانيا؟ حقا، إنها مشكلة كبيرة، لكن عليك إقناعهم بما لديك من تفاصيل، حين يقتنعون سيساعدونك على عقد مؤتمر صحفي يحضره مراسلو وكالات الأنباء العالمية، حدثهم عن قصي وأبي حميد وعن الظروف القاسية هنا، لكن لا، لا تذكر كل التفاصيل الرهيبة فذلك يؤدي عائلات الأسرى، لا تنس أن تتحدث عن لامبالاة لجنة الصليب الأحمر، قل للصحفيين إن هذه اللجنة كانت ستملأ العالم ضجيجا لو تعرض أسير أوروبي أو أميركي لمثل هذه المعاملة والقتل. ترنح الجندي الحارس في مشيته. هل أستطيع حقا الزحف لمسافة طويلة ثم الهرولة مسافة أخرى؟ كيف لي أن أبتعد ورمصاص الجنود يلاحقني؟ إنها مغامرة مميتة، ولكن لا يلام هارب من حقه.»

اقترب الحارس من الساقية، دار حول الشجيرات، وقف في الظلمة، لعله كان يتمعن في مستغريا وقوفي الطويل غير بعيد من الزاوية المظلمة، لكنه راح يغني بصوت شجي أبياتا من الشعر الفارسي:

« في الليل حيث يفضض ضوء القمر

السهول التي لا حدود لها، راسما بحيرة

أفتح شراع زورق خيالي في مهب الريح..»

قطع الحارس أغنيته وواصل السير، سمعت طقطقة العيدان المتكسرة تحت وطأة حذائه الثقيل. ابتعد عن الزاوية المظلمة. وقف من جديد مسندا ظهره على شبكة الأسلاك واضعا أخصم بندقيته على الأرض المعشوشبة. ماذا دهاك؟ كن جلدا، لن تخسر سوى المزيد من الألم. لا أستطيع تحريك ساقِي، عيناى تزوغان. انظر، حانت فرصتك، الحارس يجلس على صخرة ورأسه يتكى على كتفه وبندقيته مسندة على الشبكة.»

متى بدأ الثلج بالسقوط؟ كانت كفاي متخشبتين وعظامي باردة جدا. ماذا يقول الأرشد العام حسين عباس؟ ومن هؤلاء الذين يقفون بجواره؟ لماذا ينزع معطفه؟ أحسست الآن ببعض الدفء، رأيت الأشياء بوضوح، كان زيني منحنيا عليّ يفرك صدري وعيناها دامتان. شممت رائحة الخراف، والجبال كانت تبتعد والجندي يردد أغنيته بصوت شجي.

في الصباح، وبعد مراسيم رفع العلم، وقف خورشيدي على المنصة متوعدا بحركة سبابته: « أعرف أن بعض المشاغبين يدفعونكم إلى التهلكة؛ لأنهم لا يتمنون لكم العيش في أمان وهدوء، ولن يكون مصير المخالفين أحسن حالا من علي الرفاعي الذي يتعرض إلى التعذيب والجوع ليتأدب، وسترونه بعد أيام قلائل واقفا في هذا المكان يطلب الصفح من «حسين عباس». اكتشفت أنكم لم تلتزموا بترديد الشعارات بقوة ووضوح، لا أريد تكرار ما قلته عن أهمية الشعارات التي لا تقل

أهمية عن الصلاة إن لم تكن، بالنسبة إلينا، أهم منها، لأن الصلاة لله أما الشعارات فهي لنا، وهناك شيء آخر مهم، عليكم من الآن فصاعدا أن تصلوا على النبي الأكرم ثلاث مرات وبصوت عال واضح عندما يذكر اسم القائد حفظه الله، ويكون التكبير ثلاث مرات تليه العبارات التالية: الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، الموت لصدام. لنجرب الآن.»

تطلع خورشيدي بدهشة إلى يد مرفوعة، استفزه ذلك، فصاح بالأسير أن يقول ما عنده. « أغا، ليس لدي اعتراض بل استفسار: المسلمون يصلون على النبي صلوات الله عليه مرة واحدة إذا ذكر أمامهم، فكيف نصلي ثلاثا على من هو أقل مرتبة النبي والأئمة عليهم السلام؟» حدج خورشيدي الأسير بنظرة غضب: « ما اسمك؟»

« فاضل عبد علي.»

« من أية مدينة؟»

« من النجف.»

« لا يعترض على هذه التعليمات إلا حاقدا أو مغرض، ويبدو أنك الاثنان معا. »

أمر خورشيدي جنديين بجر فاضل إلى الباب النظامي لإرساله إلى السجن الانفرادي، ثم طلب من الأرشد العام بترديد الشعارات ليردها الأسرى من بعده. انطلقت أصوات خائفة متباعدة، فأوعز خورشيدي لجنود الانضباط بالانتشار بين الأسرى. أعاد حسين عباس تكرار الشعارات، لكن خورشيدي هز رأسه بالنفي وعدم رضاه، دفع الجنود «أبو وفاء» أمامهم لأنه ظل صامتا. أمره ضابط الاستخبارات بترديد الشعارات، لكنه ظل صامتا، فنزل خورشيدي من منصة العلم وجره من ياقة قميص بذلته وصفعه بقوة. التفت أبو وفاء إلينا متحسسا خده الذي انطبعت عليه كف خورشيدي، أدار رأسه ببطء مواجهها الضابط، رفع يده بسرعة وصفع خورشيدي الذي يتراجع إلى الوراء من أثر المفاجأة الصاعقة. أسعدتني تلك الصفعة التي أثبتت أنه يمكن صفع طاغية متجبر مثل خورشيدي، لكنني شعرت أيضا بالشفقة على أبي وفاء من عواقب فعلته الجريئة التي أناب فيها عنا جميعا. تكوم الجنود على أبي وفاء وانهالوا عليه بالضرب والركلات والرفس، لكنه رد عليهم بضربات ضعيفة بنصف النعال الذي كان يمسكه بيده قبل أن ينهار على الأرض ويسيل الدم من أنفه وفمه.

أمرنا خورشيدي بالزحف في الساحة على الحصى، فواصلنا الزحف بينما كان خورشيدي ينظر إلينا بازدراء ويده اليسرى في جيب معطفه قابضة على الصفارة التي يخرجها بين الحين والآخر ملتذا بالنفخ فيها، أما يده اليمنى فكانت تعصر أصابعها سيجارة شمنا دخانها من بعيد. بعد نصف ساعة من الزحف، انطلقت صفارته طالبا إلينا الركض إلى القاعات، قهقهه عاليا وهو يرانا نركض كالأرانب المذعورة محاولين تقادي هراوات الجنود الراكضين وراعنا والحريصين على أن لا تضع ضرباتهم في الهواء سدى. تتبع خورشيدي بشغف مشهد تساقطنا على أعتاب الأبواب الحديدية وتكوم بعضنا فوق بعض. قبل أن نسترد الأنفاس، انطلق من جديد صوت صفارته المرعب ليعيدنا إلى الساحة والزحف مرة ثانية ولمدة أطول، لكنني قطعت نصف الساحة بصعوبة فتحملت الرفس بأحذية الجنود. أمرنا بالوقوف وترديد الشعارات، وبأعلى ما نستطيع كي يسمعها أهل المدينة والقرى البعيدة، فرددناها كما أراد من أجل أن ننعم ببعض الراحة، ونعنا بها فعلا،

ليس فقط بسبب الإرهاق والتعب، وإنما أيضا لشعورنا بأننا قد تخلصنا من عبء ثقيل وعقدة صعبة، فلم يعد ترديد الشعارات مسألة ذات قيمة.

فرك خورشيدي يديه بحثا عن الدفء، بينما ازدادت أرنية أنفه احمرارا: « لو أنكم رددتم الشعارات منذ البدء لوفرتم على أنفسكم هذا التعب والضرب.» أخبرنا أنه مكافأة لنا، سيذهب ذلك اليوم إلى طهران للسؤال عن الرسائل ولجنة الصليب ووعدنا أن أكياس الرز ومكعبات السكر التي انقطعت منذ شهر ستأتي في الأيام المقبلة. همس زيني الواقف إلى جانبي: « الحمد لله، إنها نعمة كبيرة أن يُزاح هذا الكابوس عن صدورنا ولو لأيام معدودات.»

تساقطت حبات الثلج بعد الظهر، لكنها بعد وقت قصير ازدادت كثافة وأصبحت دوامات تدور في الهواء قبل أن تسقط، غطى الساحة بساط من فراء أبيض، وانزوي الأسرى على أسرتهم يشكلون حلقات على الأسرة العليا مواصلين اجترار ذكرياتهم وتبادل أمنياتهم وتوقعاتهم وقلقهم أيضا.

تساءل زيني: « أما من أخبار جديدة عن الحرب والصليب الأحمر؟»

صعد كارنيك وجلس بيننا. كان شابا أرمنيا في أواخر العشرينيات من العمر ينتسب إلى الوحدة التي ينتسب إليها سيد مهدي وتأسر معه في اليوم نفسه، استطاع بلباقته وطيبته كسب ثقة الجميع، حتى أولئك الموالين للإيرانيين، فقبل أيام دعونا إلى التجمع واللطم بمناسبة ذكرى وفاة أحد الأئمة، ومع أن المسيحيين واليزيديين والصابئة معفون من تلك المراسيم، إلا أن كارنيك حمل قنينة من ماء الورد وراح يرشها على اللاطمين، أما رئيس العرفاء أفشاري فيعتبره محط سره.

قال كارنيك ضاحكا: « اليوم، ذهب الأرشد العام إلى أغا أفشاري محتجا على عملي في المطبخ كرئيس للطباخين بدعوى أنني غير طاهر وبالتالي يعتبر وجبات الطعام غير حلال، فأخبره أفشاري أن عملي يقتصر على الإشراف وتقسير البصل، وقبل أن يبتعد ناداه ليقول له: « لا تتدخل في شؤون المطبخ، فوظيفتك هي مراقبة الأسرى.»

قلت: « يبدو أن أفشاري يختلف عن مسؤولي المعسكر الآخرين.»

« كلا، جميعهم متشابهون باستثناء العقيد شفازند، يدعون التقوى لكنهم يرتكبون كل منكر يخطر في البال، من السرقة ولعب القمار والمراهنة وتعاطي المخدرات، لكن أفشاري متمسك بي؛ لأنني من يصلح كل أعطال سيارته. إنه يخطط الآن لإقامة ورشة لتصليح السيارات مقابل الساحة وراء الأسلاك الشائكة، ليس فقط سيارات المسؤولين وإنما أيضا سيارات أهل منجیل، وسيعمل معي اثنان من الأسرى، لكن لا تظنوا أننا سنحصل على شيء، فعوائد الورشة ستصب في جيب أفشاري، أما نحن فيكفينا فقط أن نكون نهارا خارج سيطرة خورشيدي واعتمادا وفتحي.»

ربت زيني على فخذ كارنيك ليلفت انتباهه: « دعك من الأرشد العام وتفاهته، حدثنا عن آخر الأخبار التي سمعتها من الجنود الإيرانيين.»

« أخبرني أفشاري أمس أنه سمع أن الإيرانيين شنوا هجوما كبيرا على منطقة «الفكة» الحدودية، وكانت الخسائر كبيرة في الأرواح والمعدات، وعلق أفشاري هازئا « المجنون فقط من يتوقع النصر في المعركة إذا كان رجال الدين هم من يخطط للمعركة ويديرها، وأخبرني أيضا أن الإيرانيين يتمنون أن تنتهي الحرب لكن القيادة تريد الاستمرار فيها؛ لأنها لا تستطيع مواجهة الأوضاع السيئة في البلاد.»

علق أحمد القيسي قائلاً: «معنى هذا أن أفشاري يثق بك كثيراً.»

ردّ كارنيك بصوت خفيض: «عرفت منه أن المسؤولين في المعسكر غير راضين عن وجود خورشيدي فهو يزعزع سلطتهم، وفتحي أكثرهم استياء، كما أن العقيد شفافند يخشى أن تؤدي عقوبات خورشيدي إلى ردود فعل من الأسرى ربما تؤدي إلى خسائر في الأرواح، و الشيخ سعدي، كما أخبرني أفشاري، يرى أن العقوبات الجماعية مخالفة لتعاليم الإسلام وسماحته.»

سألته: «خبر جيد، ولكن هل هم متضامنون في السعي إلى نقله؟»

فهقه كارنيك ساخراً: «متضامنون؟ كل واحد منهم يبحث عن دليل لإدانة الآخر، بالأمس، أثار العريف فتحي ضجة بعد أن شاهد اعتمادي يفتح باب صندوق سيارته ليضع اثنين من الأسرى فيه كياس من أكياس الرز المخصصة للأسرى، واليوم جاء دور اعتمادي الذي اكتشف سرقات كبيرة في سجل المشتريات.»

سأله زيني متلهفاً: «هل من أخبار عن الرسائل أو الصليب الأحمر أو أكياس الرز والسكر؟»  
«لا.» أضاف كارنيك قبل أن ينهض: «يقول أفشاري إن طهران قد عينت واحداً من العراقيين المبعدين ليكون مسؤولاً عن اللجنة الثقافية يدعى «أبو زينب» وسيأتي قريباً إلى المعسكر.»  
ضحكت ساخراً: «عجيب! هنا في إيران ووسط كل هذه الحماية ويخفي اسمه!»

اغتم وجه زيني: «بعد طرد ذلك المعمم الذي خرج من المعسكر من دون عباءة وخفين، قرروا الانتقام منا، وسترون ماذا يحدث.»

انطلقت الصفارة وصرخ الجنود فينا أن نتجمع في الساحة بسرعة، فوقفنا في الساحة مرتجفين من البرد ومن الثلج المتساقط على وجوهنا والذي تغطس أقدامنا فيه، رأيت خيال فتحي وهو يقف متمائلاً على منصة العلم، أمرنا بأن نرفع «الكليبات» عن رؤوسنا الحليقة. صاح بصوت رخو: «يبدو أنكم تستغلون طبيعتي، فهل تتصورونني أقل قسوة وهيبة من أعا خورشيدي؟ إنكم الآن تتصاعون لأوامره مثل الخراف، لكنني سأجعلكم تتصاعون لأوامري مثل الفئران. قررت قطع السجائر عليكم مدة ثلاثة أيام، وستظلون محصورين في القاعة ثلاثة أيام، أما الآن فستبقون واقفين هنا حتى إشعار آخر، ومن يتحرك من مكانه لن يلوم إلا نفسه.»

همس أحمد القيسي مرتجفاً: «إنها الماريجوانا التي هيجته علينا، عليها اللعنة.»

أحسست بألم فظيع في أصابع قدمي، ورأسي تعصره برودة قاسية، فيما تراكمت حبات الثلج على كتفي، أما زيني فراح يئن بصوت مسموع، ومن بين صفوف الأسرى في الجهة المقابلة لنا، ارتفع صوت سيد غالي باكياً. وقبل أن يغادر فتحي الساحة سمح لنا بارتداء الكليبات، وعندما عاد إلينا بعد نصف ساعة، سأل الجنود عن سبب عقوبتنا، فهزوا رؤوسهم بعدم معرفتهم، وحين سألتهم عن الذي أمر بالعقوبة، أخبروه أنه هو من أمر بذلك، حينذاك غرق فتحي في ضحك طويل، وأمرنا بالعودة إلى قاعات النوم.

\* \* \*

خطف خبر وصول « أبو زينب » فرصة مواصلة التمتع بدفء الشمس في ظهيرة يوم الجمعة. تجمعنا في الساحة مكتئبين متوقعين سماع تهديدات بعقوبات أكثر ألماً، وهذيانا بهزيمة قريبة للجيش العراقي. وقف رئيس العرفاء أفشاري على منصة العلم متميلاً متطلعا إلى السحب البيضاء المتناثرة المسرعة نحو الغرب وكأنه يتحاشى النظر إلى القادم الجديد الواقف إلى جانبه. القادم الجديد أبيض البشرة، في شعره شقرة، وذو لحية خفيفة، في العقد الثالث من العمر، يرتدي سروالاً من الجينز باهت اللون و سترة جلدية سوداء ابيضت عند مرفقيه. عاد أفشاري من شروده قائلاً: « يعتبر هذا المعسكر أهدأ معسكر للأسرى في إيران، وسعينا لتوفير كل مستلزمات الراحة لكم بما في ذلك حانوت حاولت جهدي توفير المواد الضرورية فيه، ومع ذلك هناك في وزارة الدفاع من يبدي عدم رضاه عن عملنا؛ لأنهم يعتبرون ازدياد أعداد التوابين من الأسرى هو المقياس للإدارة الجيدة، ولهذا بعثوا إلينا بالأخ المجاهد...»

خانت أفشاري الذاكرة التي أتعبتها المخدرات، فهمس الواقف إلى جانبه في أذنه، فواصل كلامه ناظراً بطرف عينيه إلى الرجل الواقف إلى جانبه، كاتماً ضحكة ساخرة: « الأخ أبو زينب، وهو منذ اليوم مسؤول اللجنة الثقافية في المعسكر، ويجب على الجميع احترامه وتنفيذ أوامره.»

غادر أفشاري مكانه حاثاً الخطى إلى الحانوت، وبقي الجنود واقفين خلف «أبو زينب» الذي قال والارتباك واضح على حركات يديه: « لقد كلفوني في طهران بمهمة في هذا المعسكر ولا بد من إنجازها، وقد سمعت الكثير عنكم، خاصة من الشيخ المجاهد « أبو زهراء» الذي حاولتم ضربه وتركتموه يغادر المعسكر بلا عباءة ونعال، وقد تعهدت له بالانتقام لإهانته. هناك أنوف عالية يجب إذلالها وسحقها بكعاب الأحذية. سأثبت لكم أن لا مكان هنا للصداميين وأعداء الإسلام، وسيكون هذا المكان بؤرة للمؤمنين التوابين الموالين للثورة الإسلامية وقيادتها.»

تطلع في الوجوه فلم يجد غير لامبالاة وابتسامات غامضة لا تعبر عن ود ونظرات طافحة بالسخرية، فخفت نبرته الحماسية: « الأخبار تبشر بخير، فالحرب مستمرة ولن توقفها لجان الوساطة الدولية ولا اجتماعات مجلس الأمن وقراراته، فماذا نجني لو انتهت الحرب الآن؟ سنظل إيران محاصرة، ولن تنتشر الثورة الإسلامية، ولن تتمكن قيادة المعارضة الإسلامية العراقية من العودة إلى الوطن واستلام الحكم. أنتم، أيضاً، لن تجنوا شيئاً من عودتكم إذا توقفت الحرب، هذا إذا وافقت القيادة الإيرانية على إطلاق سراحكم؛ لأن النظام سيتهكم بالعمالة لإيران.»

زَمَّ الأسرى شفاهم امتعاضاً وتبادلوا النظرات التي لحظها « أبو زينب»، لكنه واصل حديثه: «أنتم لا تريدون مواجهة الحقائق؛ لأنكم ما زلتم خائفين من صدام، تقنعون أنفسكم بأن العراق بخير. العراق في وضع بائس ومثقل بالديون، تنسون أنكم بضع مئات محاصرة بين أسلاك شائكة لا تستطيع فعل شيء. الحمد لله أن مجموعة منكم أعلنوا ولاءهم للقيادة الإسلامية؛ لذلك من الظلم أن لا يكون هناك فرق في المعاملة بين مهتد للحق وآخر ضال، وسترون قريباً هذا الفرق، وأبشر هذه المجموعة المؤمنة أن هنالك مقترحا قدم إلى السيد الإمام بفتح أبواب معسكرات الأسرى ليخرج منها الشباب المؤمن ليلتحق بقوات فيلق بدر، نواة المعارضة المسلحة التي ستحرر العراق قريباً إن شاء الله.»

صرخ الأرشد العام وهو يهز يده النحيفة في الهواء: « الله أكبر. الله أكبر ». رددت أصوات قليلة التكبير وراءه، فالتفت أبو زينب إلى الجنود الذين لم يحركوا ساكنا، بلع ريقه قائلا: « أما من يصر على الضلالة، فسيفقى حتى يتعفن في هذه الأقفاس. »

مضت خمسة أيام على سفر خورشيدي إلى طهران، ولعله كان يعيد متبجحا سرد روايته عن طريقته في إخضاع الأسرى وإذلالهم وانصياعهم لأوامره وترديدهم الشعارات. لا بد أن عينياه اغرورقت بالدموع من الضحك وهو يصف لمسؤوليه أو لزوجته منظر تساقط الأسرى بعضهم فوق بعض عند الممرات وأبواب القاعات. لا شك أن زوجته مطمئنة على بقائه في معسكر الأسرى بعيدا عن محرقة الحرب، لكن المسؤولين سيظالبونه بالمزيد، فهدفهم أن يضمّنوا وجود قوة مقاتلة من بين الأسرى لا لتحارب إلى صفوفهم، بل لتكون لهم درعا بشريا؛ لأن الأسرى مدربون أصلا، ولا تدخل جثثهم في سجلات الخسائر، ولن تنقل وسائل الإعلام صرخات أمهاتهم ووعويل زوجاتهم.

مضت خمسة أيام على غياب خورشيدي، لكننا لم ننعّم بالراحة التي تمنيناها، فقد اقتنص جنود الانضباط الفرصة لاضطهادنا مستغلين انشغال المسؤولين في المعسكر بأمور أخرى، فالعقيد شفازند يقضي معظم وقته في معسكر تدريب الجنود الإيرانيين لإعداد دفعة كبيرة منهم وإرسالها إلى جبهات الحرب، واعتمادا يدير السجن الانفرادي، بينما أفشاري يبحث في المدن الصغيرة المجاورة عن معلبات رخيصة ليبيعهما إلى الأسرى، وأما فتحي فيقول الجنود إنه في إجازة مرضية، وليس من صلاحيات مسؤول اللجنة الثقافية الاعتراض على ما يفعله أي إيراني حتى لو كان جنديا صغيرا. كان آخر ما فعله بنا جنود الانضباط المراهقون أنهم أطلقوا صفاراتهم وجمعونا في الساحة والتلج يتساقط علينا. أمرونا أن ننظف القاعات ونرتب الأسرة ونستعد لاستقبال شخصية مهمة ستزور المعسكر بعد قليل. لم يكن هنالك أحد من الأسرى في المطبخ لنعرف منه اسم تلك الشخصية ورتبتها، ولعل ذلك ما دفع زيني إلى الاستنتاج بأن الزائر هو ممثل لجنة الصليب الأحمر، في حين توقع آخرون أن يكون الزائر العقيد السفاح شريف عسكري. قال أحد الأسرى وهو يراقب الساحة من إحدى نوافذ القاعة: « الزائر يتجه الآن إلى القاعة الثالثة، إنه يرتدي ملابس مدنية ويحيط به الجنود. »

لاحت الخيبة على وجه زيني الذي تتم بصوت خفيض: « شخص واحد فقط؟ لم تأت إذا لجنة الصليب الأحمر. »

لكن أحمد القيسي ربت على كتفه مشجعا: « ربما يكون الزائر محافظ كيلان أو مسؤول لجنة أسرى الحرب، فعليك أن تتقدم نحوه وتخبره عن ضرورة حصولنا على هوية الصليب الأحمر. » ظل زيني واقفا قرب الباب متحفزا، لكن ما إن دخل الزائر القاعة حتى عقدت المفاجأة ليس لسان زيني فقط وإنما ألسنة الجميع، فالزائر، أو الشخصية المهمة، لم يكن سوى رجل أشعث الشعر، رث الثياب، ينتعل حذاء متهرئا تظهر منه أصابع قدميه. تفقد الزائر أرضية القاعة وما تحت الأسرة بنظرات طويلة فاحصة أثارت استغرابنا، قال لنا بعدها إنه سعيد بهذه الزيارة، وأوصانا بالنظافة لأن النظافة من الإيمان. وعندما غادر الزائر المعسكر أخبرنا أحد الجنود ضاحكا: « هل عرفتم من هو الزائر؟ إنه سائق سيارة نقل الزباله. »

اكتشفت الآن أن تغيرات كثيرة طرأت عليّ وعلى من حولي، الجميع مذعورون قلقون تسرب اليأس إلى نفوسهم على الرغم من استمرارية دورانهم في الساحة متسرلين ببذلاتهم المرقعة والممزقة، لا يجدون ما يدفئون به أيديهم سوى حرارة أجسادهم، يضعون أكفهم تحت آباطهم ويضمون أذرعهم إلى صدورهم بارزة الأضلاع، يقاومون الهلاك ويتشبثون بأمنيات بدأت تتضاءل حتى أصبح الكثيرون منهم لا يتمنون سوى نوبان الثلوج ووصول وجبة جديدة من الرز والسكر أو وصول رسائل وأخبار عن الأهل أو من بقي منهم سليماً في المدن الحدودية من قصف مدفعية الإيرانيين وصواريخهم البعيدة المدى، أو الأهل في المدن الأخرى بعد حملة الإعدامات بتهمة معارضة النظام أو الهروب من الخدمة العسكرية أو التخاضل في جبهات القتال أو التستر على الفارين والمطلوبين أو بتهمة القذف بحق الرئيس. ينتظر الأسرى بفارغ الصبر وصول المؤنة بعد أن ملوا تناول البطاطا المسلوقة وحدها في وجبات الطعام الثلاث. نقمة الثلوج عادت على أفشاري بأرباح عالية، فقد استغل انقطاع السكر ليملاً حانوته بملوى المصاصات التي يهواها الأطفال، فتدافع الأسرى على شرائها وانتشروا في الساحة يتحدثون بذكرياتهم وهم يمصون الحلوى الملونة مثل أطفال في دار حضانة، حتى لا يبقى على عودها سوى أثر اللعاب، وأفشاري وجنوده يراقبون المنظر ضاحكين.

العقوبات القاسية المتتالية أصابتنا بشرود الذهن، حتى أصبحت حكايات بعضنا مثيرة للضحك والرتاء، فجميل ثامر، الأسير الشاب ذو البشرة السمراء الداكنة دخل إلى المرافق الصحية ونزع ثيابه ليقيضي حاجته، لكنه اكتشف بعد فوات الأوان أنه نزع قميصه وليس سرواله.

العيون غائرة والبطون ضمر تعلن عن مجاعة رهيبية، والوجوه شاحبة بارزة الوجنتين، وأعداد المرضى تزداد يوماً بعد يوم، ولم تعد سرا قائمة المرشحين للموت، وهم تسعة أسرى، بينهم الشاب رحيم الحلوي الذي أصيبت ساقه في جبهة القتال وظلت ساقه متورمة منذ أسره قبل عام وحتى الآن، وأخبره الأطباء قبل نقله إلى هنا أن رصاصة ما زالت تتحرك في جسده من مكان إلى آخر. وزهراو البصراوي، الأسير المسن ورئيس وحدة في الجيش، ويناديه الأسرى بلقب «الريس»، مصاب بالربو ويسعل ليل نهار، وماجد السامرائي ذو الساق المشلولة والمصاب بقرحه حادة في المعدة والذي يتقيأ ما يأكله مباشرة، وبعد الحين والآخر يعلن الأسرى موته، لكنه يفتح عينيه فجأة معلناً بقاءه على قيد الحياة.

لم يعد أبو وفاء مخنل العقل الوحيد، أو هكذا كان يبدو، فقد ظهر آخرون، بعضهم في غاية الوداعة، والبعض الآخر في منتهى العدوانية أو يجمع بعضهم الوداعة والعدوان، منهم جليل صابر، شاب في مقتبل العشرينيات ضئيل البنية، يصحو من نومه عدة مرات في الليلة الواحدة صارخاً بأرقام وزوايا قبل أن يقفز على فراشه محدثاً ضجة كبيرة توقظ من حوله، معلناً تمكنه من رصد وحدات العدو وضربه برشقة من مدفعه، أما في النهار فهو يلکم وجه كل من يلاقيه من الأسرى مردداً عبارته «الويل لكم يا جيش محمد العاكول.» يقول البعض إن أصوات المدافع التي كان جليل يعمل في إحدى بطارياتها أحدثت ارتجاجاً في رأسه وظهرت نتائجه الآن، فيما يؤكد آخرون، وهم الأكثرية، أن السبب في حالته العقلية هو إدمانه على العادة السرية، فمزاولته لتلك العادة تهز أسرة النائمین على مقربة منه.

ومن « المجانين » الجدد، عيسى البلداوي، الذي كان عريفا احتياطا في كتيبة دبابات 17 تموز في قاطع ديزفول، والذي يخرج للدوران في الساحة ماشيا وحده محدثا نفسه بكلمات مبهمة، يعود بعدها إلى سريره ليتحدث بوقار وبوجه صارم إلى أشخاص يتوهم أمامه، قائلا وهو يحرك رأسه ويديه: « أهلا بالنشامي، أهلا بأبطال البوابة الشرقية، أخبروني ما هي حصيلة جهادكم الأكبر دفاعا عن أرض الوطن وقيم السماء في معركة قادسية صدام المجيدة.. ها، ماذا تقول يا صباح فخري؟ جيد، أحسنت يا أبا الشهيد، ممتاز، وأنت أيها البطل مسؤول إطلاق صواريخ أرض- أرض؟ ماذا تقول؟ أحسنت، لكن لماذا لا تضربون مدينة طهران؟ أحسنت يا عدنان خير الله، هكذا الأبطال والإفلا، أريد خسائر جسيمة في صفوف العدو الفارسي.. اضربوا جزيرة (خرج) واقصفوا معسكرات العدو. ضربتموها؟ خبر جيد. هنالك أمر غفل عنه أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة، لكنني لن أغفل عنه ولن أتسامح فيه، وبصفتي القائد العام ورئيس الجمهورية أصدر الآن أمرا بقيام سرب من المروحيات بإلقاء أكياس الرز والطحين والسكر والمصاصات، أريدها مصاصات من نوعية جيدة، على معسكر منجبل للأسرى العراقيين، وتتولى مجموعة من نشامى الكوماندوز الغارة على المعسكر لقتل المجرمين فتحي واعتمادى وخورشيدى وإحضار المجرم الأرشد العام حسين عباس لأقطعه بأسناني إربا إربا، وأن لا تنسى المجموعة مهمة تقجير مخزن البطاطا في المعسكر. انتهى الاجتماع.»

ومثل كل مرة، لوح عيسى بيده مقلدا حركات صدام حسين، وعلى الرغم من التعذيب الذي لقيه على أيدي المسؤولين الإيرانيين، إلا أنه لم يغير شيئا مما يخطر في باله، حتى إن خورشيدى حضر ذات ليلة وسمع ما نقل له المترجم، لكن عيسى لم يأبه بحضوره فواصل اجتماعه مع أعضاء القيادة العامة وشتائمته على القيادة الإيرانية، فسحبه خورشيدى من مكانه وأسقطه أرضا وراح يضرب رأسه بحذائه حتى أغمى على عيسى، لكنه استيقظ عند منتصف الليل ليعقد اجتماعا آخر.

لا يعرف أحد متى يكون مزاج عيسى البلداوي رائقا ومتى يكون معكرا، فهو في الحالة الثانية يصفع كل من يصادفه فجأة صائحا في وجهه: « لماذا تتسكع هنا؟ لماذا لم تقاوم العدو حتى الموت؟ أعرف الخائن من عينيه، وأنت واحد من الخونة.» أما إذا كان رائق المزاج، فيبتسم في وجه من يلقاه ويربت على كتفه قائلا: « أنت مقاتل شجاع لذلك منحك نوط الشجاعة، هل ترغب في رتبة أعلى؟»، وعندما كان يشاهد لقطات تليفزيونية عن الخراب الذي سببته الغارات الجوية العراقية، كان يشد بقوة قبضتي يديه بفرح عارم كطفل وجد لعبته المفضلة، يبتسم قائلا: «نفذ أولادي النسور تعليماتي بحذافيرها.»

يتعاطف الأسرى مع من خفف عقله ويرعونه ويغسلون ثيابه، لكن الكثيرين منهم يجدون متعة في إثارته ودفعه إلى الجنون. قبل أسبوعين، استيقظ ذياب مشعان، وكان من منتسبي لواء الحرس الجمهوري والمصاب بالصرع، والذي يقضي ساعات طويلة في الصلاة، عند الفجر مكبرا بصوت عال، قائلا: « الله أكبر. الله أكبر، رأيت في منامي قبل قليل رؤيا لم أر مثلها من قبل.»

سكت قليلا متطلعا في وجوه الأسرى الذين ما زالوا على أسرته، فنظروا إليه بتذمر وسخط، فقال مستدركا: « رأيت ملاكا على هيئة نور عظيم، اقترب مني ببطء، وضع يده على رأسي قائلا بصوت وقور: ذياب، هنالك رجل ليس بالطويل ولا بالقصير سيطفئ نيران هذه الحرب.»

صاح أحد الأسرى ساخرا: « إذا كان أسود البشرة فهو الرئيس الغيني سيكتوري رئيس لجنة الوساطة، أما إذا كان أبيض فهو دي كويلار، الأمين العام للأمم المتحدة.»  
واصل ذياب مشعان كلامه: « وقال لي الملاك: الحرب لن تستمر إلى الأبد.»  
قهقه الأسرى، قال أحدهم: « طبعاً ستنتهي الحرب ذات يوم، وهذا لا يحتاج تأييدا من ملاك أو شيطان رجيم. كان عليه أن يخبرك بموعد نهايتها.»  
قال ذياب وهو يعصر جبهته بأطراف أصابعه: « قال لي.. الحرب ستنتهي في...»  
صاح بعض الأسرى باهتمام بالغ: « متى؟ تذكر جيدا.»  
أغلق ذياب عينيه وتقلصت عضلات وجهه رافعا يديه إلى الأعلى: «قال الملاك ستنتهي الحرب في...»

ارتفعت الأصوات من حوله: « متى؟»

« الملاك لا يكذب، تذكر، متى؟»

« الملائكة لا تطرق الباب كل يوم، ولن تجد وقتا فائضا لتعيد ما قالتها، فتذكر يا ذياب.»

لكن ذياب سقط على الأرض يرتعش ويهتز كل جسده والزبد يسيل من فمه.

في الأيام التالية لم يتركه الأسرى وشأنه، فكلما رأوه على سريره أو التقوا به في الساحة قبلوا يديه، ورجوه ساخرين أن يتذكر ما قاله الملاك، ومن يومها يظل ذياب يصلي من أول الليل حتى الصباح، مغطيا رأسه بقطعة من غطاء فراشه، وتاركا لحيته الطويلة تغطي صدره. كان سريره ملاذا لمن يشعر بالضجر أو يبحث عن سيجارة، وكان زيني واحدا من رواده، كان يقول له: « جئناك يا شيخ ذياب لننزود من علمك وتقواك لعلنا نحصل على البشارة مثلك. ما أخبار الملاك؟ ألم يأتك ثانية؟ إذا جاءك لا تتسأل عن لجنة الصليب الأحمر.»

في كل مرة، يتهلل وجه ذياب فرحا، ويمسح على رؤوس زائريه مباركا لهم الهداية ومؤكدا أن الملاك سيأتيه قريبا، ثم يقدم لكل واحد منهم سيجارة كاملة. يؤكد زيني أن ذياب يحتفظ بكمية كبيرة من السجائر مما يغري الآخرين بتحمل مواعظه وهذيانه.

استغل الأسرى سذاجة عبيس البدوي الذي ظهر في الساحة ذات يوم وقد وضع بطانيته على كتفيه كعباءة رابطا جانبيها بخيط يمر فوق صدره، معصبا رأسه بعصابة شبيهة بعصابة أبي حميد يرحمه الله، قائلا لجمع من الأسرى: «أيها الأخوان، لا بد للأسرى من رئيس عشيرة يحل الخلافات بينهم ولن تجدوا أفضل مني حسبا ونسبا، فماذا تقولون؟»

صاح الواقفون: « نحن معك يا محفوظ.»، وبايعوه وهم يتبادلون ضحكات السخرية، وعندما حان وقت الغداء، أقبل اثنان من الأسرى عليه قائلين: « جننا لمضيفك يا محفوظ.» فقدم لهما حبتي البطاطا فالتهماها متعمدين لعله يغير رأيه، وجاءه اثنان آخران عند العشاء، فقدم لهما حبة البطاطا المسلوقة وهو فرح بضيافتهما، لكنه بقي ليلته يتقلب من الجوع، فقال له أسير ينام بجواره إنه مجنون لتنازله عن قوته مقابل لا شيء، فقال عبيس بثقة: « لست مجنونا، لكن الوجاهة تتطلب تضحيات.» مصيبة عبيس لم تتوقف عند هذه التضحية، فكلما دخل خورشيدي أو اعتمادي القاعة الأولى، وبعد أن يعلن أوامره، يسأل مهدها إن كان هناك أحد من الأسرى يعترض عليه، يهمس

البعض في أذن عبيس أن يتحدث نيابة عن الأسرى؛ لأنه رئيس عشيرتهم وهم لا يجدون نصيرا غيره، وما إن يتقدم لإبداء رأيه حتى ينتهي به الأمر ممددا على سريره يئن من ألم الضربات والصفعات والكدمات، مرددا: «الوجاهة تتطلب تضحيات، ولا خير في عشيرة لا يتقدمها رئيسها في الملمات.»

بسبب شح الأدوية وامتناع المضمّد الإيراني عن إعطاء حبات الأسبرين، ظهر في المعسكر معالجون للألم الرقبة والصداع، فعبد الله البدوي متخصص بإعادة السّرة إلى مكانها، فهو يعزو جميع آلام البطن إلى ما يدعوه بوقوع السّرة، أما محسن جرو، وهو شاب من الأهوار، فمتخصص بعلاج الصداع، واضطرت مرة أن أذهب إليه حين لم أستطع تحمل ألم الصداع، فوضع على وجهي منديلا، وثبت أسنانه في جبّتي وسحبها بقوة، ففارقني الألم في الحال.

نادرا ما تجد أسيرا لم يفقد سنا أو أكثر، وقبل ليلتين، كان ألمي لا يطاق من رحي بسبب ثقب فيها، فنصحتني أحد الأسرى بالذهاب إلى عبد الله البدوي لعله يساعدني، فتخصص سن الرحي بنظرة خبير، أخرج قنينة صغيرة من صرة يحتفظ بها تحت وسادته، قائلا: «ستشعر بألم حاد لثوان وبعدها تتأم مرتاحا.» أخبرني أنه حصل على هذا الدواء، زيت فرامل السيارات، عن طريق كارنيك. نقع قطعة صغيرة من الإسفنج بالزيت وقطرها على سني، فقفزت من شدة الألم، لكنني سرعان ما شعرت بالراحة، وفي الصباح، ما إن دعكت الرحي المنقوبة حتى تفتت بين أصابعي ولم يبق منها إلا الجذر.

في مساء يوم جمعة، اتخذ الأسرى بعد التعداد المسائي أماكنهم جالسين أمام جهاز التليفزيون منتظرين برنامج «التقرير الأسبوعي»، لعلهم يحظون بمشاهد عن العالم الخارجي ورؤية نساء بلا حجاب. سعل الرئيس زهراو البصراوي الممدد على سريره القريب من مكان التليفزيون، حتى كاد يختنق، لكن سعاله ضاع وسط الضجة التي أثارها الأسرى وهم يشاهدون لقطات لفتيات أميركيات يتحدثن عن سوء إدارة ريغان. سعال زهراو تحول إلى صفير حاد. صرخ سيد مهدي: «حالته خطيرة، سيموت زهراو.»

قفزت من مكاني القريب منه، أمسكت يده، فشد قبضته على يدي وهو مغمض العينين لم يرد علينا، حمله اثنان من الأسرى الشباب ليسرعا به إلى المستوصف الصحي القريب من الباب النظامي، لكنه ظل قابضا على يدي، ذهبت معهم، تطلعت من الفتحة الصغيرة، لكنني لم أجد المضمّد، بل جندي في سن المراهقة جالس باسترخاء أمام جهاز تليفزيون صغير، لا بد أنه أنهى نوبته في الحراسة واختار هذا المكان لراحته.

قال الجندي متابعا البرنامج التليفزيوني: «سيأتي المضمّد غدا صباحا.»

قلت متوسلا: «لكن الرجل سيموت، أرجوك، اتصل بأحد المسؤولين لنقل المريض إلى أقرب مستشفى.»

سألني متابعا برامج التليفزيون: «ماذا يشكو؟»

«إنه في حالة خطيرة، نوبة حادة من الربو.»

تململ الجندي في مكانه «حالته ليست خطيرة جدا، ومع ذلك، أدخلوه.»

درنا حول تلك الغرفة الخشبية ودفعنا بابها، مددنا زهراو على نقالة، لكن الجندي لم يرفع سماعة الهاتف، وإنما بحث في أدراج المستوصف قائلاً: « الأمر لا يحتاج إلى إزعاج المسؤولين ولا إلى سيارة إسعاف، إبرة في العضلة وينتهي الأمر. »

بادلني الأسيران الآخرا ن نظرات عدم الارتياح، فقلت واضعا يديّ على رأس زهراو الذي تعالَى صفيّره: « أعا، سنأتي به في الصباح، تصبح على خير. »

قفز الجندي نحوي مطبقا يديه على رقبتني: « لماذا أزعجتونني إذا؟ ها؟ إذا كنتم تخافون عليه من حقن إبرة، فكيف تريدون نقله إلى المستشفى؟ »

هزني بقوة ودفعني إلى زاوية في الغرفة: « إياك أن تتحرك أو تتقوه بكلمة واحدة. »

عثر على مجموعة من القناني الصغيرة المليئة بمسحوق أبيض، واختار عشوائيا واحدة منها، أخرج من الدرج إبرة مغلّفة وأنبوبة زجاجية فيها ماء مقطر، حاول كسر رأس الأنبوبة الزجاجية بضربه على حافة المنضدة الحديدية فانكسرت الزجاجية. نظر إلينا بغضب وارتباك. أخرج أنبوبة أخرى ونجح هذه المرة في كسر رأسها المدبب. أطلق زفيراً طويلاً وسحب الماء المقطر بالإبرة ودفعه في القنينة الصغيرة، خضها قليلاً قبل أن يسحب المزيج بالإبرة: « هل رأيتم؟ إنه عمل في غاية البساطة. »

كشّف الجندي عن ورك زهراو، وبدا متردداً، لكنه حزم أمره قائلاً: «أعتقد أن هذا المكان هو المناسب لحقن الإبرة.» لفني الذهول والخوف على زهراو. دفع الجندي الإبرة، فحفظت عينا زهراو وارتعش جسده رعشة مخيفة، فنظر إلينا الجندي ذاهلاً وهو يرفع يده بنصف إبرة فيما بقي النصف الثاني مغروزا في جسد المسكين الرئيس زهراو. أمرنا الجندي أن نحمل زهراو إلى سريره ونغادر الغرفة بسرعة، فحمل الشابان «الرئيس» الذي خفت صفيّره وفقد وعيه، وقبل أن نبتعد أطفأ الجندي مصباح الغرفة وصفق بابها مهرولا نحو الباب النظامي الغارق في الظلمة، فيما بدأت حبات الثلج تتساقط.

في الصباح، ازداد الثلج كثافة، ووجه زهراو، الذي كان فاقد الوعي محموماً، انتفخ متورماً. جرى تعدادنا داخل القاعات. دخل فتحي القاعة لاهثاً، ينفض الثلج عن ذراعيه وكتفيه ويضرب الأرض بحذاءه العسكري فتساقطت كتل ثلجية صغيرة. اتجه إلى زهراو وسط الواقفين بانتظام، سحب سرواله إلى الأسفل. تراجع فتحي إلى الوراء مصعوقاً. أعاد السروال إلى مكانه وظل جامداً في مكانه مسدل الذراعين محني الرأس. عاد إلى الفسحة القريبة من الباب ماسحاً دموعه فيما تبعه المترجم إسكندر. قال العريف فتحي بصوت مبجوح: « من المؤسف أن أرى المسكين زهراو بهذه الحالة، والمؤسف أكثر أننا لا يمكن أن نفعل شيئاً، ولا يمكننا إرساله إلى قزوين أو رشت فكل الطرق الخارجية مقطوعة بسبب الثلوج، ولم يبق أمامنا جميعاً سوى التضرع إلى الله ليحفظ هذا المسكين. »

مسح وجهه بكفيه متأوها مؤكداً أنه حقق مع الجندي المتهم، وتبين له أن الجندي حاول المساعدة ولم يعتمد إيذاء زهراو، داعياً الجميع إلى الدعاء لزهراو بالشفاء.

ازدحمت القاعة بالأسرى الذين جاءوا مسرعين من القاعات الأخرى لرؤية زهراو في نزعه الأخير، حتى « أبو وفاء » وقف عند قدمي زهراو باكياً، وقبل أن يستدير مغادراً، رفع نعاله

وضرب برقة قدم زهراو قائلا بصوت مختنق: « زهراو رجل طيب، أحبه لذلك كنت أضربه على قفاه خمس مرات بنعالي، لكنه لا يتحمل الآن.»

عيسى البلداوي ألغى اجتماعه المعتاد وتقدم دافعا الأسرى ليقف أمام سرير زهراو قائلا بنبرة خطابية: « لا تستسلم للموت يا رفيقي، فالصناديد لا يموتون بسهولة. اطمئن يا زهراو فالقيادة لا تتسى عائلتك، سأمنح كل واحد منهم وسام الشجاعة، سأقيم لك تمثالا في البصرة. يا زهراو أنت أشرف من كل أعضاء القيادتين القطرية والقومية.»

أجهش بالبكاء صارخا بهستيريا: « أين أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة؟ أين أنتم أيها الكسالى؟ سيموت زهراو ولا بد من الانتقام، هيا بسرعة إلى غرفة الاجتماعات.. الآن.»

عند الظهيرة، مات زهراو، فسقط رأس زيني على صدري باكيا بحرقة، أما أنا فشعرت بقبضة زهراو على يدي، يضغطها بقوة، يسحبني إليه. دفعت زيني جانبا وانحنيت على زهراو أقبل يديه الباردين الشاحبتين، انتبهت على صوت سيد غالي منتصبا بقامته الطويلة يردد بصوت خفيض أبياتا من موال حزين بينما سالت الدموع من عينيه.

لم يطبق زهراو جفنيه على حلم جميل بالعودة إلى الوطن البعيد واحتضان أولاده والشروع بهدم داره الصغيرة في محلة الأصمعي بالبصرة لبناء دار جديدة بطابقين، لم يحلم في لحظته الأخيرة بجموع تستقبله وتنتثر الحلوى على رأسه وتهافت الجميع على تقبيله فيما يدوي من حوله قرع طبول فرقة موسيقية شعبية، بل كان يحلم بلحظة راحة من آلام فظيعة، وقد حصل عليها الآن.

أطبق زهراو جفنيه في نوم لا تعكره مخاوف عقوبات ليلية مفاجئة وكوابيس الشياطين وأخبار الحرب وصفارات الجنود. إنه ينام الآن هادئا جدا كنوم طفل، لا يعاني من نوبات الربو وقسوة الجوع ومرارة الغربة.

ذات يوم، لن يبقى من زهراو سوى عظام مبعثرة ونصف إبرة متأكسدة، بل سيأتي يوم ينسى الناس فيه حكاية مقتله، ينسون اسمه ومكان قبره هناك على ساحل البحيرة في مقبرة الغرباء، فلماذا إذا كل هذه المعاناة؟

الموتى وحدهم من يحصل على الحرية هنا، من يعبر الأسلاك دونما أصفاد وحراس غلاظ القلب رافعي حراب البنادق. كلنا هنا نقف في طابور الانتظار لننتقل عبر الباب النظامي وطرقات المدينة إلى تلك الربوة لندفن فيها وندفن معنا كل ذكرياتنا وأفكارنا وأمنياتنا، فأسباب الموت متوفرة في هذا المكان أكثر من أي مكان آخر عدا جبهات الحرب، فقد تكون النهاية بمرض أو التهاب أو بضربة على الرأس أو من البرد والجوع أو من إبرة مكسورة.

تذكرت في تلك اللحظة المرة الأولى التي رأيت فيها الموت، كنت حينها في السادسة من عمري، ألعب مع أقراني في الزقاق المترب الذي تتوسطه ساقية آسنة، فسمعت صراخا عاليا، لكنني واصلت لعبي، رأيت النسوة يتراكن من كل بيت في الزقاق نحو بيت الحاج عبد الهادي وهن يرددن «ماتت أم هادي». أدركت أن عزرائيل جاء وصعد دون أن يراه أحد. كنت أخاف من ذكره، بل أكرهه منذ أن قال أبي يوما إن عزرائيل يخطف الأرواح ويصعد بها إلى السماء، وإن من علامات الموت توقف نبضات القلب، فسألته حينذاك: « لماذا يخطف عزرائيل أرواح الناس؟ » أجابني أنه يؤدي مهمة مكلف بها، فلكل إنسان عمر محدد ولحظة لا بد أن يموت فيها. فسألته: «

لماذا يحدد الله أعمار الناس بعد أن خلقهم؟» فكر أبي قليلا ثم قال مبديا ضيقه من السؤال: « لا أدري.»

سألته من جديد: « ماذا يحدث بعد ذلك؟»

أجابني وهو يسرح بنظره بعيدا: « يأتي ملكان إلى القبر، هما منكر ونكير، يحملان معهما سجلا بحسنات الميت وسيئاته، وهو لا يستطيع نكران ما فعله، فكل عضو فيه سيشهد ضده.»  
« لكنك يا أبي قلت إن عزرائيل يصعد بالأرواح إلى السماء، فهل الأرواح تحاسب أم الأجساد؟»  
دفعني أبي برفق قائلا: « اذهب عني ولا تطرح مثل هذه الأسئلة.»

ركضت وراء النسوة إلى دار الحاج عبد الهادي، ووقفت عند باب إحدى الغرف متأملا النسوة يولولن ويلطمن أفخاذهن وهن جالسات حول الحاجة أم هادي الممددة بمهابة وسط الغرفة. تقدمت نحو الحاجة ووضعت يدي على صدرها لأتأكد أن قلب الميت يتوقف عن النبض. ساد الغرفة صمت مطبق، لم أعرف إن كان قلبها ينبض أم لا، وحين تُلِّفت حولي وجدت النسوة يحدقن فيّ بدهشة وعجب، فغادرت الغرفة بهدوء وقد أروعنتي نظراتهن. في اليوم التالي انتشرت شائعة أن ملاكا بهيئة طفل من أطفال ناصر السائق دار حول الحاجة العجوز المرحومة ووضع يده المباركة على صدرها. لا أدري السبب الذي جعلني أنكر قيامي بدخول الغرفة ووضع يدي على صدر الحاجة الراحلة. لكن عزرائيل لم يصعد إلى السماء هذه المرة؛ لأنني شعرت بخفقات جناحيه وهو يحوم حولنا يقلب صفحات سجله بحثا عن اسم ضحيته التالية.

\* \* \*

الأسير الحارس المتعب من الدوران والوقوف ثلاث ساعات، أيقظنا في الرابعة فجرا، كالعادة، أي قبل ساعة كاملة من موعد الصلاة وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كانت حجة مسؤولي المعسكر في تقليل ساعات النوم، خاصة عند الفجر هي إعطاء وقت كاف للأسرى المساكين المحرومين من العبادة في بلادهم الكافرة للوضوء وقراءة القرآن» كما ادعى فتحي ذات ليلة حين رأى الأسرى يغطون في نوم عميق عند الفجر، بينما كان هو في واجب ضابط الخفر شبه مغمض العينين يتبين طريقه بصعوبة، بينما كان تتأوبه مصحوبا بصوت عال كثغاء بعير، فصعب عليه منظرنا ونحن نيام. ومنذ تلك الليلة باتت تعليماته تلك قوانين سارية. ومهمة الجنود الانضباط الخفر، وغالبيتهم مثل العريف فتحي لا يصلون، الإشراف على استيقاظنا ومراقبة الداخلين والخارجين إلى غرفة المغاسل للتأكد من وضوئهم. مع صيحة الحارس، يقفز الأسرى من أسرّتهم بوجوه مكفهرة وألسن تتفنن بكيل السباب وصب اللعنة على الحظ السيئ الذي أوقعهم في الأسر. يجرون نعالمهم وسط الظلام مترنحين خارج القاعة في طريقهم إلى المغاسل القريبة من المرافق الصحية عبر ممر كونكريتي تكسوه طبقة تلمجية شفافة تنزلق عليها النعال فيتشبث المارون بعضهم ببعض.

حين يلامس الماء البارد يدي ووجهي عند الفجر، أشعر بلسعة حادة لا تختلف كثيرا عن لسعة صفة قوية أو ضربة سوط. يرتفع البخار في غرفة المغاسل من وجوه الأسرى وأيديهم وأرجلهم، وهذا ما دفع جندياً التحق مؤخرا بالمعسكر إلى السؤال وهو يرى البخار المتصاعد والأسرى الملسوعين عند غسل وجوههم: «عجيب! لماذا لا تخفضون حرارة سخّان الماء؟»

من مهمات جنود الانضباط الخفر أيضا مراقبة الأسرى بعد الوضوء، ومن يجدوه غافيا، أجبروه على الوضوء ثانية بماء يكاد يكون تلجا؛ لأن وضوءه قد بطل، ولما كنت أجد صعوبة بالغة في مغالبة النعاس في مثل تلك الساعة ووسط ذلك الدفء الذي تصنعه أنفاس الأسرى، فقد اهتديت إلى حل يقيني عقوبة الوضوء مرة أخرى: كنت أتربع على سريري محني الرأس واضعا في حضني كتابا من الكتب المليئة بأوصاف الجحيم أستعيره من المكتبة، فأبدو وكأنني غارق في القراءة، ومن حسن الحظ أنني أستطيع النوم تلك اللحظات من دون أن أتمايل أو يسقط رأسي على صدري.

في ذلك الفجر، وفي غرفة المغاسل تبادل الأسرى من القاعات الحديث، وانتشر خبر عودة خورشيدي، لكن من دون أكياس من الرسائل، لم يكن ذلك الخبر وحده ما أثار اكتئاب الأسرى، بل كان هنالك خبر آخر مفاده أن خورشيدي ومعه عدد من الجنود اقتحموا منتصف الليل القاعة الأولى القريبة من الممر المؤدي إلى الباب النظامي. قال أحد الأسرى من تلك القاعة إن خورشيدي وقف عند مدخل القاعة واضعا يديه على خاصرته، صائحا بصوت عال: «بلانشو» (انهضوا)، فقفز الأسرى من أسرّتهم فزعين. وبدلا من رؤية ضابط الاستخبارات يوزع عليهم الرسائل ويبشرهم بموعد وصول لجنة الصليب الأحمر، رأوه يندفع نحوهم بالصفعات والركلات والبصاق، أمرهم بالانبطاح تحت الأسرة وقضاء ليلتهم هناك، موعزا إلى الجنود بالمراقبة ومعاقبة المخالفين. كان السبب في فورة غضبه أنه رأى النعال غير مرتبة بموازاة الأسرة.

علا الوجوه ذلك الصباح قلق ورعب وخيبة كبيرة، فما حدث في القاعة الأولى كان نذير شؤم بمسلسل جديد من العقوبات، لكن زيني لم يصدق، أو تظاهر أنه لم يصدق خبر وصول خورشيدي من دون رسائل، فقال متفائلا: « سيأتي خورشيدي متبرما، يقف على منصة العلم معكرا وجهه، لكنه يضحك فجأة معلنا وصول أكياس ثقيلة من الرسائل.» وأضاف ضاحكا وهو يعاين نصف النعل الذي يلبسه: « من يدري؟ ربما لترتيب النعال أثر على نتيجة الحرب.»

لم يكن زيني مبالغا في سخريته، فحياتنا اليومية، بكل تفاصيلها وتفاصيلها قد تبدو تافهة جدا في نظر الزوار وهي كذلك فعلا- مرتبطة بتطورات القتال في الجبهة، وكلما اشتدت الحرب، أحرقت في أعيننا ما كنا ننسجه في الليل من أحلام وأمنيات عن العودة إلى الأهل والحياة. لفحتنا حرارة لهيب الحرب التي تطلق العنف الكامن في نفوس المسؤولين والجنود، ونرى انعكاس نيرانها على أوامينا المعدنية وكمية الرز والخيز. بت الآن أفكر جديا بما قاله نائب الضابط اعتمادي يوما: «أنتم لا تعرفون طبيعة الفرس، عنادهم لا يمكن تصوره، ويكفي أن أذكر لكم حادثة لا يزال الناس يتحدثون بها، فقد خاض الفرس حربا لمدة أربعين عاما مع الدولة العثمانية بسبب تل على الحدود بين الدولتين، مع أن الحرب انتهت بخسائر فادحة فقد بقي النل في قبضة الأتراك.»

ما توقعته في ذلك الصباح، الثاني والعشرين من كانون الثاني ليس أكثر من عقوبة قاسية، فمهما طال، تستكين أجسادنا بعدها، ونبدأ نستذكر بعض المواقف ونضحك. ترقبنا انخفاضا شديدا في درجات الحرارة وسقوط الثلوج مساء كما عرفنا ذلك من نشرة الأحوال الجوية التي بثها التلفزيون في الليلة الماضية قبل أن يغلقه الحراس في التاسعة ليلا.

شابت زرقة السماء سحب بيضاء خفيفة متفرقة هبطت علينا من قمة الجبل قادمة من بحر قزوين، الذي قال عنه الجنود الإيرانيون إنه يقع خلف الجبال العالية المطلة قممها علينا، لكن السحب لم تلبث أن تنتشت مخلقة رذاذاها على وجوهنا وعلى حصى الساحة.

عند المقطع الأخير من الدعاء الممل المرافق لرفع العلم، أشرقت الشمس فانعكست أشعتها الباهتة على الأجزاء العليا من جدران القاعات. هبت ريح خفيفة استشعرت برودتها بأرنبة أنفي وأصابع قدمي العاريتين إلا من شريطين يشدانهما بقطعيتين متاكلتين مثلومتين من البلاستيك، فانكمشت الأصابع إلى الداخل مثل رأس سلحفاة داهمها الخطر. أحسست بالبرودة القاسية تسري في جسدي، تلف عظامي، تتوغل داخلها. أذكر ما قاله كاظم الخباز أمس مرتجفا: «يخيفوننا بجهنم؟ ليتنا الآن في جهنم لننعم بالدفء.»

انتظرنا بلهفة نهاية مراسيم الصباح كي نركض بعدها إلى القاعات حيث ينتظرنا الدفء والشاي الحار وقطعة الخبز اللذيذ وبعد ذلك ليحدث ما يحدث، لكن ما إن انتهت المراسيم وبحت أصواتنا بالهتافات حتى أطل خورشيدي على الساحة، ماشيا بكبرياء. صعد منصة العلم متأبطا ذراعيه، زاما شفتيه. وقف هناك محركا فصي عينيه يمنة ويسرة، ضاربا بحذائه اللامع أرضية المنصة ضربات خفيفة سريعة، فتجمدنا في أماكننا منتظرين العقوبة وإن كنا لم نخالف أمرا ولم تحدث مشاجرة بين الأسرى في اليومين الماضيين، فدوافع العقوبات لا تهمنا كثيرا بقدر ما تهمنا نوعيتها. ارتجفت أكثر واصطكت أسناني النخرة التي سرى فيها تيار ألم متقطع.

ارتج في رأسي صدى أحذية الجنود وهم يهرولون نحونا في صفين منتظمين متأبطين عصيهم وهرواتهم الكهربائية، وقفوا جانبا متحفزين للانقضاض علينا.

أمر خورشيدي الجنود المتوردة خدوهم بالعافية أن يتوزعوا بيننا وعند الممرات المؤدية إلى أبواب القاعات المنزوية عن الساحة. أسدل ذراعيه، فرك كفيه استعدادا لرحلة الصيد، أو ما برأسه إلى المترجم إسكندر أن يصعد المنصة، فنقدم اسكندر ماشيا بغنج كأنه راقصة ليل تلفت الأنظار قبل أن تعتلي خشبة المسرح، أمره بصوت خافت أن يشير إلى الأسرى التوابين بالخروج من الصفوف.

صرخ فينا خورشيدي: « لا بد أنكم تشكون قلة الطعام وندرة الأدوية وسوء المعاملة، أليس كذلك؟ بعضكم اشتكى للشيخ سعدي مني ومن المسؤولين في المعسكر. ما إن وصلت طهران حتى وجدت تلك الشكوى أمامي، ماذا فعلنا بكم؟ كيف تريدون أن نعاملكم؟ هل علمتم ما حدث ليلة البارحة؟ أطلقت حكومتكم الكافرة، التي ما زلتم تكون لها الولاء، صواريخ أرض- أرض على عدد من المدن الكبيرة والأقضية والقرى الحدودية وقتلت الآلاف من الإيرانيين الأبرياء، وأنتم هنا تريدون طعاما وأدوية. حسنا، سيكون لكم ما تريدون. لقد ولى زمن الرأفة والعطف، عندما أطلق الصفارة، عليكم بالانطلاق إلى القاعات بسرعة. »

كانت ملامح خورشيدي وكلماته كافية لتدلنا على أن العقوبة مختلفة هذه المرة، وربما أكثر من عقوبة قاسية، وقد تنتهي بعدد منا إلى مقبرة الغرباء. نفخ في صفارته فركضنا في مارثون مأساوي انفلتت فيه النعال أو بقاياها، فدنسا بأرجلنا العارية على الحصى والحجارة الناتئة. قطع الجنود علينا الطريق بهراواتهم وعصيهم ضاربين وجوهنا ورؤوسنا وأجسادنا. أتحاشى واحدا منهم فتضربني هراوة آخر. تعثر زيني لكن أحمد القيسي تلقفه بذراعيه وسحبه فشجت إحدى العصي رأس القيسي، واشتبك «أبو وفاء» مع الجنود لكنهم أوسعوه ضربا. صرخ عيسى البلداوي ملوحا بيده «انسحاب تكتيكي.. انسحاب تكتيكي».

دخلنا القاعة فلق بنا الجنود يحاصروننا في الزوايا، فزغنا عنهم تحت الأسرة فتعقبنا أحذيتهم. سقط كاظم الخباز على الأرض، فسحبته معي تحت أحد الأسرة. هناك وقعت عيناى على أسير قرروي يدعى «علي» تحت الأسرة من الجهة الأخرى لاهيا بالتهام حبة طماسة عثر عليها في أحد الأواني غير مبال بضربات الجنود على ظهره ورجليه، وحين رآه كاظم الخباز صاح فيه بصوت مختق ضعيف: «الملعون يأكل طماطتي التي حصلت عليها بشق الأنفس من جماعة المطبخ، اترك لي شيئا منها.» لكن القرروي التهمها كلها، ومنذ تلك الحادثة صرنا نناديه «علي طماسة».

انطلقت الصفارة مرة أخرى، ركضنا لكن هراوات الجنود اعترضت طريقنا، فتساقطنا واحدا فوق الآخر في الممرات الضيقة، نهضنا وركضنا لاهئين عائدين إلى الساحة. رأيت كاظم الخباز ممددا في الممر مقرفصا والجنود من حوله يركلونه بقوة وهو ازداد تقلصا وانكماشاً. زعق خورشيدي مهتاجا متطلعا في ساعته اليدوية التي قال لنا عنها يوما إن أسيرا في طهران أهداها إليه: « أولاد الكلب، ماذا أصابكم؟ تأخرتم دقيقة ونصف.»

دار فوق المنصة ضاماً قبضتيه كمالكم ينتظر جرس الجولة التالية. كنا نراقب حركاته لاهئين متعبين. مد يده في جيب معطفه ورفع صفارته إلى فمه، نفخ فيها فركضنا من جديد، شعرت بحرقة الجراح في قدمي وذراعي والكدمات على رأسي. داست الأقدام المذعورة كاظم الخباز، فجره شابان قويان إلى القاعة. توقف الجنود عند أبواب القاعات ولم يدخلوها هذه المرة، ربما شفوا غليلهم أو أنهم كانوا متعبين من الضرب.

بدأت القاعة مثل منطقة «جمع الخسائر» التي تكون عادة في الخطوط الخلفية لجبهات القتال، الجرحى كثيرون ومعظم الإصابات في الوجه والرأس والذراعين، أنين وتوجع وتأوهات، بطانياتنا المتهرئة وأوانينا المعدنية وأسماطنا القديمة التي نحفظ بها في علب كارتونية، متناثرة على الأرض. ارتفع أنين كاظم الخباز على فراشه: «معاناتنا مستمرة من قادية صدام إلى معركة خورشيدي. الله يلعن علي طماعة.»

قال أحمد القيسي وهو يضغط قطعة من ملابس بالية على جرح رأسه القريب من جبهته: «يبدو أن هذه المقدمة تشير إلى تفاصيل لاحقة مرعبة، وجهك شاحب يا وليد، حاول أن تبقى قويا.» «إذا كنا سنواجه الموت، فكل ما يفعله خورشيدي أنه يختصر لنا الزمن، يدفعنا قسرا إلى مواجهة ما نحاول التهرب من التفكير فيه، فالأسر، هنا وفي ظل هذا النظام وما يفكر فيه من عقلية وما يحمله المسؤولون من رغبة في الانتقام، يعني الموت. لقد حُكم علينا بالموت في لحظة وقوعنا أسرى.»

سألني القيسي وقد اختفت ابتسامته: «هل تريد إقناعي بأنك لا تخاف من الموت الآن؟» «صدقني، لا أخاف من الموت، لكني أخاف من الطريقة التي قد أموت بها هنا.» «وما الفرق إذا كنت تخاف من الموت أم من الطريقة التي تموت بها؟» «الحياة يا صديقي رحلة نحو الموت، لكني أتمنى الموت بشكل سريع وهادئ.» «لماذا لا تتحرر إذاً لتحصل على ما تريده من موت سريع؟»

تطلع الأسير الشاب عادل إليّ وإلى القيسي بذهول، لكنه سرعان ما قاطعنا وهو يقهقه، قائلا: «كان منظرنا مثيرا للضحك، كنا في الممر مثل القروذ يتسلق بعضنا ظهر بعض، ما أضحكني أكثر كان منظر سيد غالي الذي ظل واقفا متحملا ضربات الجنود، يسأل متوسلا الأسرى الراكضين أمامه: أين قاعتي؟ على اليمين أم اليسار؟»

انطلقت الصفارة مرة أخرى، فأعدنا المارتون المأساوي راكضين متدافعين مرتطمين بجدران القاعة الحجرية الناتئة، مجتازين العصي والهراوات. في الساحة، شمخ خورشيدي برأسه عاليا متأبطا ذراعيه. جال ببصره على مجاميع الأسرى المصطفين أمامه، صرخ هائجا: «تأخرتم دقيقة كاملة، سأعطيكم فرصة أخيرة، وإذا ما تأخرتم أكثر من نصف دقيقة سترون ما أفعله بكم.»

مد يده في جيب معطفه وأخرج صفارته. تساءلت مع نفسي عما كان يدور في رأس خورشيدي من عقوبة أخرى أكثر قسوة. ربما راودته فكرة أن يكتب في نهاية ذلك اليوم تقريرا عاجلا إلى طهران يؤكد فيه أن الأسرى تنازلوا عن كل مطلب لهم ويعتذرون عما بدر منهم من شكوى، أو ربما يكتب في تقريره أنه نفذ حرفيا توجيهات دائرته بترويض الأسرى استعدادا لإعلان موالاتهم لإيران.

نفخ في صفارته. إن جلدي بكل خلاياه يقشعر عندما أتذكر ما حدث في تلك اللحظة. كانت مفاجأة صاعقة مذهلة لم تخطر ببال أحد ولم يخطط لها أحد. انطلقت الصفارة، لكن الأسرى ظلوا في أماكنهم جامدين في أماكنهم كالحجارة. لم يتدافعوا هذه المرة راكضين كالقروذ. ظلوا واقفين في أماكنهم وكأنهم قد اتفقوا سرا وبطريقة سحرية غير مرئية على أن لا يتحركوا، أن يجازفوا معا في مغامرة العصيان التي لا يستبعدون أن يكون الثمن فيها زهق أرواحهم، لكن لم يكن هنالك وقت

لحساب الاحتمالات. ليس التعب والجراح هما السبب، كان الأسرى قادرين على الهرولة حتى لو تأخروا نصف دقيقة أو دقيقة أو دقائق. حقا، من يفقد حريته لا يبقى لديه ما يخسره. إنها لحظات تسقط فيها كل الاحتمالات والافتراضات والمخاوف. تلك اللحظات جعلتني أدرك كيف تندلع الانتفاضة وكيف يبدأ التمرد. كانت لحظات تشبه تماما لحظات تقدم المقاتل في لحظة الهجوم أو صد هجوم معاد، ينسى المرء نفسه ويندفع بحماس هستيري، ربما من أجل البقاء، وربما لأنه لا يجد خيارا آخر. ربما دفعنا طغيان خورشيدي إلى موقف لا خيار فيه، إلى رد فعل لا إرادي. لكن لماذا لم يدفعنا ذلك الطغيان إلى مثل هذا الموقف من قبل؟ ما زلت حتى هذه اللحظة غير قادر على تفسير ذلك الموقف الذي جمع الأسرى في لحظة خاطفة على مواجهة الموت.

ارتجف خورشيدي غيظا، يصفر ثانية وثالثة، لكن لم يتحرك أحد. قفز من فوق المنصة جاحظ العينين، صارخا بهستيريا: « تحركوا يا أولاد الكلب، هل نسيتم من أنا؟ أنا خورشيدي.»

حملق الجنود باهتين وقد شلتهم المفاجأة فبقيت هراواتهم مرفوعة في الهواء. عاود خورشيدي الصراخ وأذبال معطفه المطري الأزرق كانت تتراقص مع الريح. كان ينظر إلينا بفزع وخوف. كانت المرة الوحيدة التي أرى فيها جلادا يرتجف هلعاً من ضحيته المحاصرة.

تقدمت الجموع نحو خورشيدي الذي تراجع إلى الوراء فاغراً فاه، فاتحا ذراعيه في الهواء فاصطدمت ساقاه بمنصة العلم فسقط على ظهره جامدا في مكانه طالبا النجدة، تراكض الجنود مذعورين مبتعدين واختفى إسكندر. أحكم الأسرى الطوق حول منصة العلم وخورشيدي. اهتز المعسكر بهتافات غاضبة صاخبة باللغتين العربية والفارسية: «الموت لخورشيدي..مرك بر خورشيدي.»، هجم بعضهم عليه، صفعوه بقوة، لكنه نجح في الإفلات من الحصار بفضل حذائه الذي ركل به من حوله، ركض نحو الباب النظامي يجر وراءه شرائط ممزقة من معطفه المطري الأزرق، طارده عدد من الأسرى، لكن فوهات بنادق الحراس أغلقت أمامهم الطريق.

تصاعد الغليان، وتراكض الأسرى في الساحة مرددين بأصوات عالية قوية « الله أكبر.. هيهات منا الذلة»، وجدت نفسي أصرخ مع الآخرين بجنون ودموعي تغسل ما علا وجهي من غبار ومن نثار الدم الذي تطاير من الرؤوس التي شجتها الهراوات. رددت سفوح الجبال والوديان العميقة صدى الهتافات. تجاوبت الصفارات من الباب النظامي ومن معسكر التدريب المجاور، لكن لم يبال أحد منا بالتعب والجوع والصفارات.

بدأ الأسرى بلطم صدورهم وهم يهرولون مرددين «أسمع زين خورشيدي، هيهات منا الذلة»، بينما وقف عيسى البلداوي على منصة العلم وقد تقطعت أزرار قميص بذلته وتمزقت فانيته المصفرة المتهرئة، ملوحا بيده صارخا: « أحسنتم يا نشامى، سنأتي قوات الحرس الجمهوري لإسنادكم. هنيئا لكم، لقد عينتكم جميعا أعضاء في القيادة القطرية.».

تعالى دوي ثلاث مدرعات اقتربت من الأسلاك الشائكة التي تفصل المعسكر عن ساحة معسكر تدريب الجنود الإيرانيين. أعداد كبيرة من الجنود يهرولوا هازين بنادقهم الآلية « جي سي»، شكلوا صفا طويلا خلف الأسلاك التي اهتزت فوقها اليافطات الحمراء بما كانت تحمله من جماجم وعظام منقطة، موجهين فوهات بنادقهم نحو الساحة.

ركضت في الساحة تدفعا، مثل الآخرين، قوة عجيبة نسيت معها التعب والجراح والكدمات. كانت الأقدام الحافية تثير غبارا كثيفا. لمحت « أبو زينب » وهو يتسلل غفلة بملابس النوم من غرفته بمحاذاة القاعة الثالثة ثم يصل إلى الممر الرئيس المؤدي إلى الباب النظامي حيث وقف جنود مسلحون، فركض طالبا النجدة.

في الزاوية البعيدة القريبة من الأسلاك الشائكة، رأيت أسيرا من «التوابين» الموالين للإيرانيين كانت ذراعه تتخبطان في الهواء محاولا الإفلات من قبضات أربعة من الأسرى الشباب، أسقطوه أرضا وتناوبوا على رفسه بمنتهى القسوة، صرخ حاميا رأسه بذراعيه وقد التقى مرفقاها أمام وجهه الملطخ بالدم والتراب، هرعت إليه، ليس خوفا عليه بل خوف على الآخرين لأنه إن مات سيحملنا الإيرانيون مسؤولية موته. رميت نفسي عليه لأحميه، تراجع الأربعة على مضض؛ لأنهم على الرغم من الفوضى والهباج، لا ينسون أن هناك من وضعني في قائمة «الأبطال». قرفص الأسير الخائن متشبثا بساقي المرتعشتين، متوسلا أن لا أتركه مخافة أن يفتك به آخرون، فمسكته من ذراعه ورافقته إلى مسافة قريبة من الباب النظامي، حيث رأيت هناك فتحي واعتمادا وأفشاري والشيخ سعدي الذي كان يصرخ في وجوههم، وما إن شعر ذلك الأسير بالأمان حيث علا صوته صائحا مشيرا إليّ بإصبعه: «صداميون قذرون جبناء.»

صرخ الأرشد العام حسين عباس باكيا وهو يحاول التملص من يدي أحد الأسرى: «أنا عراقي مثلكم، أسير مثلكم.»، وحين لم تجد عباراته، صرخ من جديد: «دخيل أهل الناصرية أهل المروعة.» دفعت النخوة اثنين من الأسرى فهبا لحمايته ومرافقته إلى الباب النظامي، لكن لم يهب أحد لنجدة المترجم إسكندر الذي قبض عليه مختبئا في المرافق الصحية، فتهافت عليه عدد من الأسرى بالضرب، وبعد أن تركوه، ركض والدم يغطي وجهه فتلقفته مجموعة أخرى راحت تضربه حتى فقد وعيه، فسحبه اثنان إلى حيث يقف الجنود وتركاه هناك، وعفا الأسرى عن عدد آخر فأسرع أولئك إلى الباب النظامي.

الساعة الثانية ظهرا تقريبا والأسرى لم ينفكوا عن الركض في الساحة صارخين. تعب عيسى البلداوي من الصياح والصراخ فأسند يده على سارية العلم، لكن يده تنزلق على عقدة الحبل الذي كان يرفع العلم، فسحبها من دون أن يدري إلى أسفل فنزل العلم، صوب أحد الجنود المسلحين الواقفين وراء الأسلاك الشائكة البندقية نحوه وأطلق النار، لعله ظن أن الأسير كان ينوي إنزال العلم لتمزيقه. سقط عيسى البلداوي على المنصة، فخيم الصمت، أسرع العقيد شفازند نحو الجندي الذي أطلق الرصاص وصفعه بقوة وأمر جنود الانضباط باعتقاله.

تراكضنا نحو عيسى فوجدناه مصابا في صدره والدم ينزف منه، كان ينظر إلى من حوله بعينين زائغتين قائلا بصوت خافت مرتجف: «أيها الشعب العراقي العظيم.. يا أبناء الأمة العربية المجيدة..» لكنه أغمض عينيه غارقا في غيبوبة وتدلّى رأسه في حزن أحد الأسرى. انطلق صراخ الأسرى من جديد مهرولين في الساحة لاطمين صدورهم وقد اختلطت شعاراتهم وهتافاتهم وارتفع ضجيجهم عاليا، وبعضهم رفع عاليا يده المصبوغة بدم عيسى.

توقفت شاحنات كثيرة خلف الأسلاك وترجل منها أفراد مسلحون من قوات الحرس الثوري وآخرون بملابس مدنية ولحي خفيفة.

سمعنا صوت العقيد شفافند، الواقف خلف الأسلاك، عبر مكبرات الصوت، وسمعنا بعده صوت جندي عربستاني يترجم ما قاله العقيد: «يجب أن تخلدوا إلى السكينة والهدوء، هنالك أسير جريح لا بد من نقله إلى المستشفى، وأعدكم بشر في العسكري أن أستمع إلى مطالبكم فإن وجدتها معقولة أنفذها في الحال. هذه الفوضى لن تفيديكم، وإذا ما استمرت قد اضطر إلى اتخاذ إجراءات قاسية.»

حاول عدد من الأسرى كبار السن إقناع الآخرين بنصيحة شفافند. وجدت من الغباء بذل تلك المحاولة في تلك اللحظات التي تخلص فيها الأسرى الشباب من عقدة الخوف، بل شعروا أنهم أعتقوا من ربة الأسر والذل. كانوا يرون من ينصحهم بالتعقل متخاذلا لا يريد أن يشاركهم المصير، لم يكتفوا برفض تدخل الكبار وإنما دفعوهم جانبا، مواصلين الصراخ والهرولة ولطم الصدور.

انطلق الرصاص بغزارة ولكن فوق الرؤوس الحليقة، وحدثت مفاجأة أخرى، فمثلما صعق خورشيدي من ردة فعل غير متوقعة حين تمردنا على صفارته، نظر شفافند والضباط الواقفون إلى جانبه بذهول إلى الأسرى فربما كانوا يتوقعون رؤيتهم يركضون إلى قاعاتهم خائفين من الرصاص، لكنهم شاهدوهم ينزعون قمصان بدلاتهم مندفعين بهستيريا نحو الأسلاك الشائكة ليواجهوا فوهات البنادق بصدور عارية. ما أثار دهشتي أن «زيني» كان أول من نزع قميصه مندفعاً نحو الأسلاك ليكون أمام فوهات البنادق مباشرة. رفع شفافند يده فتوقف إطلاق الرصاص. قال العقيد شفافند عبر مكبرات الصوت: «أريد منكم الهدوء، الإخوة هنا قادة وحدات من الجيش والحرس الثوري والتعبئة يبدون استعدادهم للتدخل وقمع التمرد، لكنني شكرتهم وطمأنتهم إلى أن كل شيء سيكون على ما يرام.»

أشار العقيد إلى الجنود المسلحين بالانسحاب من أماكنهم، فانسحبت قوات الحرس الثوري والتعبئة، وغادر شفافند مكانه وراء الأسلاك الشائكة التي اهتزت أكثر بفعل شدة الريح. ابتعدت الشاحنات مثيرة غبارا غطى الساحة والصدور العارية، بينما هروا جنديان أعزلان نحو عيسى البلداوي وحمله نحو الباب النظامي، وتناهت إلى أسماعنا صفارة سيارة الإسعاف وهي تبتعد به خارج المعسكر.

خفت أصوات الأسرى الذين افترشوا الأرض منهكين من التعب والجوع والصراخ. هبط قرص الشمس بجوار البحيرة، فيما راحت الريح تذر الوجوه برداذا الغيوم وحصى الساحة الناعم. تقدم شفافند نحو الساحة لوحده مشيرا إلينا أن نبقى جالسين في أماكننا. صعد منصة العلم، سأل عن مترجم فرشح الأسرى شيركو للمهمة. حين صعد شيركو المنصة صفق له الأسرى طويلا، وكأنهم قد اختاروه قائدا رغم أنه.

قال العقيد بصوت هادئ: «وعدتكم أن أسمع مطالبكم، فأخبروني ما تريدون.»

تحدث كثيرون مرة واحدة، فاختلفت الأصوات العالية، لكن العقيد قاطعهم متذمرا: «لم أفهم شيئا ولن أفهم إذا واصلتم الكلام كلكم مرة واحدة.»

حثهم شيركو أن يدعوا عددا منهم يتحدثون نيابة عن الآخرين، لكن صوته ضاع أيضا وسط الضجيج، فهذا طالب بإعدام الجندي الذي أطلق الرصاص على عيسى، وذاك طالب بحضور لجنة الصليب الأحمر للتحقيق في جريمة تعذيب الأسرى على يد خورشيدي، وأسير طالب بترحيل

الموالين لإيران إلى معسكر آخر، وأسير اقترح بزيادة حصص الخبز والرز، ووصل الأمر بأحد الأسرى المطالبة بترحيل الأسرى إلى بلد ثالث محايد طبقا لاتفاقيات جنيف، وهناك من أيد المطالب ومنهم من نصح الآخرين بعدم المبالغة في المطالب وتذكيرهم أنهم لا يزالون أسرى بيد العدو.

قال شفافند بصوت هادئ: «حسنا، اذهبوا إلى قاعاتكم وسأسمع مطالب أسرى كل قاعة على حدة.»

تساقطت حبات الثلج على رؤوسنا وانزلقت على صدورنا العارية، فتفرقنا في الساحة والممرات باحثين عن نعالنا وكليتنا التي نغطي بها الرؤوس. جررنا أقدامنا بصعوبة إلى القاعات التي ما إن دخلناها حتى جاء جنود الانضباط مسرعين وأقفلوها علينا.

ارتفع الضجيج في القاعة، فالأسرى الشباب حاولوا عبثا الاتفاق على مطالب محددة، ولم يعيروا هذه المرة أيضا اهتماما بأي اقتراح أو نصيحة للتعقل والتفكير بعواقب عنادهم، حتى لو كانت تلك النصيحة من أسرى مدرجين في قائمة «الأبطال».

جلستُ بجوار أحمد القيسي الذي كان يتحسس جرح رأسه غير مبال بما يدور في القاعة من نقاش حاد. قال وكأنه يحدث نفسه: «كانت إصابة عيسى البلداوي في الجهة اليمنى من الصدر، لا أعتقد أنه سيعيش أكثر من يوم أو يومين، لقد نزف كثيرا.»

«ربما هو ميت الآن. وماذا سيحدث؟ لا شيء، يظل الجندي القاتل أسبوعا أو أسبوعين ثم يطلق سراحه، وكل ما يفعله المسؤولون أن يلقوا بجثة المسكين عيسى في حفرة في مقبرة الغرباء ويشطبوا اسمه من قوائم الأسرى ومن حصص الملابس والطعام.»

قال زيني: «ما بكما؟ لماذا التشاؤم دائما؟ سيشفى عيسى، إن شاء الله، ويعود.»

نظر إلينا متصنعا المرح: «وسيعقد اجتماعاته مع أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة، وأرجو أن لا ينسى قراره بتعييننا أعضاء في القيادة القطرية.»

نظر القيسي إليه بطرف عينه: «الآن عرفت سبب خسائك في المراهنة على سباقات الخيول، أعتقد أنك كنت تختار أي رقم وتتفاعل بالفوز من دون سؤال عن أصالة الحصان وعمره وسجله، أليس كذلك؟ أنت ترى الأشياء كما ترغب لا كما هي في الحقيقة، وليس ببعيد أنك تأمل أن يدخل خورشيدي علينا بعد قليل متناسيا ما حل به من إهانة، ليعلن الصفح عنا وكان شيئا لم يحدث.»

لم يعلق زيني بل أخرج من جيبه حصة تظاهر بتفحصها.

كان الليل قد حل حين فتح الجنود الباب، ودخل العقيد شفافند القاعة، تدافع الأسرى نحوه، وقبل أن يرتفع الضجيج، رفع العقيد يده طالبا من الجميع السكوت، قال بلهجة تحذير: «لا أعتقد أن ما ستقولونه من مطالب يختلف عما قاله إخوانكم في القاعات الأخرى، ما أريده الآن هو الإصغاء لما أقوله واستيعابه، لأنني لن أكرر ذلك؛ يمكنني تقادي ما سيحصل من تطورات ليست في صالحكم إذا ما تعهدتم الآن بالطاعة والالتزام بتنفيذ الأوامر. ليس من حقم المطالبة بنقل أغا خورشيدي، واركوا الأمر لي لأقرر ما فيه مصلحة الجميع. أما الإلحاح بنقل الأسرى المؤمنين إلى معسكر آخر، فهذا ضرب من المستحيل، وعليكم قبولهم بينكم، شئتم أم أبيتم، فهم أسرى وعراقيون مثلكم، وليس من حقم إملاء إرادتكم على إدارة المعسكر. أما ما يتعلق بتوفير الأدوية والملابس وتعيين

طبيب في المعسكر ، فأعدكم بشر في العسكري أنني سأبذل كل جهدي في ذلك خلال فترة أسبوع أو عشرة أيام، وسأستفسر بنفسي عن لجنة الصليب الأحمر وعن الرسائل، وقد أمرت بالتحقيق مع الجندي الذي أطلق النار على الأسير عيسى وإحالته إلى محكمة عسكرية، وقبل أن تردوا، أريدكم أن تتذكروا إخوانكم المرضى وكبار السن وما قد يتعرضون له من أذى ومعاناة، فماذا تقولون؟»

كان اقتراح العقيد شفافاً وجيهاً ومعقولاً من وجهة نظر العديد من الأسرى، لكن أصوات الشباب المتشجنين المصريين على مطالبهم، كانت أعلى من أصوات الآخرين. تطلع العقيد في الوجوه، قائلاً بنفاد صبر: «في هذه الحالة، سأبلغ المسؤولين في طهران، وعليه ستظل الأبواب مغلقة حتى إشعار آخر، أنا واثق أنكم ستندمون على إصراركم هذا، لكنه سيكون ندماً بعد فوات الأوان.» وكان الأمر كما توقع شفافاً.

احتد النقاش في القاعة، وتتصل البعض من مسؤوليته في الورطة التي وقعنا فيها، فيما البعض الآخر ظل يكابر مدافعاً بلا حماس عن موقفه في الإصرار على مطالب كان صعباً تنفيذها. خفت الأصوات شيئاً فشيئاً، وخيم صمت ثقيل أدركت فيه أن الجميع كانوا مثلي يخمنون بتوجس ورهبة انتقام خورشيدي. فجأة، انفتح الباب واندفع خورشيدي داخل القاعة يتبعه عشرة جنود. وقفنا أمامه مرعوبين. لم يكن خورشيدي الذي نعرفه، بدت هيئته مثل مقامر فقد كل شيء، شاحب الوجه، يابس الشفتين، وعلى يديه خدوش أظافر لا تزال حمراء، سترته مقطوعة الأزرار.

خاطبنا بصوت حاول إخفاء الانكسار فيه: «لم يخطر ببالي أن يصل استهتاركم إلى هذا الحد، أن يصفعني البعض ويطاردني آخرون. لكنني لا أهزم، لن أغادر هذا المكان من دون انتقام. لن أترككم حتى أوقن أنكم نادمون على يوم ولادتكم. هل حسبتم أنكم بقيادة شيركو ستنتصرون عليّ؟» تقدم زيني نحوه، قال له بخنوع: «كان تهورا من البعض، لكن معظم الأسرى يحبونك، أغا خورشيدي، صدقني.» لم يفهم خورشيدي ما قاله زيني بالعربية، فصرخ فيه أن يوضح قصده، فلم يجد زيني من وسيلة سوى لغة الإشارة، فرسم بإصبعه دائرة تشمل جميع الأسرى الواقفين، ثم أشار إلى خورشيدي وقرب إصبعه إلى شفتيه وقبله، لكن خورشيدي صفعه بقوة، ركله وأسقطه أرضاً، قال لاهثاً: «بعد كل ما فعلتموه، يأتي هذا المجنون ليطلب مني أن أوزع السجائر عليكم. العقوبة لم تبدأ بعد، فانتظروا. أعرف جيداً أن من بينكم من لم يشارك في الفوضى والتمرد، لكنهم لا بد أن يشاركوا الآخرين في العقوبة؛ لأنهم لم يتدخلوا لوقف المجرمين عند حدهم. يقول المثل عندنا إن تطبيق الظلم على الجميع عدالة.»

\* \* \*

تململ « العم حسان » في مكانه وسط طابور المنتظرين على أبواب المرافق الصحية، واضعا يديه على بطنه، وعيناه تنتقلان بين من يقفون قبله ومن يقفون بعده، قال متبرما: « يبدو لي أن القائمين على المعسكر لا يفكرون بشيء على الإطلاق غير ابتكار العقوبات. لا يخطر ببالي أنهم يعيشون حياة عادية كالآخرين خارج الأسلاك الشائكة، وأن لهم زوجات وأطفالاً وحياة اجتماعية. » رد عليه أحمد القيسي: « إنهم يحاولون إثبات أهليتهم للمهمة المكلفين بها، ليس إخلاصاً للواجب، بل خوف من اتهامهم بالتقصير ومن ثم إعادهم إلى الخطوط الأمامية في جبهات القتال، ولولا اضطرارهم لإتاحة الفرصة أمامنا للوضوء لما فتحو الأبواب إلا مرة واحدة. »

قلت ضاحكا: « لو كان الإيرانيون على مذهب أهل السنة لكان حالنا الآن أفضل، فسيضطرون إلى فتح الأبواب خمس مرات في اليوم بعدد الصلوات. »

منذ أسبوع وأبواب القاعات مغلقة لا تفتح إلا ثلاث مرات في اليوم ولمدة عشرين دقيقة فقط للمرة الواحدة؛ في الصباح الباكر قبل صلاة الصبح، وعند الظهر مع أذان الصلاة، وعند الغروب، وفي كل مرة، يترامض الأسرى متسابقين لاحتلال المواقع الأمامية في طوابير الانتظار أمام المرافق الصحية ليقتضوا حاجتهم قبل انتهاء المهلة، فهناك ثمانية مرافق صحية لكل أربع قاعات. ثمانية مرافق صحية لألف وخمسمائة أسير عليهم أن يقضوا حاجتهم خلال عشرين دقيقة. سيئ الحظ من يكون أخيراً، فهو يُعاد إلى القاعة قسراً عند انتهاء مهلة العشرين دقيقة، وإن كان قد دخل المرافق عند انطلاق الصفارة، فالجنود لا يتورعون عن اقتحام المرافق وإخراجه منها قبل أن يجد وقتاً لرفع سرواله.

انطلقت الصفارة، وتراكم الجنود نحونا يدفعوننا بعصيهم إلى القاعات. قال « العم حسان » وهو يهز رأسه متوعداً جالسا على سريره: « والله، لو قدر لي أن أعود إلى العراق يوماً، سأثأر لنفسي من هذه العقوبة، سأقضي أياماً كاملة أمام المرافق الصحية في داري، أدخل وأخرج، أدخل وأخرج حتى أمل منها. »

علق زيني ضاحكا: « يبدو أنك متساهل جداً، فأنا لن أكتفي بوضع أفراد عائلتي في طابور أمام المرافق الصحية لأشعرهم بمعاناتي، بل سأوظفهم أيضاً عند الثالثة والنصف فجراً للوضوء وقراءة القرآن، ليس هذا فقط، سأنصب سارية في حديقة الدار وأطلب منهم ترديد بعض الشعارات بقوة حتى تصل إلى أسماع جميع سكان حي التجار في بغداد. »

لا يفوت القيسي الفرصة لاستفزاز زيني، فيقهقه قائلاً: « إياك أن تفعل ذلك يا زيني أو تخبر زوجتك به، لأنها ستطبق تلك العقوبة عليك وربما أكثر شدة، وحينها تترحم على أيام الأسر. »

كانت العقوبة قاسية، ليس فقط بسبب جزنا داخل القاعة المشبعة بالرطوبة والعفونة ورائحة البول الخانقة بعد أن اضطر الأسرى إلى التبول ليلاً في مجرى صغير في جانب القاعة المطل على الساحة، وليس بسبب انقطاع السجائر، وإنما بسبب الجوع، فقد أصبحت حصة الفرد من الخبز ربع رغيف ليوم كامل، وألغيت وجبة الغداء وقللت وجبة العشاء، ولا شك أن العريف فتحي هزّ كرشه فرحاً وهو يحسب ما تدر عليه عقوبتنا من أرباح ليست بالقليلة من بيع ما يزيد من

الحصاة المقررة للأسرى من أكياس الرز والطحين والفاصوليا والحمص والبصل والبطاطا وصناديق الطماسة وعلب السجائر.

جلس القيسي وزيني وعادل على سريري، وتحدثنا عن كل شيء، عن العراق والحرب والعقوبة والعقيد شريف عسكري وعن خورشيدي والجوع. قال عادل ضاحكا: « على الرغم من كون عائلتي كبيرة، ستة أولاد، أنا أكبرهم، وأربع بنات، كان أبي ذا دخل محدود قليل، فهو يعمل عاملا في حديقة حيوان منتزه الزوراء. هل تصدقون أننا كنا نتناول الفاكهة بانتظام، خاصة الموز، عدا أبي، الذي لم يكن يأكل شيئا مما يحمله إلينا من أكياس الموز؟ وكثيرا ما كان أبي يرمي الأكياس ويختفي في غرفة النوم. كنا نظن أنه أكل حصته أثناء الطريق من عمله إلى البيت، وعندما ألحنا عليه ذات يوم أن يشاركنا كيس الموز، قال وقد أدار وجهه جانبا: « لا أستطيع، لا أستطيع، لأنني لا يمكن أن أنسى العيون الدامعة لقرود الحديقة وهي تراني أحمل أمامها حصتها من الموز بعيدا. كان عليّ أن أختار بينكم وبين القرود، وكلكم جياع، فاخترتكم مضطرا.»

كنت حينها أسند ظهري إلى الحائط مغطيا ساقيّ ببطانيتي المتهرئة حافظها، فوقع نظري على قشر برتقالة كنت قد وضعته قبل عشرة أيام عند حافة النافذة القريبة المنخفضة عن موضع سريري القريب من سقف القاعة، ونسيته هناك، كان منظره مغريا لا يقاوم، حلقات مدورة مقعرة بلونها المثير. رأيت في القشر لقمة ينتفخ لها الحلق، بل رأيت تلك اللحظة شهيا كفخذ ضأن محمر نقلوه توا من نار جمر هادئة، أو فخذ دجاج رُشت عليه بهارات هندية. صدق من قال «إن البطن الفارغ لا يسمع أحدا». إن بطني لم يسمع ما كان يدور في رأسي وضميري. الجوع يعمي البصيرة ويشوش الذاكرة. كان أصحابي غارقين في حديثهم، تعلو أصواتهم ثم تخفت وتعود عالية ثانية، لكن بالي كان مشدودا إلى القشر المدور الشهوي. ما الفائدة من تقسيمه إلى أجزاء صغيرة على الحاضرين؟ كانوا سيتقبلون الحصاة حتى لو كانت بقدر عقدة الإصبع، لكنني كنت أتضور جوعا، ربما مثلهم أو ربما أكثر منهم، ولا يمكنني الصبر حتى ذهابهم عني. ربما كانوا سيتركونني أتلدذ به، حتى لو فعلوا ذلك، ما كنت أنأ به تحت أبصارهم التي ستنغلغل بين أسناني وترافق قطعه إلى المريء وحتى المعدة الخالية. سحبت القشر خفية ودسسته تحت البطانية، قلت لهم إنني أشعر بحرقة بين فخذي، وسحبت البطانية على رأسي ورحت أفضم القشر كفأر حذرا أن يسمعوا مضغي. كان القشر لذيذا جدا، بل إنني لم أذق لذة في حياتي كلذة ذلك القشر، وعندما أخرجت رأسي، شعرت بالذنب، بالعار والخيانة.

لا ضجيج في القاعة، والأصوات باتت خافتة. الأسرى ذاهلون، كانوا ينتقلون بين الأسرة مترنحين، يتحدثون ببطء عن توقعاتهم بهول الأيام المقبلة وقسوة العقوبة المتوقعة بعد أن أخبرنا فتحي قبل يومين بقرار الإدارة في طهران بأن تظل الأبواب مغلقة حتى يصل العقيد شريف عسكري أو «الوحش الكاسر» كما سماه سيد مهدي، من طهران ترافقه هيئة محكمة عسكرية تتمتع بكل الصلاحيات، وفي مقدمتها الحكم بالإعدام.

لم يشك أحد بصدق ما قاله فتحي وإن كان قصده من إشاعة الخبر رؤية الخوف في عيوننا، فالإعدام مفردة تتردد في نشرات أخبار التلفزيون الذي يعرض بين الحين والحين مشاهد مشانق منصوبة في ساحات عامة تتدلى منها أجساد محنية الرؤوس، وينفذ الحكم في كل مرة بموافقة آية الله أردبيلي، رئيس مجلس القضاء الأعلى، والتهمة المتاجرة بالمخدرات أو التجسس أو التآمر على

دولة الإسلام، ولا تقتصر مشاهد الإعدام على الرجال فقط، فالتليفزيون عرض مشاهد لإعدام نسوة، لكن الفرق أن النساء يعلقن بحبل المشنقة وكل واحدة داخل كيس كبير، هذا إذا كن متهمات بالمتاجرة بالمخدرات أو التآمر أو الانتماء إلى تنظيمات محظورة، أما إذا كانت التهمة هي الزنا، فالحكم هو أقطع، فالمرأة تحشر مقيدة داخل كيس وترجم بالحجارة حتى الموت.

«إذا كانوا يدعون العدالة ولو ظاهريا، فليأتوا لنا بفريق من المحامين للدفاع عنا.» قال زيني متلعثما.

قلت: «كلامك يذكرني بخالي الذي رفض الانتماء إلى حزب البعث فألصقوا به تهمة الاختلاس وأحالوه إلى محكمة أمن الثورة. رفض المسكين توكيل محام للدفاع عنه؛ لأنه كان واثقا من قدرته على إقناع المحكمة ببراءته، وفي يوم المحاكمة، أخرج خالي أوراقا من جيبه ليقرأ دفاعه عن نفسه، فقال له رئيس المحكمة هازئا: «ماذا تفعل؟ هل تريد إضاعة وقتنا؟ لن ينفك ما كتبته، فقرار الحكم موجود أمامي قبل أن تبدأ المحاكمة.»

«سنطالبهم بدليل يبيح إعدامنا.»

رد عليه القيسي جادا: «ما هذا الهذيان؟ من نحن حتى نطالبهم بدليل؟ إننا برأيهم مجرد أسرى كفرة. حتى لو فرضنا أنهم يمنحوننا هذا الحق، وهذا ضرب من الخيال، سنكون مثل من يطالب بقضاة محايدين أو بهيئة محلفين في بلد من بلدان العالم الثالث، سيعتبرون طلبنا هذا وقاحة وتشكيكا بالنظام الإسلامي.

«لكن الشريعة لا تحكم بذلك، وأعتقد أنني، مثلا، قادر على إثبات ما أدعيه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.»

«هل تعلم يا زيني أننا محظوظون؟»

«محظوظون؟»

قهقه أحمد القيسي، قائلا: «لأنهم لن يتهمونا بالزنا، فالشنق أرحم من الرجم بالحجارة حتى الموت.»

منذ أسبوع، وليس هنالك من خبر مؤكد عن عيسى البلداوي. وصلتنا من المطبخ أخبار متناقضة عنه، فهناك من الإيرانيين من أعلن موته قبل وصوله المستشفى، ومنهم من زعم وجوده هناك، وفي قسم العناية المركزة، لكن خبر موته أصبح الآن شبه مؤكد.

أتذكر آخر ليلة كان فيها يجلس على سريره كالعادة، رافعا رأسه بكبرياء وأنفة، كان عصبيا متوترا، كان يحرك رأسه يمنا ويسرة ببطء كأنسان آلي، مما حدا بالقريبين منه إلى الابتعاد خوفا من أن ينقض عليهم مع أنهم يعلمون أن نظراته لم تكن موجهة إليهم وإنما إلى أعضاء القيادة الذين لا يراهم أحد غيره، صرخ فجأة: «من أنا أيها الأوغاد؟ أنا صدام، بطل الأمة العربية وصانع أمجادها، هل نسيتم أيها الأغبياء؟ أستطيع الآن وبكل بساطة أن أقتلكم جميعا، وليس على الأرض من يحاسبني، أليس كذلك؟ لماذا لم تنتقموا لموت زهراو و«أبو حميد»؟ إن زهراو أشرف منكم جميعا، ويستحق أن تعلق على صدور أبنائه كل أنواع الشجاعة التي تحملونها.»

هدأ قليلا متحدثا بهدوء: «حلمت البارحة، لا، الليلة قبل البارحة، لا أذكر أية ليلة، ربما حلمت في النهار، المهم أنني حلمت. ماذا حلمت؟ لا أريد أحدا منكم يقاطعني، مفهوم؟ ماذا كنت أقول؟ أنتم

أغبياء لأنكم لا تحفظون ما أقول. هل تحسون بما يعانیه الأسرى في إيران؟ إنهم جياع، عراة، مظلومون.»

أجهش بالبكاء، لكنه انقطع فجأة: « اسمعوا، هذا مرسوم جمهوري، على كافة الوزارات والمؤسسات تنفيذه وبسرعة، إنشاء مقبرة كبيرة للأسرى، أريدها بجوار القصر الجمهوري، لا، سيكون صعبا على أهلهم الوصول إليهم بسبب كثرة نقاط الحراسة والتفتيش، أريدها وسط بغداد، محاطة بنافورات، وأن تزرع فيها كل أنواع الأشجار والورود، وتزرع فيها الطماطة والخيار والبادنجان، وأريد بناء حمامات فيها مزودة بالماء الحار النظيف، لا، أريد بناء أكبر عدد ممكن من المرافق الصحية، مفهوم؟ أريدها أكبر من مقبرة « بهشت زهراء» في طهران. ماذا نسميها؟ مقبرة صدام؟ لا، مقبرة قادسية صدام؟ لا، نسميها: «مقبرة الأشاوس». رأسي يكاد ينفجر من كثرة تصفيقكم، كفى، لا أريد أية هتافات، لا ترددوا أي شعار، كفى أيها الأغبياء.»

أخفوا خبر موتك كما أخفوا جسدك المكفن بالدماء، ليس خوفا منا، بل خوف من انتشار الخبر ووصوله إلى أسماع لجنة الصليب الأحمر والرأي العام ومجلس الأمن. لم يرتك الشعراء الواقفون بذلة على أبواب قصر الخليفة ولم يذكر كتاب الأعمدة اليومية في الصحافة، لم يبك أعضاء القيادة القطرية والقيادة العامة للقوات المسلحة، لم يشيعك « النشامي». لن تكون هناك مقبرة للأشاوس وسط بغداد، ولن تظل قبرك أشجار وورود. لم نخبرنا يا عيسى عن حلمك، هل كنت في حلمك أسيرا ذليلا أم طاغية يصفق له الجبناء؟ أنت معذور لنسيانك الحلم، فقد اختلط كل شيء في ذاكرتك، الحقائق والأوهام، الوطن والغربة، الواقع والخيال. قتلتك الأوامر والنواهي والتحذيرات. كنت تتمنى قبراً يسهل الوصول إليه، لكن قبرك الآن في مكان مجهول تفصله عن أهلك السنة من الحرائق وحقول الألغام وأكداس القتلى.

رأى أحمد القيسي في سجننا داخل القاعات فرصة لحفظ مفردات من اللغة الفارسية كان قد كتبها في دفتره مستعينا بي وبالأخرين، كنت أراه في أحيان كثيرة منزويا على سريره لائذا بدفتره الصغير من آلام الجوع التي أذابت كرشه، ومن القلق من العقوبات المتوقعة. في كل مرة يراني فيها، كان يضع دفتره على راحة يدي طالبا مني اختبار ما حفظه من كلمات، وكانت النتيجة جيدة دائما.

ذات ظهيرة، جاعني أحمد ضاحكا: « قبل قليل كنت أقف أمام التليفزيون لأمتحن ما حفظته من مفردات فارسية، كدت أصرخ من الفرح، لقد فهمت كل كلمة قالها المذيع وهو يقرأ تعليقا سياسيا. قلت لنفسى: إنك حقا عبقرى يا أحمد، بت تفهم كل ما يقال بالفارسية في أيام قلائل! ربما بعد شهرين أو ثلاثة سنتنظم الشعر باللغة الفارسية مثل عمر الخيام وحافظ وسعدي.»

قاطعته مشاركا فرحته: « خبر جيد.»

اخذت ابتسامة القيسي قائلا: « قبل أن أبتعد عن التليفزيون، انتبهت إلى أن المذيع كان يتحدث باللغة العربية.»

كان أحمد يتمتع فعلا بذاكرة قوية لا تهمل التفاصيل المثيرة، لذلك كنت أصغي لما كان يرويهِ من ذكرياته في «الصدرية» وهي واحدة من حارات بغداد القديمة، يوم كان صغيرا ينتظر عند رأس الزقاق الضيق وعند مغيب الشمس عودة أبيه الحداد الذي لم يتأخر يوما عن مواعده محملا بأكياس

الفاكهة. كان يضع بعضها بين ذراعي ولده الصغير. عندما يصلان الساحة الكبيرة المحاطة بغرف استأجرتها عائلات فقيرة، كان الأب يلقي تحية المساء بصوت عال، بعض النزلاء كان يطل من الأبواب ليرد التحية بحرارة، والبعض الآخر يكتفي بردها من وراء الأبواب الموصدة مرفقة بأطيب التمنيات. حين يصعدان السلم، يترك الأب وراءه رائحة غريبة تذكر الصغير برائحة الخل. كان الأب يضع الأكياس على البساط المفروش وسط الغرفة، يحضن وجه ابنه بكفيه الخشنتين فيشم الصغير فيهما رائحة الصدا قبل أن يدس في جيبه درهما. وفي كل يوم، كانت الأم لا تنسى أن تقول متبرمة: «ما حاجتنا إلى الفاكهة ونحن نعيش في غرفة على السطح تصليها الشمس في الصيف، ويسكنها البرد في الشتاء؟ اشترى أصحابك الحدادون دورا، أما أنت فالعرق الذي تعبته في جوفك يجعلك ترى حجر الفران هذا صالة قصر من قصور الملك. لماذا لا يتبرع غيرك بدفع إيجار الغرفة الثالثة التي يسكنها العجوز المقعد؟ لماذا علينا أن نوزع الفاكهة والحلوى على النزلاء ونحن لا نخلف عنهم بشيء؟»

ربما ينسى أحمد تفاصيل أخرى، لكنه لن ينسى مشهدا من طفولته ظل محفورا في ذاكرته. ذات مساء، عاد أبوه محملا بأكياس الفاكهة كعادته، صعد السلم وأحمد يتبعه. انتبه الصغير إلى تقاحات تسقط على درجات السلم الحجري وتمر بين رجليه، حين رفع رأسه، رأى أباه ساقطا متوسدا ذراعه، ظن أن نعاسا باغته، لكن أمه راحت تصرخ مولولة. لم يبت أبوه تلك الليلة في الغرفة الوحيدة على السطح، ولم يفهم الصغير ما جرى وما قاله له الآخرون. ظل أحمد طوال أسبوعين، يقف عند مغيب الشمس عند رأس الزقاق منتظرا عودة أبيه، تغيظه نظرات الشفقة التي يصوبها إليه المارون أمامه من أهل الحارة والزقاق.

قال لي أحمد مرة: «في عمر الثانية عشرة، أصبحت مسؤولا عن إعالة عائلة من ستة أفراد، فقد شغلت محل أبي في محل الحدادة، لكنني لم أرجع إليهم حاملا أكياس الفاكهة، بل كنت أعود متعبا متأبطا كتب الدراسة المسائية.»

في الأول من شباط، تساقط الثلج بكثافة منذ الصباح الباكر، وعند الظهر، دخل علينا الشيخ سعدي الذي حيانا قبل أن يزيح حبات الثلج عن كتفيه وعمامته وينفض عبايته. أخبرنا بإيجاز أنه لا يرانا أعداء بل أخوة مسلمون يجد من واجبه الشرعي بذل كل جهد للحفاظ على كرامتنا وتوفير أبسط حقوقنا، وتلك سنكون مهمته في طهران التي صدر أمر نقله إليها. صافح الجميع دونما ملل، وارتفعت أصواتنا داعية له بالسلامة والعافية. لكن في المساء، أخبرنا العاملون في المطبخ أن سيارة الشيخ سعدي «اللاندروفر» تعرضت عصرا وعلى مسافة قصيرة من بوابة المعسكر إلى وابل من الرصاص، وبعد ساعة، جمع فتحي جميع العاملين في المطبخ قائلا وهو يرفع سبابته بموازاة أنفه: «اغتيال أعداء الشعب من مجاهدي خلق الشيخ سعدي هذا اليوم، مفهوم؟»

فقدنا ذلك اليوم نصيرا لنا، كنا نشعر ببعض الأمان بوجوده معنا، لكن لم يدر في خلدنا أن عصابة المعسكر قادرة على قتل واحد من رجال الدين لمجرد احتجاجه على سوء الإدارة وتعذيب الأسرى. ازداد حزن الجميع حين علمنا صباح اليوم التالي بمقتل الجندي الإيراني «علي مشهدي» الذي تحدى أوامر خورشيدي ورفض ضرب الأسرى امتثالا لوصية أمه، فقد قُتل مشهدي في جبهة الحرب.

اتفق الأسرى على إقامة مجلس عزاء على الفقيد الشيخ سعيدى والجندي مشهدي، وتبرع الكثيرون بما جمعه من سجانر راحوا يوزعونها على قارئى الفاتحة تصاحبها أكواب الشاي، حتى خورشيدى حضر مجلس الفاتحة وإن بدا عليه عدم الارتياح.

\* \* \*

لم يعد العالم المحيط بنا والمحدد بإطار النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية المتعامدة القريبة مني، جميلاً وممتعاً ومثيراً كما كنت أراه من قبل، وما عادت تلك الوديان الضيقة والطرق الشريطية الحلزونية الملتفة حول الجبال تثير في خيالي متعة مغامرة الهروب وحلم الخلاص. غابت القمم الصخرية الجرداء واختفت القرى البعيدة تحت غيوم داكنة، مياه البحيرة صارت غيمة كبيرة متموجة، الأعلام المثبتة على القبور غيرت الشمس ألوانها وأمالتها الريح ومزقتها ملامسة القبور. بدت منازل مدينة منجيل الغبراء كأنها كتل حجرية تدرجت من أعالي الجبال واستقرت في الوادي. هناك، وسط الأعشاب خلف الأسلاك الشائكة، كان المنظر الوحيد المفعم بالحياة، أربع معزات كانت تنتقل ببطء قريباً من الراعي اليافع الملتف بقطعة اللباد، المنتصب في مكانه مثل شجرة يابسة. كانت وقفته في العراء من دون قيد أو حارس مثيرة للحسد، لكن لا أدري مدى الحرية التي يتمتع بها، أو إذا كان واعياً للفرق بيننا وبينه، هل كان حراً فعلاً؟ هل كنت أنا حراً قبل وقوعي في الأسر؟ لا، لم أكن طليقاً، لم أكن حراً في اختياري، كل ما في الأمر أن السجن كان أكبر. من يدري؟ ربما كان الراعي الشاب فاراً من الخدمة العسكرية، أو لعله تستر بتلك الثياب الكالحة المتهرئة التي تكشفها الريح حين تزيح عنها قطعة اللباد، كي لا يقع في قبضة جهاز الأمن «اطلاعات»، فالتهم كثيرة وجاهزة مثلما هي الحال في العالم الثالث أو الأخير. ربما كان السجن أفضل من الخارج في ظل جيروت الأنظمة الحاكمة لو أن السجناء يواظبون على تقديم وجبات الطعام الجيدة ويوفرون مكتبة كبيرة بكل الكتب بما فيها الممنوعة، فالحياة خارج السجن الصغير مهددة بالفناء كل يوم، مطوقة بخطوط حمراء يعني تجاوزها اعتلاء المشانق. يجتر المرء كل ما قاله بعد كل ساعة خوفاً من تأويل أقواله أو إفلات مفردة يجدها الآخرون إساءة إلى النظام أو المجتمع أو إلى الدين. في السجن تحميك القضبان من توالي التهم والتقارير. لعل بطل أنطون تيشخوف في قصة «الرهان العجيب» كان مصيباً، فقد اكتشف بعد خمسة عشر عاماً من السجن الاختياري أنه تعلم الكثير من العلوم والمعارف واللغات، ووجدها أفضل من أية جائزة مالية كبيرة.

كان عصر يوم الرابع من شباط (فبراير) شديد البرودة، خلت فيه ساحة المعسكر من الأسرى «التوابين» الذين لا بد أنهم قد تكدسوا في غرفة المخزن المواجهة للساحة من الجهة الأخرى حيث لم يكن لهم مكان آخر بعد أحداث «انتفاضة كانون الثاني»، لكنهم تعمدوا بخبث وضع مدفأة نفطية كبيرة قرب الباب المفتوح ليرى الأسرى الآخرون المعذبون بالجوع والبرد وهجها المثير. كانت قاعتنا باردة، ومع ذلك كان زيني يتحرك بين الأسرى بحيوية عساه أن يسوق حصاه الملونة مقابل سيجارة أو نصف سيجارة. جلس أخيراً على سرير تحتي وسط أسيرين عرف بحاسته أنهما يحتفظان بعدد من السجائر، وراح يحدثهما عن الجن وطرقهم الخبيثة في التسبب بجنون من لم يق نفسه منهم بحصاة معلومة أو تعويذة لا يعرفها إلا الخاصة. أما أنا فكانت متربعا على فراشي قريباً من النافذة، مختنقا بالروائح العطنة المتصاعدة من قاع القاعة، لكنني كنت أتحمّل تلك الروائح والأبخرة من أجل البقاء عند النافذة التي يتسلل عبرها ليلاً هواء ينعش رئتي ويبقيني حياً، وفي النهار أهدر نفسي بروية ما يمكنني رؤيته. كنت متدنثراً بالبطانية الكالحة، ضاغطاً بكفي على معدتي التي مزقتها الألم الذي أججه الجوع، منتظراً صيحة أحدهم بوصول قدرتي الرز والمرق، لكن بدلاً من وصولهما، باغتني مجيء أبشاري ومعه جمع من أفراد الانضباط. كان وجهه أكثر

شحوبا والظل تحت عينيه ازداد دكنة وذلك من أثر المخدرات كما أخبرني كارنيك ذات مرة. كان رئيس العرفاء هائجا غاضبا، صرخ بكلمات منقطعة غير مفهومة مكشرا عن أسنان صفراء، وحرك أصابعه المرتعشة في وجوهنا. استل من جيبه ورقة وقرأ برأس متمائل وجسد مترنح أسماء سبعة من الأسرى في القاعة السابعة، كان من بينهم أحمد القيسي وأنا، تلقنا جنود الانضباط بالضرب وهم يدفعوننا خارج القاعة، أجلسونا القرفصاء قرب الباب النظامي إلى جانب من سبقونا من القاعات الأخرى. قرأ الاسم الأول في القائمة، وبدأ بضربه بقسوة فظيعة وهو يفهقه بهستيريا، ثم تركه للجنود الواقفين ليكملوا المهمة. بعد أن سقط الأسير يتخبط على الأرض بوجه دام، حمله الجنود وألقوه في سيارة الإسعاف المفتوح بابها على مصراعيه، جاء دور الأسير الثاني، والمشهد الدامي تكرر بعنف أكبر، ورماه الجنود فوق صاحبه، والثالث والرابع والخامس والسادس، حتى بدا منظرهم كألواح منضدة في شاحنة حمل. حين امتلأت السيارة انطلقت بهم خارج معسكر الأسرى نحو السجن الانفرادي الواقع وسط معسكر التدريب. رأيت الراعي وقد ارتخت قطعة اللباد من على كتفيه يتطلع إلينا من مكانه العالي فاتحا فمه على سعته.

لم أستطع السيطرة على ارتجافي وعياني بعد متابعة مشهد التعذيب ونزف الدماء، وأذناي دوّى فيهما صراخ المعذبين. ظل أحمد القيسي يتجاهل ما يسمعه من اصطكاك أسناني، حتى هزته ركبتي المرتعشة، التفت إليّ راسما على وجهه ابتسامة شاحبة طافحة بالقلق والمواساة: «البرودة الشديدة تسبب الارتجاف.»

نقلت السيارة أعدادا أخرى، وكنت ضمن المجموعة الأخيرة وهذا ما بث فيّ قليلا من الارتياح لأن الجنود لا بد وقد تعبوا من الضرب والركل. حين جاء دوري، قفزت من مكاني راكضا نحو أبشاري ليضربني بعد أن أنهكني الرعب والانتظار، لكن أبشاري تراجع مذعورا إلى الوراء صارخا في الجنود أن يمنعوني عنه، فاستقرتهم حركتي وصراخ رئيس العرفاء فاستجمعوا كل قوتهم في ضربي، ولم أستعد وعيي بعدها إلا في سيارة الإسعاف حين وجدت نفسي مطروحا فوق أجساد الآخرين. صاح الأسير الذي كان تحتي: « ما هذا؟ بول؟! »

أجيبته مختنقا: « إنه دم ينزف من أذني وأنفي ومن جرح في وجنتي.»

كان نائب الضابط اعتمادي مبتهجا ذلك اليوم، ظل يتحرك حولنا ونحن نصطف في دهليز السجن محاطين بالجنود. بدا أكثر نشاطا وكأنه قد استعد لإقامة احتفال، حتى إن الأسير عزيز، وكان في بداية الخمسينيات من عمره وموظفا في مصلحة نقل الركاب، قال هامسا: «يببدو اعتمادي وهو يتنقل حولنا وكأنه رب عائلة يتفقد بنفسه ترتيبات حفلة زفاف ولده.»

لكن اعتمادي غادرنا إلى غرفته وأغلق بابها، فصاح أحد جنود الانضباط: «والآن، اخلعوا ملابسكم.»

امتنلنا لأمره وبقينا عراة لا يستر عوراتنا إلا اللباس الداخلي، لكن الجندي صاح فينا غاضبا: «ما هذا؟ الأوامر أن تكونوا عراة تماما.»

تردد الجميع في تنفيذ الأمر، وحاول البعض متوسلا أن يراجع الجنود سيدهم فكشف العورات حرام. التفت عزيز نحوي متسائلا بصوت مرتعش: «هل تراهم سيفعلونها معنا؟»

« يفعلون ماذا؟! »

حاول عزيز العثور على المفردة المناسبة، قال أخيراً: «أن يمددونا على بطوننا على الأرض وبناموا فوقنا.»

كان عزيز قصير القامة، كبير البطن، أصلع، كبير الأنف وذا شارب أبيض مصفر عند الوسط من أثر دخان سجائر الأشنو التي افتقدناها منذ حوالي أسبوعين. قلت له متظاهراً بالجد: «الشذوذ الجنسي موجود في كل بلد، ويزداد في المعسكرات. ربما تخيلنا الجنود بفعل الحشيش صبياً عاريات، ولكي لا يتحمل اعتمادي المسؤولية غاب في غرفته.»

شهق عزيز ويدها تتحسسان لباسه الداخلي الوردى ذا الورد البيضاء والحمراء: «صحيح، صحيح، لكن علينا أن نكون متضامنين.»

قلت كاتماً ضحكتي: «تضامننا لا يجدي، إنهم كثرة ولديهم صلاحية إطلاق النار.»  
«لا، لم أقصد هذا، أن نكون متضامنين في كتم الفضيحة، أن نقسم يمينا بأن يبقى الأمر سرا إلى الأبد.»

«ربما لباسك الداخلي الوردى سيغري اعتمادي على فعلها معك.»  
التقت عزيز نحوي، لم ينبس بكلمة، بل كانت عيناه تفيضان بالدموع.  
عاد جندي الانضباط ليبشّرنا أن أغا اعتمادي وافق على بقائنا باللباس الداخلي، فسحب عزيز نفساً عميقاً.

بدأت حملة أخرى من التعذيب عند نهاية الدهليز وأمام الزنانات، من يأتي دوره يتلاعب به الجنود مثل كرة يداولونها بأرجلهم وقبضاتهم، وحان دوري، فنزفت الجراح الجديدة وتلك التي لم تتدمل بعد. أحسست بالعرق يتصبب بغزارة، لم أعد قادراً على الرؤية بوضوح، شعرت بجسدي يتقطع، وأجزاء منه فقدتها. لم أعد أرى سوى أنياباً دامية ومخالب حادة تغرز في صدري وظهري. رأيت جلادين يحزون رجليّ، فسقطت على الأرض.

استيقظت على لسعات البرد، وجدت نفسي محشوراً بين أجساد منكمشة متلاصقة من البرد وضيق المكان المضاء تماماً. لاحت من كوة صغيرة خالية من الزجاج في أعلى الزنانة خيوط الثلج وهي تعكس ضوء الصباح، استعدت أحداث البارحة وتساءلت في نفسي عن الدافع وراء كل تلك الكراهية التي جسدها الجنود في ضربنا بقسوة بالغة. لقد أعمت الكراهية أبصارهم، شوشت عقولهم، أفقدتهم إنسانيتهم، جعلتهم مجرد وحوش، لكنني لم أنس أن عليّ مشهدي والشيخ سعيدي إيرانيين أيضاً، لكنهما انتصرا على الكراهية. أغمضت عيني من جديد وغرقت في النوم.

أخبروني في النهار أن اعتمادي انهم أحمد القيسي بأنه هو وشيركو قد قادا التمرد فأمر بوضعهما في زنانة ضيقة لا تزيد مساحتها عن متر مربع واحد، أما الزنانة الضيقة الأخرى فقد كان فيها علي الرفاعي وفاضل عبد علي، وتقع الزنانتان الضيقتان بامتداد الزنانتين الكبيرتين اللتين حشر فيهما ثلاثون أسيراً، وتفصلهما عن الأخرين بوابتان حديديتان تحدثان عند فتحهما صريراً عالياً.

بعد الظهر، أمرنا الجنود بالوقوف صفين متقابلين في الدهليز، جاء اعتمادي يتبختر في مشيته مثل جنرال منتصر يستعرض أسراه، متمعنا في الوجوه وسائلاً عن الأسماء ومناطق السكن، وعندما توقف أمامي، لم يسألني شيئاً. وقف عند بداية الدهليز قائلاً: «عليكم أن لا تتسوا أن ما يهمني هو تنفيذ الأوامر، وأوامري هي دائماً لمنفعتكم. إذا أردتم السلامة فنفذوا الأوامر. سأضرب

لكم مثلاً بنفسى، إن إطاعنى للأوامر هى التى أبقتى فى الجىش خمسة وثلاثىن عاماً من دون أن تلطخ سجلي عقوبة واحدة. شاركت فى المعارك ضد الأكراد فى عهد الشاه. حاصرنا الأكراد فى واحدة من تلك المعارك قرب مدينة سردشت الجبلية، كنت حينها أمر مجموعة من عشرين نفراً، وكان الأكراد قد طوقونا من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة فكانت مزروعة بالألغام وكنت الوحيد من يعرف ذلك. رفضت حتى مجرد التفكير بالاستسلام ونحن نواجه نيراناً كثيفة، حين قُتل أربعة منا اقترح الباقون تسليم أنفسنا، لكننى واجهتهم بالرفض القاطع، سقط منا ستة آخرون، وعندما خيم الظلام، أمرت سبعة منهم بالهرب عبر خط الألغام وأن ينتظرونا فى مكان بعيد حددته لهم، وما إن ابتعدوا حتى هزنى دوى الانفجارات، وكان ذلك ما أردته، فتقدمت أنا وجنديان بقيا معى لنهرب من المكان. بعد ابتعادنا عن منطقة الخطر، سألتى أحد الجنديين بدهشة واستنكار: لقد قتلت سبعة جنود من أجل أن يمهّدوا لك الطريق فقط، لماذا؟ أحبته وأنا مرتاح الضمير: (الأوامر أن نقاتل ولا نسلم أنفسنا، وإذا كان الجنود سيقتلون أثناء حصارنا، فلماذا لا نستثمر مقتلهم من أجل الآخرين؟). هل أدركتم الآن مدى صرامتى فى التمسك بالأوامر؟ لا ترغمنى أن أكون كلباً أحمر، ربما تجدون «كلباً أحمر» تشبيهاً غريباً، لكننا فى إيران نطلق هذا التشبيه على من إذا هاج لا يمكن السيطرة عليه أو الحد من وحشيته. الكلام مع الحراس محظور والكلام مع الموجودين فى الزنزانتين الصغيرتين ممنوع. أريد أن يبقى المكان نظيفاً، الدهليز والزنزانتان وحيطانهما والحفريات ودورة المياه، أبلغت الحراس بأن يسمحوا لكم بالذهاب إلى دورة المياه ثلاث مرات فى اليوم قبل الصلاة فقط. ستمضون ساعات النهار جلوساً ووجوهكم نحو الحائط صامتين.»

فى لحظات الجوع والإنهاك والصمت تلك باغتتني صورة وجه ولدى الصغير رائد، لم أتبين ملامحه جيداً فقد كان غارقاً فى ضباب. كان من الصعب أن أجلو وجهه فى ذاكرة توقف الزمن فيها عند اللحظة. تذكرت، وكان ذلك قد حدث قبل مائة عام، ألف عام، ما قاله الصغير وهو يرتمى فى حضنى ذات مساء: «هل تعلم ما حدث هذا اليوم؟ جاءت طائرة الأعداء لتقصف منطقتنا، كنت أقف عند الشباك المطل على الشارع حين مرت الطائرة بالقرب منى، صاح الطيار: كيف حالك يا رائد؟ قلت له: أنا لا أحبك، لا أريد أن أراك. سألتى الطيار حزينا: ولكنى أحبك يا رائد. قلت له: أنا لا أحب من يخيف الأطفال ويقصف البيوت ويقتل الناس. بكى الطيار ودار بطائرته راجعاً وهو يلوح لى بيده.»

يا له من حلم جميل داعب مخيلتك أيها الحبيب! نحن نحلم أيضاً بعالم خال من الكراهية والظلم والعنف، لكن ليس مثلك فأنت لا ترى فى هذا العالم سوى الحب. كان يمكن، لولا هذه الحرب الملعونة، أن نظل معاً، أصغى إلى قهقهاتك وأحلامك الوردية وأحاديثك عن جارتنا الطيبة أم مهدي وما تزويه لك من قصص وما تقوله من مواصفات خيالية عن الحلوى التى تبيعها فى دكانها الصغير المجاور للمنزل الذى استأجرناه. أتذكر حكايتك التى أشركتني فيها عن الغابة متشابكة الأغصان، وكيف خضنا مغامرة فى الغابة، توقفت فجأة لتسألني: لماذا لا نتصرف القروء كالأسود وتقترب الحيوانات الأخرى؟ هل تفعل الأسود ذلك بسبب قوتها؟ لماذا تضطر الوحوش لافتراس الحيوانات المسكينة ما دام هنالك فى الغابة موز وتفايح وكثيرى؟ كنت تواصل حديثك من دون أن تبدي قناعة بأجوبتي. توغلنا فى الغابة أكثر، سمعنا فجأة صوتاً عالياً اهتزت له الأرض وتمايلت الأشجار، وظهر أمامنا حيوان ضخم جداً لا يعادل بيتنا إصبعاً من أصابعه، أما ذيله فأطول من

الشارع. سكت قليلا لتلتقط أنفاسك أو لترتب أحداث قصتك. كان الشرر يتطاير من عيني الحيوان الهائل، وسألنتي: ما اسم هذا الحيوان الكبير؟ أجبتك: الديناصور. عندما تأهب لمهاجمتنا، طلبت مني أن أتقدم نحوه، قلت إنني رفعت جذع شجرة وغرزته في صدر الديناصور وأرديته قتيلا. ماذا كنت ستقول أيها الصغير لو رأيت حالي الآن وأنا متعب جائع ذليل عاجز حتى عن تبديد الضباب الذي يفصلني عن وجهك؟ لقد فقدت يا ولدي الحرية. ربما لا تعرف ما تعنيه الحرية، إنها تعني أن ندخل الغابة نمشي في ممراتها، نركض في دروبها، نأكل ما نشتهي من ثمارها، نبعد الخطر عنا، نخرج من الغابة ونحن كما كنا بشرا. لكن من يفقد حرته، لم يعد بمقدوره أن يدفع عن نفسه وعن الآخرين الأذى، لن يرتاد الغابات ويختار ما يشتهي من ثمار أشجارها، ولن يكون بمقدوره يا ولدي مواجهة الديناصور ولا حتى ذبابة تحط على جبينه لأنه مكبل اليدين. انتبهت إلى قطرات دموعي وهي تسقط على سروالي الممزق.

كان وقت الوضوء والصلاة فرصة لا تثمن في تحريك أرجلنا وغسل وجوهنا وأطرافنا، وعلق أسير بفرح طفولي: «ليت الصلوات كن عشرينا.»

في اليوم التالي، أمر اعتمادي الحراس بتفتيشنا تفتيشا دقيقا، وكانت المفاجأة أن اقتادوا واحدا منا إلى غرفة نائب الضابط، حيث تعالى صراخ الأسير. عاد إلينا متورم الوجه، وفي وقت الوضوء قال لنا: «عثروا في جيبي على صورة امرأة اقتطعتها من واحدة من الجرائد التي يوزعونها على القاعات، قلت لاعتمادي إنها صورة عمتي؛ لذلك ضربوني.»

سأله أسير آخر: «وما علاقة اعتمادي بعمتك؟»

أجاب الأسير متحسرا: «عمتي امرأة عظيمة، في كل ليلة أدعو لها بالتوفيق والعمر الطويل والنجاح في مساعيها لإيقاف الحرب في مؤتمر عدم الانحياز.. عمتي هي إنديرا غاندي. بصق اعتمادي عليّ واتهمني بتفضيل الهندوس على سلالة آل البيت.»

تساءل أسير ثالث: «فشل قادة مسلمون في إقناع الإيرانيين، فكيف ينجح الهندوس؟»

كان همنا تنفيذ أوامر اعتمادي وتعليماته، عند فجر كل يوم نغسل أرضية الدهليز والزنزانات والمغاسل والمرافق الصحية، ونجلو بدقة متناهية صحنونا المعدنية، نصطف في الدهليز كل صباح ليتم تعدادنا، نعود بعدها إلى الجلوس صامتتين مواجهين الحيطان نجتر ذكرياتنا. في الليل، كان كل واحد منا يفرش نصف بطانيته ويتغطى بالنصف الآخر، غير أن المشكلة لم تكن في البرد، وإنما في ضيق المكان، فكنا ننام متخالفين، أرجل بعضنا في وجوه البعض الآخر، وذات ليلة أحسست بنعومة عند أطراف أصابعي التي واصلت تحريكها مستمتعا بذلك بالنعومة، حتى صاح الأسير الذي رجليه عند وجهي: «متى ستكف أصابعك عن العبث بلحيتي؟»

لكنني مع ذلك وجدت السجن أفضل من معسكر الأسرى، فهنا لم يكدر مزاجنا منظر أولئك الأسرى التوايين وهم يسرحون في الساحة تحت دفء الشمس ويستحمون متى شاءوا ويترددون بحرية على المرافق الصحية. كانوا يمعنون في تعذيبنا بالوقوف أمام نوافذ القاعات يلتهمون أرغفة الخبز الحار بعد أن يطلوها بالزبد والمربي أو بالجبن. في السجن، لم يطالبنا اعتمادي بالشعارات، وكان ذلك أمرا غير متوقع، ونحن من طالبنا بأن يدعنا الحراس نقرأ دعاء «الفرج» مساء كل ثلاثاء، ودعاء «كميل» مساء كل خميس؛ لبتاح لنا وقتا أكثر في الحركة والذهاب إلى المرافق

الصحية، ولزيادة الوقت، نطلب ممن يقرأ الدعاء أن يعيده مرتين، فالحراس لا يعرفون العربية، وكان القارئ أحيانا يدخل فقرات من عنده داعيا بالسلامة لأهلنا وللوطن من دون أن يسميه كيلا يلفت انتباه الحراس.

جاءنا ذات يوم خورشيدي، فوقفنا له نؤدي التحية، لكنه ألقى علينا نظرة سريعة واستدار قاصدا الزنزانين الانفراديتين، وتبعه اعتمادي أو «الكلب الأحمر» كما سماه الأسرى. ظللنا واقفين فترة طويلة نسمع فيها حوارا غير واضح، لكننا سمعنا صرير باب يفتح، ثم صرير باب آخر، عاد إلينا خورشيدي يتبعه الأسرى الأربعة الذين كانوا يمشون بصعوبة، فقد كانت أقدامهم متورمة. لم يتمكن شيركو من مواصلة السير فسقط في وسط الدهليز، فطلب اعتمادي من أسيرين حمله إلى باب السجن لنقله إلى المستشفى. قال خورشيدي مشيرا إليهم: «أعتقد أنهم قد نالوا الآن عقوبتهم الأولى، وهي لا شيء إزاء العقوبة القاسية التي سيقربها العقيد شريف عسكري الذي سيصل في غضون الأيام القليلة المقبلة. لا أستطيع إخباركم عن تلك العقوبة، لكنني أستطيع أن أنصحكم بما يفيدكم، أكثر من الصلاة في هذه الأيام القليلة عسى الله أن يغفر لكم ما اقترفتموه من آثام لأنكم محكومون بالإعدام أو الموت أثناء تنفيذ عقوبة الجلد أو التعذيب.»

روى لنا الثلاثة ما لاقوه من عقوبات، وكانت أكثرها عذابا هو عدم قدرتهم على النوم، فمساحة الزنزانة كانت بالكاد تكفي أن يقف واحد بينما يجلس الثاني مقرصا، ويظللان يتتولبان الوقوف والقرفصاء ليلا ونهارا.

كان وجه أحمد القيسي شاحبا، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف يديه وركبتيه، فقلت له مازحا وأنا أدلك قدميه المتورمتين: «الجو بارد هنا ويبعث على الارتجاف.»

في مساء ذلك اليوم، عاد خورشيدي لزيارة السجن الانفرادي، كان هادئا بشكل غير مألوف، شارد البال غير أن علامات الانكسار التي رأيتها يوم جرحت كبرياؤه قد اختفت الآن، حيانا بلطف لأول مرة، فعلق أحد الأسرى هامسا: «إما أن تكون لعبة جديدة أو علامة من علامات يوم القيامة.»

جلس على كرسي في الدهليز ضاماً ساقيه مثلما يفعل الوعاظ الذين كانوا يأتون أحيانا لإلقاء محاضرات في الدين لكنها سرعان ما تتقلب إلى حديث عن الحرب وقصف المدن مرفق بالشتم والتهديد. أمرنا أن نجلس أمامه ثلاثة ثلاثة، فامتدت خطوطنا حتى نهاية الدهليز. شعرنا ببعض الأمان عندما طلب من الحراس مغادرة المكان. كان خورشيدي يعرف أن معظم الأسرى السجناء يلمون بالفارسية ولو بدرجات متفاوتة، فبدأ حديثه معنا من دون مترجم: «عندنا مثل يقول (الذاكرة الجيدة لا تنسى شيئا سوى الجراح، فانقش العطف على الرخام واكتب الجرح على التراب)، أعترف أنني كنت قاسيا معكم وما تركت فيكم من جراح ليس بالقليل، وأنا لا أحتاج لمثل هذا الاعتراف ولست مطالباً به، لكنني أقوله لأريح ضميري. أعرف جيدا أنكم تكرهونني، وهذا شيء يحزنني. ربما لا تصدقون أن الأسرى في معسكر «الداودية» ودعوني باكين، لقد بذلت كل جهدي من أجل راحتهم، لكن المسؤولين في طهران بالغوا في وصف مشاكستكم وتمردكم على الأوامر. أخبروني عند صدور أمر نقلي إليكم أنكم مجموعة من البعثيين ومن أفراد الحرس الجمهوري، حتى إن ضابطا كبيرا في مكتب الأسرى قال لي إن النظام في بغداد تعتمد وضعكم في مناطق كانت ستحررها القوات الإيرانية لتكونوا أسرى ومن ثم تثيروا المشاكل والتمرد في

معسكرات الأسرى، فكان أن وجدت نفسي مضطرا على تقمص دور الجلاد البغيض. الحقيقة التي تجهلونها أنني لا أكرهكم على الرغم مما حدث. ربما في الأيام الأولى تركت نفسي نهبا لرد فعل انفعالي. كان عليّ توقع ما فعلتموه، واكتشفت لاحقا أنني حينها لم أترك لكم خيارا آخر. يُقال «الخطوة الأولى هي فكرة حسنة، والخطوة الثانية كلمة طيبة، والخطوة الثالثة عمل جيد، ثم تدخل الجنة.»، كانت تلك نواياي، لكن لم أفجح في تنفيذها. كانت الضغوط من الإدارة في طهران تزداد تقلا يوما بعد يوم، ووشايات بعض الأسرى بكم وما اختلقوه من أكاذيب عنكم ملأت أذني وأثارت نقمتي، مع أنني لا أحترم من يشي بأخيه. يهمني كثيرا أن أغادر هذا المكان وليس هنالك من يكرهني أو يدعو الله بالانتقام مني، فدعوة المظلوم مستجابة.»

في لحظة انفعالية خاطفة نزعنا كراهيتنا لخورشيدي، ربما لم نكن نكرهه، تناسينا سياطه وصفارته، كتبنا عذابنا على التراب. تحدثت بعض الأسرى عن تقديرهم لما سمعوه من خورشيدي، وتمنى البعض الآخر أن يهدي الله بقية المسؤولين ليكونوا مثل أغا خورشيدي. انبسطت أسارير خورشيدي، ابتلت عيناه بالدموع، فمسحها بطرفي كفيه. حدثنا عن عائلته، عن أسئلة زوجته الملحة عن حال الأسرى، عن ابنته الصغيرة التي تخاف من مشاهد الحرب على شاشة التلفزيون. سألنا عن حالتنا الصحية، وعلق ضاحكا على انعدام التدفئة في السجن: «من فوائد البرد أنه يدفع النائم إلى الاحتلام، وهذا يساعدكم على تفريغ خزين ظهوركم، فليس هنالك فرق فسيولوجي بين متعة الاحتلام ومتعة الواقع.» ونصحنا أن نستفيد من عقوبة قطع السجائر بالإقلاع عن التدخين، ونبهنا إلى أن من أخطائنا الكبيرة غفلتنا عن وجود جواسيس من الأسرى في المعسكر، وأكد أن بعضهم يقدم معلومات عن الأسرى مقابل سيجارة أشنو أو رغيف خبز. تحدثت بطريقة غير معتادة ومفاجئة لنا عن عبث الحرب وجنونها وحصيلة الخسائر الهائلة في الأرواح، وانعكاساتها على الحياة اليومية للإيرانيين. قال لنا: «العراقيون والإيرانيون ضحايا هذه الحرب، أنتم من ضحاياها وأنا كذلك. ربما تستغربون ذلك، الكل هنا يطلقون عليّ «المقدم خورشيدي»، والحقيقة أنني كنت برتبة عقيد في الجيش، يعني أعلى من رتبتي الآن. كنت الأول في دورتي في الكلية العسكرية، وفي الجبهة كنت أتقدم جنودي. لكن حدث ذات يوم أن استدعيت إلى مقر كربلاء للعمليات القتالية، ووجدت هناك خارطة من الرمل حولها ضباط كبار من الجيش والحرس الثوري والتعبئة، وكانت الغاية استشارتي في عملية هجوم على قاطع الفكة الحدودي، فأبدت اعتراضا مؤكدا أن الحصيلة ستكون خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات بسبب وجود حقول ألغام واسعة في تلك المنطقة، لكن أحد رجال الدين الحاضرين وكانت صفته ممثل الإمام الخميني في مقر العمليات، ولا يمكن تنفيذ أية عملية من دون موافقته، صرخ في وجهي يتهمني بالخيانة؛ لأنني في رأيه أحول باعتراضي دون حصول آلاف من المقاتلين المؤمنين على الشهادة موتا في حقول الألغام. لم يكتف بذلك، بل أمر بإنزال رتبتي ونقلتي بعيدا عن الجبهة. جرى الهجوم وكانت النتيجة كما توقعت، لكن المسؤولين تباهاوا بأنهم أتاحوا الفرصة أمام المؤمنين لنيل الشهادة.»

سكت قليلا فارقا أصابعه الطويلة الناعمة وجابت عيناه وجوهنا لقراءة ردود أفعالنا. تلك الحكاية وإن عرفتنا بكيفية اتخاذ القرارات الصعبة في الجبهة إلا أنها أفلقتنا أيضا؛ لأن مصيرنا لا يخضع لمواقف تطورات الحرب والسياسة واتفاقيات العالم المعروفة بل هو معلق بإرادة أولئك المعممين. اعتدل في جلسته، قال ضاحكا: «هنالك نكتة يرددها أهل طهران هذه الأيام تقول: مع اقتراب

الامتحانات الثانوية العامة، لم يبد عدد من الطلبة الشباب أي اهتمام ولم يقبلوا صفحات أي كتاب مدرسي، فسألهم أهلهم عن السبب في إضرابهم عن المطالعة والاستعداد للامتحانات، فأجابوا: لماذا نتعب أنفسنا ندخل الجامعة لندرس من جديد إذا كانت الشهادة متوفرة بلا متاعب.. في جبهات القتال؟!»

قال جادا وهو ينهض واقفا: « كان أبي يردد دائما أن من يريد السلامة عليه أن يكون أعمى وأخرس وأطرش، لكن ليس كل الناس قادرين أن يكونوا كذلك، وهذه مصيبة أخرى.»

صافحنا جميعا وتمنى لنا السلامة ونهاية الحرب والعودة إلى وطننا، وقبل أن يصل إلى الباب، التفت إلينا مبتسما: «أين تكتبون جراحكم؟»

رددنا الجواب بصوت خافت: «على التراب».

في ظهيرة اليوم التالي، العاشر من شباط، صعقنا الخبر المشؤوم: وصل شريف عسكري إلى معسكر الأسرى. تابعنا ذاهلين حركة الحراس وجنود الانضباط وهم يتحركون بخفة وسرعة. قال لنا اعتمادي وهو يعدل من قيافته وقد بان عليه الارتباك الذي ضاعف فينا القلق: «أعتقد أنني كنت رحيما بكم، ومن أجل أن تطمننوا على هذه الرحمة في الأيام المقبلة عليكم أن تبالغوا في تصوير معاناتكم وما لقيتموه من قسوة في هذا المكان إذا ما سألكم العقيد شريف عسكري.»

لم أكن في الحقيقة أصغي إليه، كنت أسمع صراخي من لهيب السياط وشرارا يتطاير دائريا أمام عيني. كنت هلعاً، وجسدي أفلت من زمام سيطرتي، فراح يرتعش. أحسست ببرودة قطرات العرق على وجهي، لم يعد الهواء يملأ رئتي بما يكفي، ودقات قلبي دوّت في صدري كطبل في ليل هادئ. كان البعض من الأسرى يتمتم بآيات قرآنية، والبعض بكلمات مبهمّة، والبعض يفرك يديه بقوة أو يتحسس صدره وساقيه. زارنا العقيد شفازند، تجول في السجن، لم ينظر إلينا بل كان مهتماً بنظافة الزنانات والمرافق الصحية التي أمر بإعادة غسلها ومسحها على عجل. لم يغادر السجن حتى تأكد تماما من تنفيذ أمره. صرخ عزيز ضاربا بقدميه قضبان الزنانة: « لا أريد أن أموت.» اقتحم الجنود الزنانة وأسكتوه بضربات أحذيتهم الثقيلة. ساد بعدها صمت لا يعكّره إلا الأنفاس المتلاحقة. دخل علينا الجندي الانضباط أبو الفضل لاهنا: «وصل شريف عسكري.»

صرّ الباب الخارجي، وتوزع الجنود في الدهليز. فُتح الباب الداخلي المؤدي إلى الدهليز، وتناهى إلينا صدى خطوات سريعة خفيفة، فاستعدنا لاستقبال اعتمادي الذي نادى علي الرفاعي ودفعه أمامه، وأغلق الحراس الباب الداخلي وراءهما.

لم يمض وقت طويل حتى علت صرخات علي الموجهة. كنت أعرف أن الرفاعي لا يصرخ من ضربات أو لكمات، بل من السياط فقط، فأيقنت من صدق ما قاله الأسرى القدامى عن فظاعة قسوة العقيد عسكري.

جاء أحد الحراس حاملا صفيحة فارغة، وضعها قريبا من المرافق الصحية قائلا باستهزاء: « أمر جناب العقيد بمنعكم من الذهاب إلى المرافق الصحية، لكنه ورأفة بكم يسمح لكم الآن بالتبول في هذه الصفيحة.»

أصطف الأسرى واحدا بعد الآخر أمام تلك الصفيحة وتساعدت رائحة البول الخائفة، بعد ذلك أقفل الحراس الزنانتين. جاء حارس آخر ليأمرنا بالوقوف ووجهنا إلى الحائط، حينذاك سمعنا

بوضوح صوت أهدية ثقيلة تجاوزت الزنزانتين إلى نهاية الدهليز. قال صوت أجش غريب: « سأجعلك أيها الرفاعي المجرم تندم على استهتارك ومعاداتك للجمهورية الإسلامية، لن أضربك من جديد، لكنني سأدع الجنود يغسلون قذارتك بالبول.»

كان ذلك هو العقيد شريف عسكري لا غيره، أوعز إلى جنوده فصبوا الصفيحة الممتلئة بالبول على علي الرفاعي الذي تعالت صيحات اشمئزازه وتجشئه ثم تقيئه. أمره عسكري بالوقوف هناك بلا حراك ووجهه نحو المرافق الصحية التي فتح بابها. مر الوقت بطيئا ثقيلًا، وتوالت الأسماء وتناوب الصراخ في غرفة اعتمادادي، وتناقص عدد الباقين في الزنزانة.

اقتادني جنديان عبر الدهليز، ثم إلى صالة صغيرة، وعند باب غرفة هناك، كان شريف عسكري ينتصب واقفا ببذلته العسكرية ورتبته المطرزة على كتفيه، مباعدا بين ساقيه واضعا كفيه على خاصرتيه كإعلان كبير عن فيلم لرعاة البقر. كان وجهه الأسمر المنتفخ قطعة من الحجر مجلية من أي تعبير، فتحنا أنفه قد اتسعتا، الحافة البيضاء لشاربه الكث كشفت مضي أيام على آخر صبغة له، عيناه وحدهما كانتا تتحركان، تتفحصاني وتتوعدان بشر مستطير. بصق في وجهي وتناوشتني يداه القويتان بالصفعات قبل أن تسحباني إلى داخل الغرفة، دفعني إلى الزاوية وتناول سوطا مبروما من السياط التي زين بها اعتمادادي جدران الغرفة، وانهال عليّ بالضرب، صرخت حاميا وجهي بذراعي فيما كان اعتمادادي الجالس بجانب الطاولة يسترق النظر إليّ. جلس العقيد لاهثا شابكا أصابعه، متسائلا بصوت أجش: «ما هي درجتك الحزبية؟ هل أنت عضو فرع أم عضو شعبة؟»

أجبت مرتبكا: «لا هذا ولا ذاك، أنا مستقل.»

قهقه ساخرا: «هل من يحارب الدولة الإسلامية مدافعا عن صدام مستقل؟ دعك من الأكاذيب وإلا قتلتك، ماذا كان دورك في التمرد؟»

انتبعت إلى أنني كنت أقف متماسكا بلا ارتجاف، ذاب رعي فجأة، لكنني كنت أتصعب عرقا شاعرا بوخزات خدوش لم أعرف مكانها، قلت: «لا دور لي.»

نفث زفيرا طويلا باسطا راحتي يديه على الطاولة: «ما رأيك في أحداث الثاني والعشرين من كانون الثاني؟»

ظل رأس اعتمادادي يتحرك بألية وبلادة بيننا، فقد كان الحوار باللغة العربية.

«كان الوضع هادئا مثل كل صباح، وجرت مراسيم رفع العلم و..»

قاطعني زاجرا: «أيها الزنديق، سألتك رأيك ولم أسألك عما وقع.»

«لا أدري، أغا.»

تأهب للقيام، لكن اعتمادادي كان أسرع منه، فقد قفز من مقعده وصفعني بقوة من دون أن يفهم ما كان يسأل عنه عسكري، قائلا: «كلهم على شاكلة واحدة، أولاد المحروقة جثثهم.»

لم يكثرث العقيد لحركته تلك ولم تنل ثناءه، فاقترب اعتمادادي مني أكثر وهو يهز رأسه متوعدا، غير أن العقيد أوما إليه أن يجلس. سأله بالفارسية عني، فحك اعتمادادي لحيته البيضاء بأطراف أصابعه: «أقل شرا من الباقين.» فعلت تلك العبارة فعلها في نفس الجلاد، فارتخت عضلات وجهه

قليلا. تناول شريف عسكري قلم رصاص من الطاولة أمامه وهزه أمامي: «من هم قادة التمرد في المعسكر؟»

أجبتة صادقا بعدم علمي بوجود أي قادة، غير أن السؤال أقلقني، فلم أنس أن هناك من اعتبرني واحدا من القادة الأبطال، ونسج البعض حكايات عما زعمه من موقع مهم لي في الحزب الحاكم، وادعى البعض الآخر صداقتي بعدد من المسؤولين الكبار في الحكومة العراقية. كنت أسمع ذلك فأزداد رعبا، ولكن ماذا كان مصيري لو أن أحد الأسرى رشحني لتهمة قيادة الانتفاضة لينفذ نفسه؟ لعنة الله على حميد الخياط، ربما لولا مبالغته لما دار بيني وبين اعتمادي في تلك الليلة المشؤومة لبقيت في المعسكر آمنا وبعيدا عن مواجهة الجلاد شريف عسكري وقسوته.

قبض العقيد عسكري على طرفي القلم قائلا: «الجميع هنا، في السجن الانفرادي مجرمون حتى تثبت براءتهم، وإذا ما كان هنالك بريء، وخوفا من الله سبحانه وتعالى، ينبغي عليّ أن أفسح أمامه فرصة الإدلاء بمعلومات عن المحرضين. إن نحافة جسمك لا تقوى على تحمل سياط التعذيب، وليس بعيدا أن تقتلك ضربة غير مقصودة من أحد الجنود على رأسك أو صدرك، فعلام كل هذا؟ اعترافك دليل براءتك، ولن تضيف لمعلوماتنا شيئا، فقد أدلى واحد منكم بكل أسماء المحرضين على التمرد، ماذا قلت؟»

أحسست ببعض الهدوء، فسؤال الجلاد استبعدني من تهمة «التحريض» وبالتالي إعفائي من مزيد من الضرب والتعذيب. كانت عيناى تراقبان القلم المحاصر بين قبضتي شريف عسكري: «ليس لديّ ما أعترف به، أعا.» صرخ العقيد وهو يكسر القلم إلى نصفين: «زنديق.. مجرم.»

تأهب الجنديان الواقفان في الغرفة للانقضاض عليّ، لكن شريف عسكري سحب مسدسه ووجهه نحوي بيد مرتعشة: «أخرجوه قبل أن أقتله.»

انتهى التحقيق ليلا، حينذاك أعادنا اعتمادنا إلى الزنانات، وسمح لعلي الرفاعي أن يستحم بملابسه بالماء البارد. وقبل موعد النوم بقليل، عاد اعتمادي مناديا وسط الدهليز: «أين عزيز؟»

انتفض عزيز مذعورا. قال اعتمادي وهو يتطلع إليه باشمزاز من وراء القضبان: «أعتقد أنه من غير الإنصاف أن يبقى هذا الرجل المريض هنا؛ لذلك تقرر إعادته إلى المعسكر. إنها لفئة إنسانية من العقيد شريف عسكري.»

تلّفت عزيز حوله متحاشيا النظر إلى عيون الآخرين، وقف مطأطأ الرأس وخطا بصعوبة بين الجالسين المقرفصين حاملا بطانيته. خاطبه أحد الأسرى بصوت خفيض وهو يقبض على مفصل قدمه: «فعلوها معك من دون أن ينزعوا عنك لباسك الداخلي. يا لك من متخاذل.»

صاح اعتمادي وهو يدفع عزيزا أمامه في الدهليز: «لا أحب أن أراك هنا ثانية، حينذاك لن أكون كلبا أحمر فقط، بل سأقتلك.»

لم يكن الحراس بحاجة إلى صفاراتهم لإيقاظنا مبكرين في اليوم التالي الحادي عشر من شباط، الثاني والعشرين من بهمن حسب التقويم الهجري الشمسي الإيراني؛ لأننا لم ننم بسبب الريح الباردة المتدفقة من الكوة الخالية من الزجاج. نقلونا إلى المعسكر لحضور المحاكمة، وأجلسونا قريبا من الأسرى الآخرين، ولكن بمسافة قليلة عن الأسرى «التوابين» الجالسين في المقدمة

والمعبأين لترديد الشعارات. بعد دقائق جيء بشيركو ملفوف الرأس لينضم إلينا بعد أن أخرجوه من المستشفى. كان الجنود المسلحون موزعين على سطوح القاعات وحول المعسكر.

كان العقيد شريف عسكري يقف متحصرا خلف منصة خشبية وضعت قريبا من منصة العلم، وخلفه جلس رجل معمم والعقيد شفازند على أريكة دأب الإيرانيون على الأمر بوضعها هناك كلما جاء زائر، ووراءهم وقف فتحي واعتمادي وأبشاري، أما خورشيدي فوقف بجانب الأريكة.

قال العقيد عسكري متجهم الوجه: «لقد وضعت خطة جهنمية لعقابكم أقل ما يلحق بعضكم فيها كسور في الأطراف، وربما أشد عقوبة تشهدها معسكرات الأسرى في إيران.»

وأشار إلينا قائلا: «أما هؤلاء المجرمون فقد قررت إعدامهم، لكن شاءت الصدفة أن يكون يوم محاكمتهم يوم عيد الثورة الإيرانية في ذكراها الرابعة، فطلب سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ أصفهاني، رئيس محكمة الجيش، تخفيف الأحكام، وإكراما لهذه الذكرى واستجابة لطلب الشيخ أصفهاني وافقت على تخفيف الأحكام.»

تعالت التكبيرات والتهتافات من جانب الأسرى التوابين، فأشار إليهم عسكري بأطراف أصابعه أن يكفوا. قرأ علينا قرار المحكمة: الحكم على شيركو بثمانين جلدة وإرساله إلى طهران ليواجه محاكمة أخرى، الحكم على تسعة منا، لم أكن منهم ولا أحمد القيسي، بثمانين جلدة والسجن لمدة عام، والإفراج المؤقت عن الباقين لأن الجميع محكومون بالإعدام مع وقف التنفيذ.

صرخ شريف عسكري بالجنود المسلحين الواقفين وراء الأسلاك الشائكة وعلى سطوح القاعات أن يطلقوا الرصاص عند سماعهم أمره، ثم التفت إلى الأسرى وأمرهم بالتكبير عاليا مع كل ضربة سوط.

وضع عسكري نسخة من المصحف تحت إبطه الأيمن وبدأ بجلد شيركو، ومع توالي الجلد أخذت الأصوات بالفتور وعدم الانتظام، وعندما تم جلد الأسير الثالث، ساد الصمت ولم يعد الجلاد قادرا على الحفاظ على المصحف في مكانه، فأعلن الشيخ أصفهاني بنقل المحكومين إلى السجن وإكمال عقوبتهم هناك.

قال شريف عسكري ملنقطا أنفاسه بصعوبة: « لن تكون هنالك، في المرة القادمة، ضرورة لحضور هيئة المحكمة، سيتم الإعدام رميا بالرصاص أثناء عمليات الشغب، ولا أجد حرجا في إخباركم بأن هذا ما وقع قبل أيام قلائل في معسكر «برندك»، فقد هجم عدد من الأسرى الموتورين على مجموعة من جنود المغاوير دخلت أحد الأقفاص لإعادة الأمن والهدوء، فكان جزاؤهم أن أسكتهم المغاوير إلى الأبد. سيكون ذلك مصيركم لو دعت الحاجة إلى حضوري إلى هذا المكان مرة أخرى.»

دار حديث هامس بين العقيد والرجل المعمم، فنهض الشيخ أصفهاني إلى المنصة يهتينا بعيد الثورة الإسلامية، وأعلن أن الأسرى التوابين هم المشرفون على القاعات والممثلون عن بقية الأسرى، وأن الإساءة إلى أي أسير تواب تعني الإساءة إلى الإيرانيين، ولتأكيد اعتزازه بهم، طلب من العقيد شفازند توزيع نعل مطاطية جديدة عليهم. بشرنا الشيخ بفتح أبواب القاعات وانتهاء العقوبات وتوزيع السجائر، لكنه طالبنا مقابل ذلك بتريد الشعارات، ففعلنا ما أراد حتى بحت

أصواتنا، حينذاك، شاعت على وجهه علامات الرضا. رفع الجنود شيركو الذي كان قد فقد وعيه ونقلوه إلى العيادة الطبية، واقتادوا التسعة الآخرين إلى السجن.

حين غادر المسؤولون الساحة، زحف الأسرى نحونا يعانقوننا بحرارة وشوق. أعطاني زيني سيجارة مؤكدا أنها من ثمار مهنته الجديدة في تفسير الأحلام، سحبت أنفاسا سريعة متلاحقة، وقبل أن تميد بي الأرض، لاح لي عزيز جالسا لوحده في زاوية من الساحة. كان يجهش في البكاء.

\* \* \*

لا مفر من الاعتراف أن خورشيدي الذي غادر المعسكر بعد يومين فقط من زيارة العقيد شريف عسكري من دون أن يحظى بفرصة إلقاء كلمة الوداع، كان محقا في تأكيده لنا بأننا ذات يوم سنذكره بخير مقارنة مع غيره، فعلنا ذلك بطيب خاطر بعد أن حل مكانه ملازم من جهاز المخابرات يدعى كريمي. كان الضابط الجديد متهورا في تصرفاته، مهوسا بالعقوبات والقسوة المفرطة، يفضح رعونته في أول عبارة يقولها؛ لذلك كان يتحاشى الوقوف طويلا على منصة العلم، وإذا ما وقف هناك لا يتحدث كثيرا، يختار دائما ملابس ذات ألوان فاقعة لا تتناسب وعمر الأربعين، وكان من النادر أن نراه يمشي في الساحة من دون رفقة أحد جنود الانضباط أو برفقة الطبيب الأسير «التائب» الدكتور حسين الذي جاءوا به من معسكر آخر، أو أبي زينب الذي أصبحت كلمته مسموعة في المعسكر ويحسب لرأيه حساب. كان كريمي أصغر سنا من خورشيدي، وكان وجهه ذا ملامح مغولية صارمة. وفي تلك الأثناء، تعاقبت وجبات من أفراد الانضباط العسكري والحراس.

مضى الشتاء وتلاه الربيع والصيف والخريف وحل شتاء 1984، والخناق يزداد علينا ضيقا. لم يعد الإيرانيون يتحكمون وحدهم في مصائرنا، وإنما أيضا الأسرى التوابون المؤيدون لإيران الذين زاد عددهم فجأة بفعل الخوف والإغراء باستثنائهم من العقوبات الجماعية ومن كنس الساحة وتفريغ أكياس المون، ومنح كل واحد منهم سيجارتين إضافيتين ونصف رغيف خبز فوق حصتهم، وباتوا يتميزون عن الباقين بلون شريط الاسم الأسود المطرز والمثبت على الصدر، فصاحب الشريط الأسود لا تنطبق عليه جميع قوانين وتعليمات كريمي وفتحي واعتمادي وأبشاري.

ومثلما ابتلينا بالضابط كريمي، ابتلينا بالطبيب الدكتور حسين الذي كان ضابطا مجندا في بداية العقد الثالث من عمره، وقد وقع أسيرا في معارك ديزفول (آذار 1982). كان الطبيب متميزا عن الأسرى الآخرين ببذلته السوداء التي حصل عليها من معسكر في طهران، وكان ملتحيا وذا حركات ناعمة وطريقة مشي أنثوية، ومصيبته أنه كان مولعا بقراءة الأدعية على الأسرى أكثر من اهتمامه بمعالجة المرضى منهم.

ترددت صحة العم حسان كثيرا بسبب مرض البول السكري، وازدادت حالات إغمائه، وعندما شكاه للعريف فتحي لإرساله إلى مستشفى قزوین، وهو أقرب مستشفى، أمره بمراجعة الدكتور حسين والحصول على الدواء أو أن يكتب الطبيب تقريرا لإرساله إلى مستشفى مدينة قزوین، وعندما ذهب إلى العيادة الصغيرة، وقبل أن يشكو حاله، أشار إليه الطبيب بالسكوت فقد كان الطبيب يتابع محاضرة دينية يبثها التلفزيون. وحينما انتهت المحاضرة بعد عشرين دقيقة، أخبر الطبيب بأن أغا فتحي موافق على إرساله إلى قزوین شرط تأييد الطبيب له، فرد عليه الدكتور حسين قائلا: « ما تريده يا عم حسان أمر في غاية السهولة، ولكن في المقابل عليك أن تقول عبارة واحدة لا غير فتتعم بالدواء والعفو من الأشغال وبالذهاب إلى مستشفى مدينة قزوین.»

صاح العم حسان فرحا: « أنا مستعد ترديد أية عبارة كي أبقى حيا لأرى عائلتي ذات يوم.» قال الطبيب بغنج: «أنت، ما شاء الله، مازلت شابا، ها هو عضوك يكاد يمزق سروالك، لا أريد أن أتعبك بترديد عبارة، أريدك أن تعلنها مرة واحدة فقط.. أعلن ولاءك للجمهورية الإسلامية

وسأنفذ طلباتك.»

كظم حسان غضبه واكتفى بهز يده، وحين استدار ليغادر العيادة الصغيرة، صاح به الطبيب أن يتوقف، قال له: «بيدو أنك عصبي المزاج، أعرف أنك ستأتيني يوما لتعلن وفاءك للحق ولآل البيت والدولة الإسلامية. لا عليك، سأعطيك ما يشفيك.»

رد حسان مغمما: «بارك الله فيك.» قال الطبيب وهو يكتب في قصاصة ورق: « هذه وصفة مجربة لا يخيب فعلها، كتبت لك دعاء عليك أن تحفظه وتردده عشر مرات بعد صلاة الفجر وعشرين مرة قبل النوم.»

حين رفع رأسه ماذا يده بقصاصة الورق، لم يكن أحد في الغرفة سواه.

بعد ظهر اليوم الخامس من أيار 1984، عبر فاضل أبو النطح الشارع الضيق بين الساحة والمطبخ راكضا، وأوحت حركته تلك أنه قد سمع خبرا مهما أثناء عمله في المطبخ. كنا، فراس وأحمد وأنا، نراقبه لاندنين بظل شجرة (الكالبتوس) هروبا من لهيب الشمس ومن ذباب القاعات وعفونتها. اقترب أبو النطح من أبي وفاء الذي طبطب بنعاله على ظهر فاضل الذي ابتعد عنه متجها صوب الأسير الشاب جليل صابر الذي كان يسير بخطوات سريعة وسط الساحة بموازة الحاج ثمانين مرددا أرقاما وزوايا. همس شيئا في أذنه، لكن «جليل» صرخ قائلا: « لا أريدها.. لا ينقصني سوى معلومات عن المكان الذي تتواجد فيه دروع العدو لأصب عليها حمم مدفعي.. 355.. 189.. 90 درجة.»

لوح أبو النطح إلينا راكضا نحونا. قال ملتقطا أنفاسه بصعوبة: «أين زيني؟ أين العم حسان؟ لديّ خبر مفرح لهما وللجميع. هل يمكنكم تخمينه؟»

نقد صبرنا ونحن نقلني عليه بتكهنتنا، عن نقل اعتمادي أو فتحي، عن إطلاق سراح الأسرى السجناء، عن وصول لجنة الصليب الأحمر أو إعلان أو تصريح عن وقف الحرب أو تبادل الأسرى، لكن أبا النطح اعتدل أخيرا في وقفته صارخا: « وصلت الرسائل.»

فرحة كبيرة غمرت الجميع، وامتألت الساحة بالأسرى يقرأون رسائلهم ويعرضون الصور المرفقة على بعضهم البعض. نسيت كل شيء من حولي وأنا أعيد قراءة الرسالة مئات المرات. لقد عرفوا أخيرا بأنني مازلت حيا ولكن داخل أقفاص الأسرى. خشيت أن يغمي عليّ من فرط الفرح والتأثر وأنا أقلب صور أطفالتي. دس أحمد القيسي رسالته والصور المرفقة بها في جيبه وكأنه يخفي سرا لا يريد أن يعرف به أحد. قال راسما على شفثيه ابتساما مجاملة: « مبروك على وصول الرسالة والصور.»

سألته: « هل هناك خبر في رسالتك أزعجك؟»

سحب الصور من جيبه، تأوه قبل أن يقول: « كان عليّ أن أدرك أن أشياء كثيرة كانت ستتغير بعد غيابي. انظر إلى هذه الصورة.. هذه زوجتي، أما هذا الشاب الذي يحيط رقبته بذراعه فواحد من أقاربي، أو لعله ابن عمها. لا بد أن يكون كذلك فلامحه ليست غريبة عني. كيف سولت لها نفسها أن تقبل مغالته لها، ولكن لماذا أرسلت هذه الصورة لي؟ هل تراها تزوجته بعد أن بقيت في ظننا مفقودا لمدة عام؟ ألم تفكر في أولادها ومستقبلهم؟»

انحدرت دمعة من عينه، فأبعدني برفق، وحين ابتعدت سمعته ينشج بالبكاء، وقبل أن أبتعد أكثر، ناداني بصوت عال، حين التفت إليه وجدته يرتعش، كان يبكي فرحا: «وليد، عرفته.. عرفته، إنه ليس ابن عمها، إنه ابنا عمار.. يا إلهي، أصبح رجلا!»

كان العم حسان جالسا على طرف سريره ينظر بريية إلى رسالته، حين رأي هز الورقة في وجهي منفعلا: «قرأ الرسالة كثيرون، لكنهم لم يفهموا منها شيئا، اقرأها رجاء.»

«نأسف لأن عائلتك انتقلت إلى مكان آخر غير معلوم. لا بد أن هذه الملاحظة من دائرة البريد أو من فرع الصليب الأحمر.» تساءل بذهول: «أين ذهبت عائلتي؟ أين ذهبت بناتي؟»

أعدت إليه الرسالة: «ليس هنالك من تفسير سوى أن عائلتك انتقلت إلى مكان آمن ربما إلى محافظة أخرى بعيدا عن القصف المدفعي الذي شمل جميع مناطق البصرة.»

غطى العم حسان وجهه بيديه، قال بصوت حزين خافت: «ربما ماتوا جميعا بقذيفة مدفع..»

انخرط حسان في البكاء وسقطت ورقة الرسالة على الأرض.

في الجانب الآخر من القاعة، كان زيني يعلن فرحته للجميع، يقبل صورة ملونة لابنته الصغيرة ذات الأربعة أعوام، مناديا بصوت عال: «سنوات قليلة وستكون ابنتي هذه فتاة تسلب بجمالها عقول الناس.. شقراء كأبيها، عنيدة كأُمها، من أراد خطبتها فليقدم منذ الآن عربون صداقها.. ثلاث سجائر لا أكثر.»

ضحك الآخرون، وقدم أحدهم سيجارة لزيني قائلا بصوت عال: «خطبتها لولدي.»

لم يهدأ ضجيج الأسرى وهم فرحون برسائلهم، وعند المساء، دخل جندي الانضباط مهدوي الذي التحق مؤخرا وأمر الجميع بالسكوت، لكن بعض الأسرى لم يسمعه، فصرخ غاضبا شاتما الأسرى، وعاقب الجميع بإغلاق باب القاعة قبل موعد النوم بساعة وقبل أن يذهب البعض إلى المرافق الصحية.

كان مهدوي شابا مفتول العضلات ومصارعا، ولم يكن يحسب نفسه مجرد جندي انضباط، بل صاحب امتيازات وصلاحيات استمدها من عضوية أخيه في مجلس الشورى. وقف قريبا من الباب باحثا في الوجوه عن ضحية يتسلى بها ويستعرض من خلال ضرباته قوة عضلاته. قال باستهتار: «من يريد الذهاب إلى المرافق فليتقدم ولكن عليه أن يتحمل ضرباتي.»

لم يتحرك أحد من مكانه إلا العم حسان الذي قال متوسلا: «أنا مريض بالسكري، فأرجوك أن تسمح لي بالذهاب لأتبول.»

«شرطي لا يستثني أحدا.»

«هل يرضي ضميرك أن تضرب رجلا بعمر أبيك؟ إذا كنت ترضى فافعل.»

رفع مهدوي أكمام بذلته الكاكية مبتهجا: «لنبدأ إذن.»

دوت الصفحة الأولى، توالى الصفعات والرفسات، ظل العم حسان يترنح والضربات تحدد اتجاه حركته، لاحقته الرفسات خارج الباب وحتى المرافق الصحية. بعد دقائق، عاد مهدوي يتبعه العم حسان محمولا على أكتاف أسيرين من قاعة أخرى وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

وقف مهدي بارزا صدره إلى الأمام ومحركا ذراعيه في الهواء: « من يرغب في الذهاب إلى المرافق الصحية؟ »

تلقت حوله متحديا فلم يجبه أحد، طبطب على صدره متباهايا وخرج.

أغمض العم حسان عينيه وراح يتنفس بصعوبة تصاحب شهيقه أنات متقطعة. أشار بيده المرتعشة إلى ما تحت وسادته. همهم بصوت ضعيف خافت بضع كلمات فهمنا منها أنه يريد من الأسرى المتجمعين حوله والذين كانت أيديهم تتلمس صدره وتلك قدميه أن يقرأ أحدهم رسالته بصوت مسموع، خيم الصمت قبل أن يرتفع صوت أحمد القيسي وهو يقرأ سطر الرسالة بوقار وكأنه يقرأ الوصية الأخيرة، لكن العم حسان أشار بيده المسندة على صدره أن تعاد قراءة الرسالة، وقبل أن ينتهي القيسي من قراءة السطر، هوت يد العم حسان إلى الأسفل.

قال القيسي وهو يجهش بالبكاء مبتعدا دافعا بمنكبيه الواقفين: « مات العم حسان. »

تعالى الضجيج وانفجر غضب الأسرى في صيحات تدين القاتل مهدي، وخلال لحظات قليلة امتلأت القاعة بالجنود وجاء كريمي يتبعه الدكتور حسين وأبو زينب. قال الطبيب وهو يلوك علكة بطريقة مائعة مستقزة: « كان يرحمه الله عنيدا، لو كان فعل ما طلبته منه لكان حيا الآن. »

سأله كريمي بدهشة: « ماذا طلبت منه؟ »

رد الطبيب بصوت ناعم محركا رقبتة مع كل كلمة من كلماته: « طلبت منه أن يقرأ دعاء الشفاء المنقول عن الأئمة من أهل البيت. »

علق أبو زينب وهو يتلفت حوله: « معظم هؤلاء الأسرى لا يؤمن بالأدعية. إنهم يؤمنون بخطب صدام، وكتب عقلق مؤسس حزب البعث. »

صاح أحد الأسرى: « ضربه أغا مهدي بقسوة. »

ردد العديد من الأسرى تلك العبارة غاضبين. قال كريمي ساحبا البطانية على وجه العم حسان: « الأعمار بيد الله.. سندفنه غدا. »

في صباح اليوم التالي، نُقل جنمان العم حسان إلى جامع المعسكر الإيراني حيث غُسل وكُفن، عبر بعدها طوق الأسلاك الشائكة ليتوسد تراب مقبرة الغرباء على ضفاف البحيرة.

بعد الظهر، توافد الأسرى من القاعات الأخرى لتقديم العزاء، ومع سقوط الثلج قبل مغيب الشمس بقليل، اندفعت مجموعة من جنود الانضباط يقودهم الجندي « داريوش » الذي لم يكن يثبت ذكورته سوى شعره القصير وزغب شاربه، لكنه مع جمال وجهه الأبيض كان قاسيا في معاملته خاصة مع أولئك الذين كانوا يلاحقونه بنظرات طويلة تترجم رغبة مكبوتة. قرأ أسماء أربعة من الأسرى، زيني والقيسي وفراس وأنا. قادنا بركلاته إلى باب غرفة كريمي.

دفع الجنود « فراس » داخل الغرفة، وبعد لحظات قصيرة، سمعنا صياح الملازم كريمي وأزيز السوط المرعب وصراخ فراس وقهقهة داريوش الأنثوية.

قال زيني وهو يعصر صدره بذراعيه: « صراخ فراس يعني أن الضرب قاسٍ جدا. »

عضضت على شففتي، قلت بعد هنيهة بصوت مرتعش: « أعتقد أن كريمي يستخدم هذه المرة سوطا مزدوجا. »

رد أحمد القيسي وعيناه تتابعان حبات الثلج المتطايرة: « وهل كنت تتوقع أن يجلدنا بحبل من مسد؟»

خرج فراس يجر رجليه بصعوبة، أوقفه الجنود بعيدا عنا. صاح داريوش بحماس: « أحمد القيسي.»

ازداد تساقط الثلج، وحين التفت نحو زيني أضحكني منظره، كانت حبات الثلج متجمعة على رأسه وشاربه ولحيته، كان أشبه ببابا نويل، لكنه هذه المرة مضطهد ويداه خالية من الهدايا وثمة سوط ينتظره. قال زيني محاولا إشغال نفسه عن العذاب الذي كان ينتظره: « رأيت البارحة في أحلامي أمي وإخوتي وزوجتي وطفلي عمر ونجوان وقد أحاطوا بقبر تراكمت فوقه الثلوج، وحدث أن قفز عمر فوق القبر فقالت له أمه إن للقبور وقارا لا بد أن يراعى، سيبقى القبر هنا حتى ينتهي الشتاء.. أظن أن نهايتي قريبة، أرجو أن تحفظ وصيتي.»

قلت متضايقا: «أعرف الوصية، أن نبلغ زوجتك ببذل كل الجهود في تربية الأولاد وأن لا تبذر ما قبضته من ثمن بيع الدار، وأن لا تقطع علاقتها بأهلك. لقد مللت سماع هذه الوصية.»  
انتبهت إلى جفاء ردي وحالة زيني، فقلت مستدركا: «ذكرت أنها قالت سيبقى القبر هنا حتى ينتهي الشتاء؟ تفسير هذا أن الأسرى سيعودون إلى العراق عند نهاية الشتاء.»

انفجرت شفاه زيني عن ابتسامة عريضة، قال هامسا: «لم يخطر ذلك ببالي وأنا أحلم.»  
صكت سمعي أصوات الركل والضرب وصيحات القيسي المنقطعة غير المفهومة. لم يكن سهلا تصور أن يخرج المرء سليما بعد ضراوة الضرب تلك، لكن أحمد القيسي خرج سليما، ولعل ذلك بسبب خبرته في تفادي الضربات القاتلة. بعد دخول زيني، ارتفعت أصوات توجع واستغاثة قبل أن يتوالى الصراخ. رأيت جنديين يحملان «زيني» من إبطيه خارج الغرفة فيما كانت قدماه المرتخيتان ترسمان خطأ على الثلج. رمياه قرب القيسي وفراس، تذكرت آنذاك بيتا للشاعر سعدي كنت قد قرأته في الصباح: «لو أباح السلطان الظلم في خمس بيضات، فجنوده يضربون ألف طائر بالحراب.»

دفعني الجنديان داخل الغرفة وأغلقا الباب ورائي. كان كريمي يلهث جالسا على حافة سريره، وإلى جانبه وقف داريوش وقد نزع معطفه وبريقته، وتهدل قميصه ليظهر جزء من صدره الأملس، لكنني انتبهت إلى أنه كان يلبس سوارا فضيا. لم يعرني كريمي أي اهتمام، بل التفت إلى داريوش داعيا إياه إلى الجلوس بجواره على السرير. قال له وعيناه تمسحان وجه داريوش وصدره أو ما ظهر منه: «لا تؤذ نفسك يا عزيزي بضرب هؤلاء الكفرة حتى وإن كان ذلك يسليك، لو أن يدك الناعمة هذه رُضت- لا قدر الله- لأصابني الألم.»

هزّ داريوش رأسه بالإيجاب فتهدلت خصلة قصيرة من شعره على جبينه. التفت كريمي نحوي قائلا بغضب: «أنت واحد من عصابة الأربعة التي خططت للإضراب عن الطعام احتجاجا على ما أسميتموه «مقتل العم حسان».. هل تعتقد أيها الغبي أن امتناعكم عن أكل البطاطا والجزر سيسقط الثورة الإسلامية؟»

«ما الفائدة من الإضراب؟ كل ما في الأمر أن الأسرى في القاعة السابعة قرروا جميعا إقامة مجلس الفاتحة.»

صوب إليّ نظرة طويلة. جبهته الضيقة وعيناه المتقاربتان ووجنتاه البارزتان كلها كانت تنطق بشهوة عارمة للقتل والتعذيب. «أسميتوه «الشهيد»؟ من قتل الشهيد؟»

« ضربه جندي الانضباط مهدوي.»

في اللحظة التي مدّ كريمي يده إلى السوط الملقى على الفراش مثل أفعى غليظة، قفز داريوش وصفعني بقوة لم أتوقعها فيه، ارتطمت بالحائط ورنّ في أذني سقوط جسم معدني، وقبل أن ينحني داريوش لالتقاط سواره الفضي، ضربني على بطني بمرفقه.

نهض كريمي متفحصا السوار باهتمام قائلاً: «كان يمكن أن تحدث خسارة كبيرة لو تصدع هذا السوار الرائع.»

زّم شفتيه وسحب نفساً طويلاً وهو يتقدم نحوي، وفي اللحظة التي رفع سوطه ليضربني، طرق أحدهم الباب، ودخل أحد الأسرى من ذوي الأشرطة السوداء حاملاً حذاء أسود تنبعث منه رائحة الدهان، انحنى بخضوع ووضع الحذاء قرب السرير، وقبل أن يغادر الغرفة، رمى كريمي عليه سيجارة كان يضعها على المنضدة.

كان الباب لا يزال مفتوحاً حين دخل أحد الجنديين الواقفين عند الباب قائلاً باضطراب: « جناب الملازم.. لقد أغمي على الثلاثة بسبب البرد والتلج.»

تطلع كريمي في وجه داريوش وركض الاثنان وانطلقت وراءهما.

\* \* \*

ازداد الألم شدة مع تعاقب الدقائق والساعات. ألم فظيع فاق وجع السوط المزدوج المبروم وصعقة العصي الكهربائية، ألم حُظرت معه أية حركة للرأس ولو كانت لسنتيمترات قليلة، بل حُظرت أية كلمة شكوى أو آهة أنين. كانت العصي تتهاى على كل أسير صرخ أو تأوه أو توسل. لم أكن أسمع حينها سوى أنيني المكبوت وضربات العصي وشهقات الأسرى ممن تفاجئهم تلك الضربات، ودوي الباص المنطلق بسرعة تحت جناح الليل نحو المجهول وثرثرة الجنود حيناً وغنائهم حيناً آخر. لم أكن أرى شيئاً سوى الظلام بسبب تلك الخرق التي لفوها بقوة على أعيننا، فيما كانت أيدينا مقيدة إلى الوراء وأرجلنا ترسف بقيود ضيقة مقفلة. لم أكن أعرف أي أسير كان يجلس في المقعد المجاور. لم يكن ذلك الألم الفظيع من القيود أو من ضربات العصي الكهربائية، إنما من رقابنا الملتوية بسبب وضعية رؤوسنا بعد أن أُجبروا كل واحد منا أن يحشر رأسه تحت منفضة السجائر المثبتة خلف المقعد الذي أمامه.

كانت مبادرة نادرة أو ربما الوحيدة تلك التي قام كريمي بها حين سمح لبقية الأسرى أن يودعوا مائة وعشرة من الأسرى، من بينهم فراس وزيني وأحمد وسيد مهدي وأنا، الذين تقرر نقلهم إلى جهة لم نكن نعرفها. امتلأت ساحة المعسكر بعد ظهر اليوم السادس من آذار 1986 بالمودعين الذين اغرورقت عيونهم بالدموع، كانوا يبحثون بصعوبة عن مفردات المواصلة وشحن الهمم بتمام قريب كاذب بانتهاء الحرب وإحلال السلام.

لم تحل هويات الصليب الأحمر التي حصلنا عليها قبل عام وخمسة أشهر دون صدور أمر نقلنا إلى جهة مجهولة، ربما لقتلنا أو إخفائنا عن أعين لجان الصليب أو هيئات التحقيق الدولية بعد أن كشفت تلك اللجان عن مجزرة في معسكر جرجان حصدت فيها بنادق الإيرانيين أرواح أكثر من ثلاثين أسيراً. كانت فرحتنا لا توصف يوم أدخلوا السجن الانفرادي الذي أمضيت فيه عاماً كاملاً بسبب قرب مجيء لجنة الصليب الأحمر قبل عامين، لكن كريمي وجنوده استطاعوا وبسرعة نقل مائة من أسرى عمليات المحمرة، ونحن الأربعة في مقدمتهم إلى قاعة في معسكر التدريب الإيراني، وهكذا حررنا من هويات الصليب الأحمر، وبعد رحيل اللجنة أعادونا إلى معسكر الأسرى. كان زيني أكثرنا ألماً لأن حلمه في الحصول على وثيقة ضمان العودة والسلامة من الإعدام كما تصور حينها قد تبدد، لكن بعد ستة أشهر شاء حظنا أن يقوم ممثل الإمام الخميني في إقليم كيلان «آية الله إحصان بخش» بزيارة المعسكر وتفقد الأسرى. أبدى ذلك الرجل الطيب ذو الساقين المشلولتين إثر عملية اغتيال فاشلة، تعاطفاً معنا وقرع أماننا العقيد شفافند وكريمي وفتحي لحرمان البعض من هوية الصليب الأحمر. نفذ الرجل وعده وجاءت لجنة الصليب بعد أشهر قليلة لتمنحنا الهوية التي كنا نتلطف للحصول عليها، لكن تلك الوثائق ظلت مجرد أرقام في ملفات مكدسة في جنيف.

في يوم التوديع، غابت وجوه شفافند وفتحي واعتمادي وأبشاري، وحلت مكانها وجوه جديدة، فقبل أسابيع قليلة بوغت المسؤولون بوصول لجنة تدقيقية من طهران لتكتشف سرقات كبيرة في مخازن المعسكر وتلاعبا في رواتب الأسرى، وكان فتحي مسؤولاً عنها، وتبين للجنة أن أغلب المواد التي يبيعهها رئيس العرفاء أبشاري بأسعار مضاعفة كانت في الأصل مخصصة لتوزيع مجاناً على الأسرى، كما اتهم أبشاري بمصادرة نصف أجور الأسرى العاملين في ورشات النجارة

والميكانيك ومكعبات البناء، وبعد أيام شاهد الأسرى جنودا مسلحين يفتادون فتحي وأبشاري إلى سيارة عسكرية. وقبل أسبوع فقط أحيل العقيد شفازند على التقاعد، أما اعتمادي فقد نُقل إلى إدارة المستوصف العسكري.

كل شبر من معسكر منجبل كان يروي حكاية، مريرة أحيانا وطريفة أحيانا أخرى، السرير الذي كان الراحل عيسى البلداوي يعقد عليه اجتماعاته الصاخبة ويتخذ منه منبرا لخطاباته الحماسية الموجهة للأمة العربية المجيدة. تلك الكوة الصغيرة كانت مكيمة الهواء المنعش ونافذتي على العالم والحياة، على الموت الرابض فوق النل المشرف على البحيرة التي اغتسلنا بمياهها المليئة بالديدان الشريطية. هناك في مقبرة الغرباء يرقد عباس وزهراو والعم حسان، تلك الجبال العالية الجرداء ومنازل منجبل المتواضعة وسكانها الطيبون الذين لم يكن لديهم ما يتبرعون به إلينا غير ملابس داخلية نسائية. تلك الأسلاك في الزاوية البعيدة وحلم مغامرة الهروب. تلك الشجرة التي تقطعت أغصانها الصغيرة إلى غليونات للمدخنين. الساحة التي طالما كنسنا ترابها وحصاها وأزحنا ثلوجها وزحفت عليها أجسادنا مئات بل آلاف المرات واكتوينا عليها بلهب شمس الصيف وقاسينا برد الشتاء أثناء الصلاة والعقوبات. تلك المرافق الصحية التي اختزلت عندها أمنياتنا إلى أمنية واحدة أن ندخلها ونخرج منها بحرية. منصة العلم حيث كان الجلادون يحددون مصائرنا وعذابنا. غرفة المكتبة التي أجبرنا على قراءة وحفظ ما فيها من كتب التفسير والفقهاء والمعجزات، ففي الشهور الأخيرة كنت أفضل عذاب السجن الانفرادي على خوض امتحان إجباري في مسائل الفقه فمن لم يستطع الإجابة عن أسئلة التوابين الموالين لإيران المتعلقة بالفقه كان يسجن ليلا في المرافق الصحية. نالتي تلك العقوبة حين عجزت عن توضيح ما يتوجب فعله عند حالة السهو بين الركعة الثالثة والرابعة من صلاة العشاء. كانت تلك المسائل عندي أصعب من نظرية أينشتاين التي لم أفكر يوما بفهمها. كم اجتزت الشارع الضيق الممتد بين الباب النظامي والساحة حين كنت مريضا أو في طريقي إلى غرفة ضابط الاستخبارات أو إلى السجن الانفرادي. عند بداية ذلك الشارع ودعنا فاضل عبد علي قبل أن يرافقه العريف فتحي إلى معسكر في مشهد، وعند عودة فتحي بعد أيام، أخبرنا متباهايا أنه طلب من المسؤولين هناك أن يعاملوا صاحبنا كمجرم حرب، وبعد عام علمنا من رسالة إلى أسير من مدينة النجف يخبره أهله أن الصليب الأحمر أبلغ عائلة فاضل بوفاته. عادت أمامي صور الشيخ سعيدي والجندي علي مشهدي وحتى المقدم خورشيد. وقف أبو وفاء أمامي، رفع نعله بوجهي قائلا بمنتهى الود: «إنك تستحق أن أضربك ثلاثا وواحدة للتوديع.» ضربني برفق على كتفي، وابتعد مسرعا يبحث عن أسير منقول آخر. الحاج ثمانون توقف عن سيره المعتاد يقبل الأسرى المنقولين وينصحهم بكثرة المشي في أي مكان يذهبون إليه مرددا على مسامعهم مقولة الخليفة عمر بن الخطاب القائلة إن من لا يمشي يفارقه المشي. صافحني فاضل أبو النطح هامسا: لا تقلق، ربما لن تجد في مكانك الجديد من يمتحنك في قضايا الإرث والسهو في السجدة والركعات. أما جليل صابر فكان يسير وسط الساحة صائحا: اطمئناوا إخواني لن يكون هذه الليلة قصف مدفعي لكي لا يصيبكم مكروه. وزع زيني حصاه الملونة على بعض مودعيه مجانا، لكن ابتسامته غابت هذه المرة. سحبه سيد غالي من ذراعه إلى زاوية في الساحة، جلسا هناك وبدأ غالي بالغناء وراح زيني يبكي دون أن يخفي وجهه. التقيت بأحمد القيسي

الذي قال لي وهو يتطلع حوله بطرف عينيه: «دس الإيرانيون بين المنقولين عددا من المشكوك في أمرهم.. ألا يدهشك ذلك؟»

تفرقت جموع الأسرى مع وصول قدور الطعام الكبيرة التي علتها طبقة كثيفة من السخام فمنذ أيام ووجبتا الغداء والعشاء تطبخان على جذوع الأشجار بعد نفاذ الغاز. وضع عادل الذي طالما حدثني عن أبيه وحيوانات حديقة الزوراء، أمامي إناءه الرصاصي بما فيه من حساء؛ لأنني كنت قد وضعت إنائي في كيسي الرطب مع بقية حاجياتي القليلة وبضع رسائل ومجموعة من صور عائلتي التي بدأت أفقد الأمل في رؤيتها من جديد. ألح عادل عليّ بالأكل فقد تكون الطريق طويلة، وحين رفعت الملعقة، تجاوزت نداءات الأسرى بأصوات يخنقها الهلع: «وصلت الباصات.» أعدت الملعقة إلى مكانها وتناولت كيس حاجياتي.

أوقفونا طويلا قرب الباب النظامي، أعادوا تعدادنا مرات. كرروا قراءة الأسماء. قال فراس: ربما سيأخذوننا إلى معسكر لا يعرفه الصليب الأحمر لنكون آخر من يطلق سراحه عندما تنتهي الحرب. رد زيني وهو يرمي حصاة وجدها في أحد جيوبه: هنالك مثل يقول: أن تصل متأخرا خير من أن لا تصل أبدا.

كان أفراد سرية جنود الانضباط الذين جاءوا من طهران واقفين باستعداد متأبطين عصيهم الكهربائية. وقبل أن يضعوا الأغلال على أيدينا وأرجلنا ويعصبوا أعيننا، قال أحمد القيسي باسمنا ليخفف من قلقنا وقلقه: «ليس المهم الآن أين سيقودوننا، المهم أننا سنركب سيارات لأول مرة منذ سنوات.»

بعد سبع ساعات من الألم المبرح، خفف سائق الباص سرعته، سمعت أصوات أبواق سيارات وأذانا تردد في مكبرات صوت بعيدة وقريبة، أدركت حينذاك أننا وسط مدينة كبيرة، عرفت من حديث الجنود أنها كانت العاصمة طهران التي عرفتها من شاشة التلفزيون، وحفظت مناطقها من دون أن أمشي فيها، مثل جمران التي كانت فيها الحسينية التي اتخذها الخميني مقرا له، وإيفين المشهورة بسجنها الكبير، وباغ فيز وبهارستان وكلستان وبارك شهر، وميدان آزادي وشوارع ولي عصر وجام جم والإمام الحسين. توقفت السيارات ودفعتنا العصي الكهربائية للنزول لتقرصنا هبات هواء بارد، وحين رفعوا العصابات عن أعيننا، كان الوقت فجرا ونحن أمام مبنى كبير متميز بعمارته الشبيهة بباخرة كبيرة، مطوق بالأسلاك الشائكة. قال أحد الجنود: «أنتم الآن في ملعب «تختي» بطهران. الملعب الآن معسكر للأسرى.»

كانوا يتحدثون كثيرا في التلفزيون عن المصارع الإيراني الشهير غلام رضا تختي الذي سُمي هذا المكان باسمه، فقد حصل تختي على الميدالية الذهبية في دورة ملبورن للألعاب الأولمبية عام 1956، وأخبرني أحد جنود الانضباط يوما أن تختي كان يكره الشاه ونظامه؛ لذلك رفض أن يهدي ميداليته الذهبية إلى الشاه، وأهداها إلى ضريح الإمام علي بن موسى الرضا في مشهد، فاغتاله عملاء مخابرات الشاه «السافاك» وأعلنوا أن المصارع الذي كان في السادسة والثلاثين من عمره قد انتحر في غرفته بأحد الفنادق.

اكتشفنا أن عشرة منا قد نقلوا إلى جهة مجهولة. تناولنا في ذلك اليوم حساء طيب المذاق والنكهة وفيه قطع صغيرة من اللحم، ولكن هل جاء بنا الإيرانيون كل هذا الطريق من أجل أن نستقر في قاعة كبيرة مغلقة نظيفة ونتناول طعاما محسنا؟ قطع تساؤلاتنا أسير أسمر بلحية طويلة وشعر

شعث وجبهة توسطتها بقعة سوداء. وقف أمامنا قائلاً: يقال إنكم مجاميع من الكفرة، ولا أعتقد أنكم ستندوقون مثل هذا الحساء مرة أخرى، غدا صباحاً ستنتقلون إلى معسكر يسيطر عليه توابون مؤمنون نذروا أنفسهم لله والجنة ولا يخشون في الحق لومة لائم، هل يكفي أن أؤكد لكم أن المسؤولين هناك أباحوا لهم قتل الكفرة؟ نصيحتي لكم أن تفكروا في التوبة قبل أن تحطوا الرحال في معسكر أراك.

ساقونا من جديد في الصباح التالي إلى الباصات التي لم تغادر مكانها منذ وصولنا، انطلقت بنا لكن هذه المرة من دون قيود أو عصابات على أعيننا التي غطتها غشاوة من القلق واليأس والذعر.

بعد مسيرة استغرقت ثلاث ساعات ونصف، انحرفت الباصات من طريق أراك-أصفهان المبلط العريض إلى طريق ترابي في هضبة مستوية قاحلة تحيط بها جبال جرداء سود، ثم انحدرت إلى منخفض شاهداً فيه أبنية مستطيلة متباعدة قليلة الارتفاع تعلوها سقوف هرمية من الصفيح، وتفصل الأبنية عن بعضها البعض أسلاك شائكة. عندما اقتربت الباصات، خرج الأسرى من تلك القبور الكبيرة المنخفضة يهتفون بالموت لنا. حين ترجلنا من الباص، بدأ بعضهم بالبصاق علينا من وراء الأسلاك.

منذ الليلة الأولى في معسكر أراك بدأ الأسرى ذوو اللحى الطويلة بتحقيقات طويلة معاً، أجبروا الأسرى الآخرين على ضربنا، وكانت زنانات التعذيب هذه المرة المرافق الصحية. تأكدنا أن ما قاله ذلك الأسير الملتحي في معسكر تختي كان أقل مما لمسناه بأنفسنا في معسكر الموت.. أراك.

لم يتغير شيء في أراك. استمر كل شيء على حاله بل أكثر قسوة وأسوأ مما كان في منجیل التي بت اعتبرها فردوسي المفقود. هناك في منجیل كانوا يطالبوننا بالشعارات أما هنا في أراك فضغطوا علينا ليل نهار لنعلن موافقتنا على التطوع لقتال أبناء بلدنا في جبهات القتال. هناك كان الضابط أو الجندي الإيراني يصفعنا، يركلنا، يضربنا بالسوط، لكننا بعد حين نتباهى بصمودنا أمام عدونا، أما هنا فكان الأسرى المسؤولون يكسرون أضلاعنا ويلوون أيدينا ويعضون آذاننا، يجروننا ليلاً إلى غرفة الأرشد العراقي ويهاجموننا بقسوة تفوق قسوة المسؤولين الإيرانيين، وإذا ما خرج أحدنا من غرفة التعذيب سليماً يعصره الألم لأن معذبيه عراقيون، أسرى مثله، لكن رؤوسهم حُشرت بالخرافات والتعصب وأوهام السلطة. كان منهم من يحلم أن يكون وزيراً أو محافظاً أو قائد فرقة، ومنهم من تواضع فأعلن أنه سيكون بعد «تحرير العراق» رئيس بلدية ناحية «المدينة». بين مدة وأخرى، كان هنالك أسير يموت تحت التعذيب، ويكتب الطبيب التواب «الدكتور صباح» تقريراً عن الوفاة بسبب أمراض القلب أو قرحة الأمعاء أو ضيق التنفس. أما مكان الدفن فكان «مقبرة بدرية خسرو» حيث يرقد الشهداء من الأسرى بجانب إخوتهم من موتى العراقيين المهجرين في مدينة أراك. من حسن حظ أسرى معسكر أراك أن الإيرانيين أفسحوا المجال للجلادين من الأسرى بالالتحاق بالقوات الإيرانية في جبهة الحرب مع العراق، فبين فترة وأخرى، تغادر المعسكر وجبة منهم فتخلص من أذاهم ونسمع بعد أسابيع عن مقتل معظمهم في جبهات الحرب.

في منجیل، كنا أحياناً نشكو الجوع والمرض والإهانة، أما هنا فلا بد أن نرفع شكوانا إلى الأسير العراقي المسؤول قبل أن نحول إلى الإيرانيين. كانت عاقبة مخالفة تنفيذ التعليمات وخيمة؛ لذلك

رأيت الأسرى المساكين كيف استقبلونا أول مرة بالبصاق والشتائم، وعندما وصلت المعسكر اللجنة الدولية للتحقيق بشأن معاملة الأسرى، هدد أولئك المسؤولون أي أسير بالموت إذا تحدث مع اللجنة أو أجاب عن أسئلتها. أدرك رئيس اللجنة، وكان ضابطاً نمساوياً كبيراً ذلك، فاكتفى بتحيةة الأسرى ومصافحة بعض الأسرى من وراء الأسلاك الشائكة، كنت واحداً ممن صافحهم، فضغطت على يده لأعلمه بأننا ممنوعون من الكلام، فضغط بدوره يدي ليخبرني بمعرفته ذلك.

في منجیل، كنا نتمتع بالمشي في ساحة كبيرة، أما هنا فلكل قاطع ساحة صغيرة لا تزيد مساحتها على خمسين متراً مربعاً. في آراك أُلفنا العيش مع الجرذان التي كانت تسرح ليلاً فوق الوجوه والأجساد وتحت الأغطية، وتنزوي نهاراً في السقوف أو في ثقب داخل الجدران. كان أسوأ ما حدث لي في آراك أنهم فرقوا بيني وبين أحمد وزيني وفراس، رموا كل واحد منا في قاطع من قواطع المعسكر الثمانية والتي بلغ عدد الأسرى فيها حوالي أربعة آلاف أسير، لكنني حمدت الله أن عدداً من أسرى معسكر منجیل كانوا معي في القاطع الذي بقيت فيه ومنهم «سيد مهدي».

سار كل شيء كما لو أن الحرب لم تنتوقف في آب عام 1988. لم يعد الأسرى يتحدثون عن لجان الوساطة من المؤتمر الإسلامي ودول عدم الانحياز، وإنما تركزت آمالهم على ما يقوله الأمين العام للأمم المتحدة خافيير دي كويلار ومبعوثه السويدي يان الياسون ومباحثات وزير خارجية العراق وإيران، طارق عزيز وعلي ولايتي. لقد انطفأت الفرحة بوقف إطلاق النار عندما رفض الإيرانيون تبادل الأسرى. رحيل الخميني في حزيران 1989 لم يغير من موقف الحكام الإيرانيين من قضية تبادل الأسرى.

\* \* \*

في ذلك الصباح من يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني، بعد وقف القتال بعام وخمسة أشهر، كان الأسرى في القاطع الرابع يتوقعون عقوبة لكن لم يتصور أحد أنها كانت ستحدث بصورة قاسية فظيعة. قبل يوم من ذلك التاريخ المائل أمامي بكل تفاصيله المروعة، غادر الياسون طهران متوجها إلى بغداد من دون أن يبشرنا بخير. تساقط الثلج لكنه سرعان ما انقطع، فالبرودة في تلك المنطقة تصل شتاء إلى ثلاث وثلثين درجة تحت الصفر. حينذاك دوت قهقهة صباح بلاك وسط الممر الرطب الضيق الذي انتشرت على جانبيه حجرات تكدست فيها الأسرة، وتهاوت على جانبيه الأجساد المرتجفة بحثا عن الدفء والحديث عن مشاريع العودة وما تبقى من العمر. قال صباح بلاك: «تعرفت على فتاة وطلبت منها أن نحدد موعدا، وافقت بشرط أن يكون مكانا عاما، فاتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي في الساعة الثالثة بعد الظهر وسط سوق منطقة الحبيبية ببغداد، لكن حدث أن تأخرت ربع ساعة. عندما رأيتي صاحت بتذمر وغنج «خائن»، وقبل أن أعتذر لها عن تأخري، قفز نحوي مجموعة من الرجال بثياب مدنية يضربون رأسي بكعاب مسدساتهم يطالبونني بالاعتراف عن بقية شبكة التجسس، ولم أتخلص من قبضتهم إلا بعد أسبوع من التحقيق والاعتقال.. لو كانت هنا تلك المسكينة ماذا كانت تقول عن الخونة؟»

جلجات ضحكته ثانية، شاركه الجالسون في الضحك. لكن الضحكات انقطعت حين أطل الجندي أو الأرشد الإيراني المسؤول عن القاطع من غرفته التي يقيم فيها داخل القاطع. دارت عيناه على الأجساد المتراسة على جانبي الممر، توقف عن مضغ لقمته فيما راحت رائحة الشواء تنتسرب من باب حجرته المفتوح لتمعن في تعذيب الجياع الذين لم يذوقوا طيلة النهار من الطعام غير نصف رغيف رقيق يابس وبضع حبات من الفاصوليا. حطت عينا الجندي على صباح بلاك الذي وقف مسندا مرفقه على حافة باب إحدى الحجرات الضيقة العفنة متثابرا وكأن الأمر لا يعنيه. نزع صباح طاقيته التي حاكها بمهارة من خيوط منشفة قديمة، قال بالفارسية مخاطبا الجندي: «أغا، كنا نتحدث عن يخون إخوته.»

اخنقى الجندي في حجرته مغلقا بابها بضربة قوية من كعب حذائه الثقيل. راقبنا بقلق تسلسل عدد من الأسرى التوابين إلى داخل غرفة الأرشد الإيراني. فرك صباح شعر رأسه القصير المبقع بالشيب، قال وهو يعيد الطاقية على رأسه: «هل تدرون من عاد إلى المعسكر والذي رأيت من النافذة قبل قليل؟»

طقطق أحدهم بمسبحته المصنوعة من قطع منتظمة من غلاف شفاف لقلم حبر جاف: «لا بد أن يكون أحد المرضى، أليس كذلك؟»

قال آخر: «إنه لأمر غريب أن يعود المريض سالما من مستشفيات أراك! من هو بالله عليك؟»  
حك صباح وجهه الأبيض الشاحب النحيف مصوبا نظراته إلى باب حجرة الأرشد الإيراني وإلى باب القاطع ذي القضبان الحديدية المتقاطعة والمغلق بسلسلة غليظة، قال متتهدا: «عاد بستاني.»  
بهت الجالسون وتبادلوا نظرات سريعة وكأن كل واحد منهم ينتظر من صاحبه عبارة تخفف من قلقه. أطلت على الممر رؤوس من كانوا ممددين على أسرتهم. كان ذكر الاسم كافيا ببث الرعب في نفوس الأسرى. ذلك الضابط الأسمر الطويل الممتلئ المنحدر من عرب إيران والمنتقل في

وظيفته بين طهران وأراك استعرض فينا ذات ظهيرة، قبل عام، آخر مبتكراته في العقوبات الجماعية، فبعد أن أمر الجنود بضربنا بالسياط والعصي الكهربائية، أبقانا نرحف على بطوننا ثلاث ساعات على الثلج الذي غطى الساحة الصغيرة، بعدها أمرنا أن نسير على أطرافنا الأربعة مقلدين بأصوات عالية نباح الكلاب ونهيق الحمير وصياح الديكة.

قال أسير كان يجلس في الممر ملتفا ببطانيته: « إذا عاد بستاني عاد الموت معه، فالموت يتبعه كظله.»

في ذلك المساء الذي سبق الصباح الرهيب هبت عاصفة ثلجية، فنكومنا عند النوافذ الصغيرة ولم نعد نرى شيئاً سوى دوامات الثلج في الهواء. تعالى رنين جرس التليفون في حجرة الأرشد الإيراني الذي ما لبث أن استدعى الأسير العراقي المسؤول وجماعته. خرجت المجموعة بعد قليل ووقف الأرشد العراقي، الذي كان يوماً مسؤول التوجيه السياسي في وحدته العسكرية ونقلوه معنا من منجیل، قال متحفزاً: «عاد العقيد بستاني لتسلم إدارة المعسكر، كان منزعاً من التقارير التي قرأها عن تصرف المعادين للإسلام والقيادة الإيرانية، فأمرنا أن نرفع إليه هذه الليلة قائمة برؤوس الفتنة والشغب في قواطع المعسكر.. سيكون صباح الغد ساعة القيامة.»

همس صباح بلاك وهو يغادر مكانه متجهاً ناحية المرافق الصحية الواقعة عند نهاية الممر: « ينبغي إنجاز المهمات الضرورية قبل أن تبدأ الجولة.»

أطلق ضحكة استهزاء قصيرة تردد صداها وسط الممر والحجرات الصامتة.

في تلك الليلة، لم يحرك الأسرى ساكناً، وراحت الجرذان تتنقل مطمئنة في الحجرات الضيقة وتقفز بين الأواني الرصاصية التي تقوح منها رائحة مقرزة سببها الصابون الرخيص المكون من زيت الشحوم. كان من الصعوبة أن تغمض جفنيك حين يكون الموت على مسافة قريبة جداً منك، يحثك بك.

على يميني، وفي السرير الموازي لسريري في الطابق الثاني من الأسرة في الحجرة الثالثة، رأيت صباح بلاك يحدق في صورة أمه الملتصقة بعجين الخبز أسفل السرير الذي يعلوه. عرفت صباح قبل حوالي ثلاث سنوات ونصف، بعد وصولي أراك بثلاثة أشهر يوم نقلوني إلى هذا القاطع لأكون تحت مراقبة أشد لأن الأرشد العراقي كما قالوا يعرف جيداً طريقي الملتوية في زعزعة إيمان المؤيدين للقيادة الإسلامية. في ذلك الحين وقف أمامي اثنان من الأسرى الجلادين، قال أحدهم: «يقال عنك إنك لا تتمنى قيام جمهورية إسلامية في العراق، ماذا تقول الآن؟»

لم أجب، فقال الثاني: « يبدو أن الإيرانيين في منجیل متساهلون كثيراً، لكننا هنا سنسحق رأسك بالنعال، سنشوه ملامح وجهك هذا.»

قفز أسير شاب نحيل من سريره ليقبض على رقبة أحدهما، صاح متوعداً: « أقسم بالله إذا تحرش أحدكم به مرة أخرى سأخنقه بيدي.»

فوجئت أنهما لم يتقوها وخرجا من الحجرة على عجل، كانا يخافانه. سمعت فيما بعد حكايات كثيرة عن جرأته وشجاعته، وعن عناده أيضاً، والإيرانيون عرفوا ذلك عنه، وقيل لي مرة إنه أدمى ثلاثة من أولئك الأسرى التوابين حين هاجموه يوماً في حجرته. منذ ذلك اليوم ربطتني به

صداقة قوية. رفع صباح رأسه متطلعا من النافذة الصغيرة القريبة المظلة على الممر الترابي الفاصل بين قاطعنا والقاطع المجاور، قال سارح البال: «هل تحب منظر الثلوج؟» أجبت وأنا أشاركة التطلع من النافذة: «لم أعد أحب منظرها، فعندما أراها ترتجف ركبتي وتقلص أصابعي، لكنني أحب رؤيتها في مكان غير هذا، في الصور والأفلام السينمائية، فهنا يتوجب علينا الخوض فيها بأقدام عارية إلا من النعال لنزيحها من الساحة. صرت أرى هذا الثلج أسود. ما الذي تتوقعه؟»

تمدد على سريره عاقدا ذراعيه تحت رأسه: «سنتعب كثيرا في إزاحة الثلج.»  
«أقصد العقوبة التي تنتظرنا في الصباح؟»

تثاءب بصوت عال: «ليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، أغمض عينيك واسرح في خيالاتك وكأنك قد عدت إلى الوطن وستمضي هذه الليلة مع أهلك أو أصحابك، عندئذ ستستغرق في النوم قرير العين.»

قبل أن يدير رأسه إلى الجهة الأخرى، سألتني: «نسيت أن أسالك، هل صحيح أن صديقك زيني مريض جدا؟»

أجبت متحسرا: «أصيب بجلطة في القلب، أخبرني مضمّد القاطع أمس أنه التقى به عند حجرة الطبيب، قال إن حالته مستقرة لكنه يعاني من ثقل في لسانه عند الكلام.»

كنت أرى زيني ماشيا في ساحة القاطع المجاور، لكنني لم أستطع الحديث معه، فالحديث بين أسرى قاطع وقاطع ممنوع، حتى الإشارة أو التحية ممنوعة. كنت أراه يمشي ببطء محني الظهر، كنا نتبادل النظرات، وكانت تلك وسيلتنا ليعرف أحدا أخبار الآخر من الملامح وطريقة المشي، ولا أنكر أن الإيرانيين كانوا يسمحون لنا بالصياح والإشارة بين القواطع لمدة ربع ساعة لثلاث مرات في السنة، في عيدي الفطر والأضحى وفي عيد النوروز.

لم أعد إلى العراق تلك الليلة كما اقترح صباح بلاك، ولم يساورني الشك أن معظم الأسرى أمضى ليلته مسهدا يدوي في أذنه صراخ المعذبين، وتلوح أمامه صورة بستاني مزمجرأ، ووجه صباح بلاك بثباته وعناده.

كان صباح بلاك، في كل عقوبة جماعية داخل القاطع، أول من يعاقب وآخر من يخلى سبيله. في العام الماضي، أمر بستاني جنوده أن يضربوا صباح بلاك بقسوة لكي يستمتع بصرخة استغاثة منه أو صيحة ندم، لكن «صباح» ظل صامدا يتلقى ركلات الأحذية وضربات الموجعة. حينئذ التفت بستاني نحو أسير مسن كان يئن من وقوفه الطويل المتعب، فجرّه بقوة وألقى به أرضا وراح يركله، داس على صدره فحفظت عيناه وصرخ متوسلا. لكن بستاني لم يأبه به، كانت عيناه تراقبان ردود فعل صباح الذي أدرك غاية الجلال، حينها أطلق صرخة مدوية، فغادر بستاني ساحة القاطع باسماء، غير أنه لم ينس في اليوم الذي صدر أمر نقله إلى معسكرات طهران أن يزور قاطعنا، نادى صباح بلاك وقال له متوعدا: «صباح بلاك.. في المرة القادمة لن تغتلبت مني أبدا.»

في تلك الليلة الثلجية وبعد ساعتين على موعد النوم الإجباري، ظهر الجندي الأرشد وسط الحجرة، اقترب من سرير صباح وربت على قدميه، وحين رفع صباح رأسه من وسادة الإسفنج

المتأكلة، قال الجندي بصوت خفيض: «أنت تعرف قبل غيرك من هو بستاني.. لكن يمكنك أن تنقذ نفسك من عقابه القاسي.»

«ماذا تريد مني أن أفعل؟»

أقترب الجندي أكثر حتى لامس خده عامود السرير: «أن تطلب العفو من أبا بستاني...»  
قاطعته صباح محتدا: «أتوسل وأطلب العفو؟ لماذا؟ أنا لم أرتكب أي ذنب كي أطلب العفو.»  
تراجع الجندي إلى الوراء خطوة قائلا: «كونك أسيرا هو تهمة قد تفودك إلى مقبرة بدرية خسرو.  
ليس الصبح ببعيد.»

شيعه صباح بنظرة مليئة بالاحتقار قبل أن يسحب الغطاء على رأسه.  
بقيت تلك الليلة أتقلب في فراشي محاولا الفرار من شريط مشاهد الضرب والسياط المبرومة  
والعصي الكهربائية والركلات العنيفة، ومن خوفي على صباح بلاك.

كان صباح يحدثني عن كل شيء في حياته، عن تركه الدراسة الابتدائية بعد وفاة أبيه والعمل مع  
خاله كمساعد سائق، عن حزنه لفراق أمه التي قالت في إحدى رسائل الصليب الأحمر إنها تنتظر  
عودته لتكحل عينيها بحفلة عرسه ولا يهتمها بعد ذلك متى تموت، عن حبيبته التي طلبت في أول  
موعد غرامي أن يكون حفل عرسهما في فندق «المنصور ميليا» وهي لم تكن تعرف أين يقع ذلك  
الفندق. كان صباح يردد دائما بصراحة أن آخر ما قرأه في حياته كان كتاب القراءة للصف الرابع  
الابتدائي، لكنه كان مقنعا في نقاشه معي والدفاع عن وجهات نظره المتعلقة بالحرب الجنونية  
واستبداد النظامين الحاكمين في إيران والعراق.

في ذلك الصباح، كان الثلج قد انقطع، وخرج الجندي الأرشد ليعود بعد قليل صائحا بعد أن  
ضرب عتبة الباب الحديدي بحذائه المغطى بالثلج: «استعدوا.. بستاني متجه إلينا.»

اقترب الخطر وأحسست بالموت القادم إلينا. كنت أسمع دوي خطواته على كثبان الثلج، أصبحت  
دورة الزمن، في لحظات الانتظار المفزعة، بطيئة ثقيلة، تقلصت المخيلة فلم أجد شيئا سوى  
السياط والقبور. صار جسدي المتعب يتحسس الألم قبل وقوعه، لكنني كلما نظرت إلى صباح  
بلاك، إلى هدوئه وثباته، يخف الألم والنقطة أنفاسي.

توقف الزمن تماما عندما رفع الحارس الذي غطى وجهه بالخوذة وياقة معطفه السلسلة الحديدية  
الغليظة، فاتحا الباب على مصراعيه فهاجمنا بستاني والريح وبرودة عشر درجات تحت الصفر  
وشبح الموت. تلاحقت أنفاسي وعلت دقات قلبي. خيم الصمت واختفت مظاهر الحياة على الوجوه  
إلا من حركة العيون الدائرة في محارها بحثا عن خلاص مستحيل، خاصة من جلاذ أقسم أمامنا  
في العام الماضي أنه وفي معسكر بطهران تعب من ضرب الأسرى فأمر أفراد القوات الخاصة  
الواقفين خلف الأسلاك الشائكة أن يطلقوا الرصاص، فقتلوا قرابة ثلاثين من أسرى امتنعوا عن  
تناول الطعام بعد أن عثروا في القدر الكبير على جرد ميت. تقدم بستاني خطوتين، تنفس بعمق  
وقال وهو يطم الحروف بين أسنانه: «صباح بلاك»

ألقي بستاني نظرة طويلة فاحصة على صباح بلاك الذي وقف قريبا من الباب، سحبه من تلايبه،  
قال له: «لا أدري ما الذي يدفعني إلى الظن بأنك تتحداني، كم أكرهك!»

اندفع بستاني خارجا يتبعه صباح بلاك والحراس، وكان ستة أسرى من قواطع أخرى اختارهم بستاني للعقوبة، عرفت واحدا منهم فقط كان معي في منجبل، ينتظرون في ساحة قاطعنا محاطين بهراوات الجنود، حين أعاد الحارس وضع السلسلة الغليظة، تقدمنا ببطء نحو الباب ذي القضبان المتقاطعة، رأينا بستاني يشير إلى الأسرى السبعة أن يخلعوا ثيابهم، رفضوا فأرغمتهم الهراوات على الانصياع فنزعوا ثيابهم إلا من ملابس داخلية متهترئة لم تستر الكثير.

قال أسير حاول إقناع الآخرين بتفأوله: لن تكون العقوبة قاسية إن شاء الله، كل ما في الأمر أن بستاني سيأمرهم بإزاحة أكوام الثلج من الساحة.

قلت ويدي تمسكان قضبان الباب بقوة: حتى لو حدث هذا فهي عقوبة قاسية جدا في هذا البرد القاتل. رأيت بستاني يقود الأسرى العراة والجنود خارج الساحة الصغيرة. هناك في الساحة الكبيرة المحيطة بقواطع المعسكر وأمام قاطعنا، أمر العقيد كل أسير أن يحفر بيديه حفرة أمامه في الثلج. انهالت الهراوات على ظهور الأسرى، ومع ضربات الهراوات، كان الأسرى في القاطع يضربون بقبضاتهم على قضبان الباب.

هل رأيت عيناى ذلك حقا؟ أمرهم بستاني بالتمدد في تلك الحفرة، صاح بالجنود أن يدوسوا بقوة على الثلج الذي كان يغطي صدور المساكين السبعة وسيقتلهم. كان الجراد واقفا وسط دائرة من الرؤوس الحليقة الظاهرة فوق الثلج الذي كان قد غطى الجبال البعيدة والأشجار القليلة القريبة والأسلاك الشائكة وسقوف قواطع الأسرى.

تأوه أحد الأسرى المزدهمين عند الباب قائلا: «يجب أن نفعل شيئا.»

سألته بصوت مختنق متمنيا لو تمكنت من إقناع نفسي بما كنت أقول: ما الذي يمكننا فعله الآن؟ هل يسمع أحد صراخنا ونحن في هذا البرزخ الثلجي ووسط هضبة بعيدة عن الناس؟

دنا بستاني من صباح بلاك، ركل رأسه بطرف حذائه الأحمر ذي العنق الطويل. أعاد ركله ثانية. افعل شيئا يا وليد قبل أن يسحقك الندم، هؤلاء السبعة أمامك يعادلون أولادك وأهلك وعشيرتك، ماضيك وحاضرك، راية بلادك وعنوان شرفك، إنهم أنت. لا تبك يا وليد فالبكاء لا يدفع أجسادهم. افعل شيئا، قل شيئا. إنهم يموتون وأنت تلوذ بالقضبان كيأيس لم يجد حلا غير اللجوء إلى شبابيك أضرحة الأولياء.

راح الجنود يضغطون الثلج على جسد صباح. ما بك يا وليد؟ هل تكفي بدور الشاهد في هذه الجريمة المروعة؟ هل تنتظر معجزة ما تنقذهم؟ افعل شيئا.

كنت أحدث نفسي بصوت مسموع لكني اكتشفت أن أحدا لم يسمعني لأن الآخرين كانوا أيضا يحدثون أنفسهم بصوت مسموع. كنت أرتجف متشبثا بالقضبان. كنت أبكي.

بدأ الثلج يتساقط، وراح المشهد يخفت شيئا فشيئا. مرت الدقائق ثقيلة بطيئة ولم نعد نسمع سوى صفير العاصفة الثلجية. رأيت شبح بستاني وسط الثلج يتقدم نحو القاطع، وجنودا مسلحين انتشروا حول القاطع ووراء الأسلاك الشائكة التي بدت حبالا بيضاء سميقة. طلب بستاني خروج مجموعة من الأسرى الشباب، فغاب هؤلاء وراء ستار الثلج المتساقط ليعودوا بعد قليل حاملين الأجساد العارية المتجمدة. هرولت إلى نافذة الحجرة المطلة على الممر المؤدي إلى المستوصف الصحي، صرخت هلعاً: أهم أحياء؟

أجابني أحد اثنين يحملان أسيرا عاريا مغمى عليه: خمسة منهم مازالوا يتنفسون.

كان آخر من مر أمامي محمولا، صباح بلاك، صرخت: صباح.. هل تسمعني؟

انتبه إليّ الأسير الذي كان يحمله من إبطيه فيما كانت يدا صباح مرفوعتين في الهواء، فانزلت قدم ذلك الأسير في حفرة فاختل توازنه ومال جسمه، فانشق الجلد تحت أبط صباح ولاح لي لحم أبيض، قال الأسير بغضب وهو يعتدل في وقفته ليوصل مسيره: كيف يسمعك؟ إنه ميت.. لقد قتلوه.

كان الشحوب قد غلف وجه صباح النحيف الأبيض. رأيته قد عض لسانه، ربما منع نفسه من الصراخ. في تلك اللحظة ترددت في أذني صرخة صباح يوم عذبوا الرجل المسن أمامه، فأطلقت صراخا عاليا، دوى الصراخ في القاطع، انهالت علينا الهراوات وتقاذفتنا أحذية الجنود. انطلق الرصاص في الهواء. شجت رأسي ضربة عنيفة، ما أذكره بعدها أن الثلج ظل يتساقط بغزارة.

في الدقائق الأخيرة من مساء العشرين من حزيران 1990، اهتزت بنا الأرض، لم تحدث إصابات، لكننا في الصباح علمنا من مكبرات الصوت الموزعة على قواطع الأسرى أننا كنا بعيدين عن مركز الزلزال الرهيب الذي ضرب المناطق الشمالية من إيران. قالوا إن قوة الزلزال كانت سبع درجات وثلاثة أعشار الدرجة على مقياس ريختر. قالوا أيضا إن مركز الزلزال كان مدينتي «رودبار» و«منجيل» فدمرهما تدميرا شاملا، وبلغ عدد الضحايا أربعين ألف قتيل ومائتي ألف جريح. كان الخبر صاعقا موجعا، كنت قلقا أيضا على مصير الأسرى هناك.

كانت المعجزة التي رأيناها عصرا على شاشة التلفزيون وما قالتها وكالات الأنباء بأن مدينة «منجيل» تحولت إلى أنقاض وخرائب، عدا معسكر الأسرى الذي ظل قائما. قالت امرأة من أهالي منجيل لمراسل التلفزيون وهي تشير إلى المعسكر معللة معجزة سلامة الأسرى فيه: «كان الله رحيفا بهم لأنهم غرباء مثل الإمام الحسين.»

\* \* \*

يا للغرابة! مرت عادية جدا اللحظة التي انتظرتها طوال دقائق وساعات وأيام وسنوات. لا، ربما كان ذلك حلما؛ لأنني لم أعد أميز حقا بين الحلم والواقع. لكنها الحقيقة، لقد انتهت فجأة ثمانية أعوام وشهران وسبعة وعشرون يوما وعشرون ساعة وخمس عشرة دقيقة. انتهى الانتظار حين أعلن مذيع التلفزيون الإيراني «حياتي» نبأ عاجلا عن قرار إيران بالموافقة على تبادل الأسرى بعد إعلان حكومة العراق قبولها اتفاقية الجزائر التي كانت قد ألغتها يوم بدء الحرب مع إيران. بعد ساعتين فقط، أخبرنا الضابط الذي حل مكان بستاني أن نستعد للسفر إلى طهران ومن ثم إلى العراق. كنت أظن أنني لا أتحمّل وقع بشري الخروج من طوق الأسلاك الشائكة، لكن لم يحدث شيء لي، لم أسقط مغشيا عليّ، لم يصبني الجنون من فرح طاغ، لم تجتحي انفعالات قوية. أصابني الذهول فقط، ربما لأنني لم أعد أحلم بشيء. لقد ضعف جسدي وتقرحت معدتي وتشنجت أصابع أقدامي وابتيض شعري وتساقتت أسناني. كنت مجرد هيكل عظمي مكسو بطبقة رقيقة من الجلد سُجلت عليها ضربات السيّاط ودمامل أمراض الحساسية وعضات الجرذان ولسعات البعوض. اكتشفت في تلك اللحظة أن ما يفصلني عن عائلتي وأصحابي مسافة سنوات طويلة، وأن كل شيء تغير حتما ولا بد لي من التكيف للمتغيرات التي كنت أجهلها، كِبُر الصغار ومات الكبار. الأطفال الثلاثة أصبحوا الآن شبابا قد تضجرهم حكاياتي عن معاناة الأسر. طفلي الذي ولد بعد أسري كيف له أن يألّف وجود أب لم يره طوال سنوات طفولته. كان عليّ أن أروض نفسي لتقبل موت أربة عنمت رسائل الصليب الأحمر على ذكر وفاتهم.

بكى معظم الأسرى وصرخوا وضحكوا ورقصوا ثم عادوا للبكاء. نثروا ما احتفظوا به من مربعات السكر، مزقوا الأسمال الملفوفة في الصناديق الكارتونية الرطبة المغلفة بقطع من القماش. ضربوا الأواني الرصاصية بأرضية الحجرات الكونكريتية حتى جعلوها قطعة مستوية قبل أن يرموها على أرضية الممر الكونكريتية التي امتلأت بالنفايات وقصاصات الورق وخرق الأسمال. لم ينم أحد تلك الليلة. بكيت كثيرا وأنا أرى للمرة الأولى أن الأبواب أمامي لم تقفل بالسلاسل الحديدية الغليظة. خشيت على نفسي من الموت لفرط فرحتي بأنني سأمضي الليل للمرة الأولى منذ أعوام طويلة واقفا بحرية أتأمل النجوم وأنتفس هواء منعشا خلا من الرطوبة والعفونة والعطن.

في صباح اليوم التالي انطلقت بنا الباصات. خرجنا أخيرا من تلك الهضبة الملعونة. في الطريق إلى طهران، كان القرويون الطيبون، الذين كانوا ينتظرون على جانبي الشارع مرورنا، ينثرون مكعبات السكر والحلوى على الباصات التي كنا فيها، كنت أدرك أن تلك الحلوى لم تكن رخيصة الثمن، ومع ذلك كانوا ينثرونها بسخاء. امتلأت عينايا بالدموع وأنا ألوح لهم بيدي، وددت أن أخبرهم بصوت عال أن الجلادين من أمثال بستاني وشريف عسكري وخورشيدي واعتمادى وفتحي وأبشاري وكريمي ومهدوي وداريوش ليسوا من طينتهم الطيبة، وأن البشر كلهم من طينة واحدة جُبلت على الحب والتسامح.

في شوارع طهران حدث الشيء ذاته، اصطفت الناس على الأرصفة يلوحون لنا بود وينثرون الحلوى. انتهت إلى سيارة صغيرة كانت تحافظ على موازاتها للباص، وعندما توقفت الباصات للترود بالوقود، توقفت السيارة الصغيرة على مقربة منا في محطة تعبئة الوقود، نزلت منها امرأة شابة جميلة تحمل بين ذراعيها طفلا في غاية الوسامة، كانت المرة الأولى منذ سنوات التي أرى

فيها امرأة عن قرب. اقتربت الشابة من إحدى نوافذ الباص، لكن الجالسين هناك أشاروا إليها أن تكلمني لأنني أجبِد الفارسية. قالت الأم الشابة التي لفت رأسها بشال أسود: «أنا في غاية الفرح لخلاصكم من الأسر، أنتم جيراننا وإخوتنا في الدين. لا بد أنك ستذهب بعد عودتك إلى وطنك لزيارة أضرحة الأئمة في النجف وكربلاء وتقبلها، أليس كذلك؟»

وجدت نفسي أهز رأسي بالإيجاب، فقالت وهي تمد ذراعيها بالطفل: «قبّل طفلي هذا فكأنك تتقل قبلته إلى أرضك الطيبة الطاهرة.»

تناولت الطفل وقبلته، لكن أيدي الأسرى الآخرين خطفته مني، راحوا يقبلونه باكين بصوت عال، وتردد صراخ الطفل، أعدته إليها، تساءلت مستغربة: «لماذا يبكون؟»

أجبتها بصوت مختنق: «لأنهم لم يروا أطفالهم ولم يقبلوهم منذ سنوات طويلة.» مسحت المرأة دموعها بأطراف شالها، ورفعت يد الصغير تودعنا بها.

التقيت من جديد بأحمد القيسي وزيني وفراس وكل أصحابي الذين نقلوا معي من منجیل، وأصحابي الذين عرفتهم في أراك. جمعونا في ساحة كبيرة بمعسكر «الحشمتية» بطهران. كنا، وللمرة الأولى نمضي الوقت ساكتين، وإذا ما تحدثنا ففي جمل قصيرة متباعدة. فرح زيني بالخلاص زاد من ثقل لسانه، أما أحمد فقد بدا رشيقا، لكنه فقد حماسه وتفاؤله. وبعد يومين من بقائنا في تلك الساحة، جاء دورنا للرحيل. قال ضابط إيراني جمع بطاقتنا التي تحمل الصليب الأحمر ليدققها في مكتبه: «أنتم الوجبة الأولى من الأسرى التي ستنتقل بالطائرات إلى بغداد. أتمنى أن تصلوا وطنكم سالمين.»

فجر يوم الثاني والعشرين من آب 1990، بدأنا ننتقل من مكان إلى آخر داخل ذلك المعسكر الذي كان أسراه يراقبوننا من وراء القضبان، فدورهم لم يكن قد جاء بعد. أخذوا منا رسائل الصليب الأحمر وأبقوا لنا صور عائلتنا. في مكان آخر، طلبوا أن ننزع كل ثيابنا وبعد التأكد من عرينا، منحونا ملابس جديدة، فكانت حصتي قميصا فضفاضا أعرض من صدري ثلاث مرات، وبنطلونا أعرض منه، وحذاء ضيقا لم استطع إدخال قدمي فيه. حزمت البنطلون بحبل صنعته من خرق عثرت عليها في برميل أوساخ.

لم يكن ضوء الصباح قد انتشر بعد ونحن مقرصون ننتظر نقلنا إلى مطار مهرآباد الدولي في طهران حين وقف أمامنا عسكري إيراني لم نر وجهه بوضوح، سألنا: «أنتم من معسكر أراك؟»

جاوبته أصوات كثيرة بنعم، سألنا من جديد: «هل عرفتموني؟ أنا العقيد بستاني.»

ساد الصمت. قال بستاني: «أنا آسف عما حصل لصاحبكم صباح بلاك وزميله سيد نعمة.. إن أولئك الخونة من التوابين لم يؤذوكم فقط، بل آذوني أنا أيضا، جعلوني أقتل إنسانا لا جريرة له بعد أن أوغروا صدري عليه. كنت أخاف أن يكتبوا عني تقريرا إلى طهران بتهمة التساهل مع الأسرى، كان قصدي معاقبته وليس موته. لقد قتلت إنسانا كان يمكن أن يكون بينكم الآن يستعجل الزمن ليبرتمي في أحضان أمه. سامحوني أيها الإخوة الطيبون.» بكى بحرقة قبل أن يبتعد عنا غارقا في الظلمة.

حين طلع النهار، كانت سبابتي اليمنى تتحرك على التراب. سألني أحمد القيسي: «ماذا تفعل؟»

«أكتب جراحاتي على التراب.»

صاح عسكري إيراني من بعيد: «جاءت الباصات، أسرعوا فالطائرة تنتظركم الآن.»

\* \* \*

## المؤلف في سطور

\* عبد الجبار ناصر

\* روائي وصحفي وكاتب قصص للأطفال.

\* عمل في حقل التدريس في عدد من محافظات العراق، ثم انتقل للعمل محرراً في مجلة «فنون» العراقية، وبعدها عمل محرراً و مترجماً في دار ثقافة الأطفال في بغداد.



\* غادر العراق عام 1995 ليستقر في سيدني بأستراليا؛ حيث يواصل الآن دراسته العليا في الترجمة.

\* صدر له :

\* رواية «كتابة على التراب» عام 2009 عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

\* رواية «أيام المستعصم الأخيرة» (2011) عن مكتبة الدار العربية للكتاب .

\* كتاب «ثقافة الصورة في وسائل الإعلام» (2011) عن الدار المصرية اللبنانية.

\* كما صدر له ثلاثون كتاباً للأطفال والأولاد، طبعت في بغداد وبيروت ودمشق.